في مكتبة القصة

القصة في الأدب الفارسي

تأليف : د . أمين عبد المجيد بدوي

نقد وتقديم : محمود تيمور

لا ننكر أن أهل الشرق ، على ما بين أممه من صلات عزيزة ، وأعراق وثيقة ، لا يتبادلون المعرفة الكافية بأنواع الأدب الشرقي ، لا من حيث الماضي في مداه البعيد ، ولا من حيث الحاضر في واقعه القريب • فخليق بنا أن نرحب بدراسة أدب الشرق ، على اختلاف مواطنه الدانية والقاصية ، ولا سيما حين يتجرد لهذه الدراسة علماء أكفاء ، أعدوا أنفسهم لها خير اعداد ، فاتقنوا من اللغات الشرقية ما يعينهم على الاطلاع الوافي ، والتقدير الدقيق ، وما يطمئنهم الى أنهم يستخلصون نتائج البحث بفضل التعرف والتذوق ، لا من طريق النقل والتعويل على الغير •

ومن أخص ما تجب العناية به من أنواع الأدب الشرقي دراسة القصة ، فان للشرق فيها جهودا مأثورة ، على تعدد ألوانها بين منثور ومنظوم ؛ وفي عصرنا الحاضر الذي ازدحمت فيه الحياة الأدبية بالقصة الغربية الحديثة العهد ، ما أحوجنا الى أن نقف على تاريخ القصة الشرقية في العصور المواضي ، ففي وقوفنا على تاريخها سبيل الى أن نستبين المصادر والأصول التي لا يسع مفكر أن يجحد أثرها في عقولنا وفي نفوسنا ، ونحن نكتب القصة ، من حيث ندري ومن حيث لا ندري •

لا عجب اذن في أن المكتبة العربية حرية أن تحتفي باستقبال تلك الدراسة التي طالعنا بها اليوم الدكتور « أمين عبد المجيد بدوي » ، وجعل موضوعها «القصة في الأدب الفارسي» • وانها لدراسة تضع في الاعتبار الأول كل مقومات البحث العلمي الدءوب غير العجول ، وقلما تتوافر هذه المزية فيما توالينا به المطبعة من كتب تحمل اسم البحث ؛ وتتخذ مظهر الدرس ، وحظها في الحق منها قليل •

بدأ المؤلف دراسته من حيث بدأ الفرس القدامى ينتجون أدبا ، وعرض لمكان القصة من ذلك الأدب على مراحل العصور ، ثم أخذ يدرس في تؤدة ألمع جوهرة في أدب الفرس الاسلامي ، وهي « شاهنامة الفردوس » ، فقد فسح لها أكثر من مائة

صفحة ، هي ربع الكتاب ، ثم مضى في دراسة الحكاية الفارسية على تنوع أشكالها ، وكانت الخاتمة تراجم لأعلام القصص الفارسي .

والمؤلف لا يترك ناحية من نواحي الموضوع ، ولا جزئية من جزئيات البحث ، الا سلط عليها أضواء التحقيق والتمحيص ، ينفي أو يثبت ، ويؤكد أو يستريب ، ويأبى أن يسجل شيئا الا وقد اطمأن فيه الى قرار ، غير مقتصر في مصادره على نطاق محدود ، فهو حين يركن الى المصادر الفارسية في لغتها الأصيلة ، متخذا منها أساسه الوطيد ، لا يغفل جهود الباحثين ، شرقيين ومستشرقين ، في شتى لغات الشرق والغرب .

ويلخص لنا المؤلف عمله في قوله :

« وقصاراى أن أقول : انى حددت معالم القصة الفارسية في وضوح ، لا يشوبه غموض ، ونفضت عن أدرانها ما بصرت به من ضلالات الأخطاء الشائعة والأوهام ، وأعدت كتابة تاريخ الملحمة الفارسية بالغة ذروتها في « شاهنامة الفردوسى » مجردا من التناقض والاضطراب ، فجنبت الباحث الضرب في شعاب ومتاهات ، ويسرت له الوقوف منها على معالم بارزة يتخير أيها شاء ... »

واذا كان المؤلف قد صرح بأنه أمضى عشر سنين في حبكه لتلك الدراسة فليس من ريب في أن القارىء المتمعن سيدرك أن ذلك التصريح لم يكن من المؤلف مجرد دعوى ، وأنه لم يمض هذه السنوات العشر عبثا دون جدوى ، فتلك آثار الكد والجهد واضحة في طريق الدراسة على تعاقب مراحلها من فصل الى فصل ، بل من سطر الى سطر .

وقد نجح المؤلف نجاحا ملحوظا في أنه جعل من العسير على المتعقب أن ينقده فيما عمل ، ولكن لعله أتاح له أن يجد السبيل ميسورا الى نقده فيما ترك ... فهو في مقدمته يقول :

« وقصرت بحثى هنا على القصة الفارسية ذات الطابع القومى المميز لها عن سواها ، وضربت صفحا عن التعرض للقصة المعاصرة في الأدب الفارسي ، لأنها بحكم مقوماتها الفنية وأهدافها ــ قصة وافدة ، ذات طابع غربى لا يقوى على اخفائه تمويه ، ولا يمكن القول بأنها فارسية لمجرد رسم خطوطها في البيئة الايرانية ، الا اذا جاز لنا أن نسمى أبنيتنا وأزياءنا الحديثة وسائر مرافقنا ومقومات حياتنا العصرية التى قبسناها من الغرب مصرية لخلقها بأيد مصرية ومن خامات مصرية وفي أرض مصرية » .

ولو أن الاستاذ المؤلف أخلى مقدمته من هذه الفقرة ، لما كان لنا عليه من سبيل ، فحسب كتابه أن يؤرخ للقصة الفارسية في عصورها الخوالى ، وله أو لغيره من بعده أن يستأنف الدراسة لقصة الفرس في العصور التوالى ، ولكنه أبى الا أن يرسله رأيا حاسما ، وحكما جازما ، وهو أن القصة المعاصرة في الأدب الفارسي ليست فارسية ، ومن ثم ضرب عنها صفحا .

ذلك رأى ننكره عليه . وحكم نراجعه فيه ، لأنه يتصل بقضية جوهرية فى معنى الأدب القومى ٠

أفى الحق أن القصة تفقد قوميتها ، ونسبتها الى وطن كاتبها ، اذا كانت من حيث القالب والمنهج الفنى فى المعالجة والصياغة ترجع فى أصولها الى قومية أجنبية ووطن خارجى ؟ ٠

وكيف نفرد القصة الفارسية المعاصرة بهذا الحكم ، ونقصر عليها هذا الرأى ، دون أن نعممه بحيث يشمل القصة الفارسية على مدار العصور منذ نشأة الأدب الفارسى بوجه عام ؟ ٠

ان البحث فى أصول الفن القصصى عمل نقدى تاريخى لمن يدرس نشوء الفنون الأدبية ومراحل تطورها وخطوات التجديد فيها ، ومصادر ذلك كله فى الشرق أو فى الغرب ، ولكن القصة تكتسب نسبتها الى قومية كاتبها بغض النظر عن تلك المصادر والأصول ، فالقصة ايطالية أو انجليزية أو فرنسية بأن كتابها ، من الطليان أو الانجليز أو الفرنسيس ، صوروا فيها بيئاتهم وخصائص أممهم ، أو استمدوا أحداثها من أوطانهم ، أو عبروا فيها عن ذات أنفسهم ولون استجابتهم للحياة من حولهم ، أو نفضوا فيها مشاعرهم الانسانية التى تأثرت بما يحيط بهم من أحوال وملابسات واذن : فالقصة الفارسية المعاصرة صحيحة النسبة الى القومية الفارسية ، مادام كتابها قد استلهموا موضوعاتها واحداثها وشخصياتها من بيئات فارسية فى أرض فارسية وماداموا قد ترجموا فيها عن روح قومية تأصلت بوراثات فى مجرى التاريخ الجماعى لتلك الرقعة من الأرض ، وذلك كيفما كان الأمر فى منشأ اكتساب أولئك الكتاب للنمط الفنى فى كتابة القصة من المشرق أو من المغرب ، فى الماضى أو فى الحاضر ٠

ويمكن أن نعرف الأدب القومى بانه الأدب الذى يتناول حياة جماعة انسانية خاصة ، مصورا مشكلاتهم الاجتماعية ، صادقا على وجدانهم ونفسياتهم فى اصالة وعمق ، وبقدر ما يتناول هذا الأدب موضوعات جوهرية لا سطحية ، ويعالج مشكلات تمس صميم الكيان البشرى لا الأحوال الطارئة ، يرتفع مستواه الفنى ، ويعد من الادب العالمى الرفيع ٠ وفى ضوء هذا التعريف يقوم ميزان القصة الفارسية المعاصرة ، وان كانت من حيث المنهج قصة وافدة ذات طابع غربى ٠

لقد عرض لنا المؤلف فى كتابه تاريخ القصة فى الأدب الفارسى ، باستثناء القصة الفارسية فى العصر الحاضر ، وانما عرض ذلك علينا باعتباره أدبا فارسيا قوميا ، على حين أن فى أنواعه وألوانه ما هو مستمد من أصول أجنبية ، أو مستوحى من مصادر خارجية ٠ وكان موقف هذه الانواع والالوان فى الماضى من الآداب العالية السابقة ، هو موقف القصة الفارسية المعاصرة من القصة الغربية الحديثة ، ألم يعرض علينا المؤلف كتاب « كلية ودمنة » ، وهو فى جملته هندى الاصل ، بل هندى النص بل ان نسخته الفارسية لم يعثر عليها ، وما فى لغة الفرس الآن منه هو المنقول عن الترجمة العربية ؟ أو لم يعرض علينا المؤلف كذلك من ألوان القصة الفارسية

« مقامات حميدى » وهى عربية الطراز ، مكانها فى الأدب الفارسى مكان التقليـــــد والمحاكاة ؟ •

ولو ساغ لنا أن ننفى القومية عن لون من الأدب ، لتأثره فى مقوماته الفنيـــة بنمط خاص ، لما استطعنا أن ننسب أدبا الى قومه ، فمــا من لون أدبى الا كانت له مراحل من التأثر والاستمداد ،وأطوار التمس فيها أسباب التنمية من هنا وهنالك • فالقصة الغربية نفسها لا تجد بلدا بعينه فى الغرب هو وحده دون ســــواه مناط قوميتها ، ولكن الأمم الغربية لكل منها اسهام فى صياغة القصة وتطورها على النمط الفنى الحديث ولكل منها قوميتها الخاصة فيما أنتجت من القصص ، متمثلة فيما عبرت به تلك القصص عن روح الأمة وطابعها ونظرتها الى المجتمع والحياة •

فالقصة الفارسية المعاصرة جديرة بالدرس والبحث ، باعتبارها أدبا فارسيا قوميا ، وان كانت باعتبار مقوماتها الفنية المنهجية قصة وافدة ذات طابع غربى •

وان وضعها على بساط الدرس والبحث سيجر الى تعرف ما اســـــتمدته من القصص الغربية قلبا وقالبا ••• وما عسى أن يكون فى مضامينها من وراثات ترجع الى أدب الفرس القديم ، شأنها فى ذلك شأن القصة المصرية فى الادب العربى المعاصر فهى فى مظهرها الفنى وفى مقوماتها المنهجية قصة غربية الطـــابع ، ولـــكنها فى موضوعاتها وفى روحها وفى تعبيرها مصرية ، عربية ، شرقية •

وما أظن الأستاذ المؤلف الا مستحجما الوثبة جديدة ، يقدم لنافيها القصــة فى الأدب الفارسى المعاصر ، فى ضوء الأسلوب العلمى المكين الذى أرخ به للقصة فى أدب الفرس القديم •

محمود تيمور



حديث الشهر

مع مؤلف قصة (قنديل أم هاشم)

يحيى حقي

يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

ان كنت لم تره فهو كاتب دقيق ٠٠ به من صفات « الشرارة » أشياء كثيرة ٠٠ بوجه « أحمر » وشعر في لون « الرماد » الصافى ٠ ودقة ٠٠ ولسعة ٠

له صوت أغن قد يهدهد وقد يمزق ٠ وابتسامة ثابتة كمركز اشعاع فيها التودد ، والسخرية ، والتواضع والكبرياء ٠ وأحيانا تكون خلوا من كل تعبير ٠ وتبدو ابتسامة على أى حال ٠

وفى عينيه اللتين سهرتا للقراءة نفس تعبير شفتيه ٠٠٠ هما مرآة انطبعت على صفحتها لغة فمه ٠٠٠ هما ايضا مركز اشعاع ٠٠٠ فيهما سرعة التحول ٠٠ تستطيع أن تعتبرهما « المؤشر » الذى يرشد الى تحرك الافكار فى رأسه المستدير تحت شعره الرمادى الصافى ٠

يتكلم عن الجيل الماضى وكأنه لا ينتسب اليه ٠٠٠ ويصدر أقسى الاحكام وعلى فمه ابتسامة الدبلوماسى التقليدى حين يعلن (قطع العلاقات) وهو ينحنى ويسلم ومن منديل فى جيبه تفوح رائحة كولونيا ٠

وكلمات الود عنك بالقنطار ٠٠

وحين قابلته فى مكتبه كنت أحس بوعكة من مرض لكن نشاطه انسانى أننى لم أنم ليلة البارحة ٠ أنسانى ٠ وأعدانى ٠

وتذكرت أول لقاء كان بينى وبين « يحيى حقى » ٠ ذلك الذى كنا نتحدث عنه وهو غائب عن مصر ٠ وكان هذا اللقاء الأول فى أمسية خصيبة ٠٠٠ ربما كانت منذ عشر سنوات ٠ حينما رأيت رجلا مهذبا يصافح عميد الأدب الدكتور «طه حسين» فى احدى قاعات (نادى القصة) وسألت الجالس الى جانبى وكان هو الكاتب « عبد الحميد السحار » ٠ فقال لى : انه ٠٠ انه صاحب « قنديل أم هاشم » ٠

وجعلت أوازن بين الاناقة البادية على بذلته السوداء وقميصه الابيض وبين الذين وصفهم جالسين الى « مشنات » البلح وفيها بقايا الشمع فى أخريات الليل فى ميدان أم هاشم ٠ وتذكرت الطبيب والحبيب فى هذه القصة ٠ وسألت نفسى : ترى على أى كرسى جلس المؤلف ؟ ووراء أى شخصية فيهما قد تخفى ؟! ٠٠

وعدت بأفكاري اليه ثانية ونحن فى مكتبه يدخن بنهم ويتحدث بصوت أغن ، ويتلفت كأنه فى انتظار حدث ٠

عدت اليه وسألته :

ـ هل تذكر الارهاصات التى سبقت مولد قصتك « قنديل أم هاشم » ؟

ولم تبد عليه الراحة لهذا السؤال ٠ عجبت ٠ لقد ألقيت مثله على «طه حسين» و « العقاد » فأحسست جوا من الطمأنينة والذكريات الغضة ٠ لكن احتجاجا ـ على طريقة « يحيى حقى » ـ ملأ نفسه حتى فاض على الأشياء ٠٠٠ على الحجرة (الملحقة) التى كنا نجلس فيها ذات الأرض العارية والمكاتب الكثيرة ٠

واحمر وجه « يحيى حقى » وقال بصوته الاغن المعاتب وبما يشعر أننى سلبته حقه :

ـ لماذا « قنديل أم هاشم » ؟ أفندم ؟! ٠٠ كل الذين يتحدثون عنى لا يذكرون الا « قنديل أم هاشم » ٠٠ أفندم ؟! ٠٠ ألست ترى أن لى مؤلفات غيرها يا « عبـــد الحليم » !؟ ٠٠ أفندم ؟! ٠٠

ولم أرفع بصري اليه ٠ جعلت أرسم على الاوراق أمامى أشـــــــكالا مبهمة ٠ لو فحصها رسام (سيريالى) لرأى فيها صورة لمخلوق حائر ٠ وتواردت عـــلى ذهنى أسماء مؤلفات لـ « يحيى حقى » ٠ فهل كان يسعده أكثر ان اذكر له قصة (صح النوم) ؟! مثلا ! ٠٠

غير أننى جمعتِ أطراف أفكارى وقلت له :

ـ انك تعرف قطعا ما قاله «مروا» عن الأشخاص٠٠ انه قال : «ان صورة واحدة تعلق بأذهاننا لشخص واحد ٠ فنحن لانكاد نذكر «تولستوى» الا بحزام من الحبل »

٠٠ وانا أزيد فاقول : اننا لانكاد نذكر «شوقى» الا بصورته المكتئبة المفكرة وقد أسند رأسه على كفه ٠ وأنت ٠٠ وبين سبابتك وابهامك سيجارة تحترق ٠ ثم ٠٠ اذاكان هذا يا سيدى صحيحا فى نطاق المؤلف فهو صحيح فى نطـــــاق ما يكتبه ٠ فنحن نذكرك بـ « قنديل أم هاشم » بصرف النظر عن موقفك ٠٠ لأن هذا ٠٠ هو موقفنا !!
عندئذ بدا الاقتناع المسالم على « يحيى حقى » وبدأ يجيب :

ـ بدأت الكتابة فى سن مبكرة ٠ ونشرت قصصا فى الفجر والسياسية اليومية والاسبوعية ٠ وغيرها ٠ ثم حدث لى ان اتصلت بالحضارة الغربية اتصالا مبـــاشرا ٠ وكان ذلك فى مدينة «روما» سنة ١٩٣٤ ٠٠ كنت هناك نائبا للقنصل ٠ وكان هــذا أول لقاء لى بالحضارة الغربية ٠ مكثت هناك أربع سنوات ثم عدت الى مصر ٠ عــدت باحساسات كثيرة حاولت أنأ عبر عنها بقصة « قنديل أم هاشم » مع قصد فى السرد والحبكة ٠ فأنا فى حقيقةالامر لم يكن هدفى الاول فى هذا العمل الا «المبادىء» ولعل هذا هو الذى دعا الدكتور « رشاد رشدى » أن يقول : (انها ليست قصة) ٠ ومع ذلك اسمح لى أن أقول : لقد لاحظت أن أنماطا مختلفة من الناس قد اهتزت لهــذا

العمل ... أنماطا اختلفت ثقافتهم ممن قرأوها . فقد قال لى بائع كتب شيخ : من صاحبنا هذا الذى كان يأكل البفتيك فى أوربا وأبوه يأكل الطعمية هنا ؟ .

وقال لى شاب يمنى كان يدرس فى مصر : لقد وصفت نقلتنا نحن من صنعاء الى القاهرة ثم العودة الى صنعاء ! .

وسكت « يحيى حقى » قليلا كأنه يتذكر شيئا ثم رمى ببقية سيجاره وهو يردد لازمته المعروفة بصوته الأغن « أفندم » .. ثم استطرد فى حماسة :

ومع ذلك فأنا أضيق ضيقا شديدا كلما قال لى انسان «قنديل أم هاشم» كأننى لم أكتب سواها . فهل هى بيضة الديك ؟!

وضحكنا . ولم يكن هناك جواب جديد أقوله لمؤلف « قنـــديل أم هاشم » لأن مسئولية الجماعات عن احساس واحد مشترك يرجع حتما الى أصول نفسية . ورأيت استكمالا للحديث الذى كرهه ـ الى حد ما ـ «يحيى حقى» أن أقول له :

ـ انك رمزت بزيت القنديل الذى سكبه الطبيب المثقف فى عين حبيبته الى شىء ربما يكون الروح .. ربما تكون العقيدة . كأنك ترى أن (العلم) ان سار وحده تاه .. أو حتى اذا لم يته ولم يضل فانه ربما كان وحشا . فالعلم فى الفرد له صمام أمان هو .. التواضع ، والعلم فى الجماعات له صمام أمان هو الروحانية ، أو منفعة الانسان . فما رأيك ؟! ..

فأجاب « يحيى حقى » :

ـ أنا أزعم أننى بـ « قنديل أم هاشم » قد مهدت للثورة . وتكفى صـــورة الطبيب الذى فتح عيادته فى أفقر الأحياء الوطنية . كان يصب «البوريك» من فنجال تيسيرا وتخفيفا من نفقات العلاج .. ثم .. هل تستطيع أن تبين لى الفرق بين بوريك يصب من فنجال وبوريك يصب من عدة ؟ .

قلت : لا فرق . فالبوريك هو البوريك سواء أكان (قطرة) أم كان (فطيرة)..

ثم انتقلت الى السؤال التالى :

ـ أنت بين الناقد والقصاص لك أعمال فى النقد وأعمال فى الخلق . فهل تحس احساس الناقد وأنت تؤلف واحساس المؤلف وأنت تنقد ؟ .

وكنت أنا متأهبا لأرى الصورة الجديدة .. متأهبا لأرى لأى النوعين سيجنح الكاتب الناقد وأى شخصيتيه أحب اليه ؟! أهى تلك التى تجمع الاشتات وتركيبها أو تلك التى تفك التركيب وتشتته .

وقام «يحيى حقى» من على كرسيه وأخذ يذرع الحجرة العارية ذهابا وايابا وهو يتكلم وأنا مصغ الى ما يقول . لكننى أحسست أنه يحب أحد « نصفيه » أكثر من الآخر .. أحسست أنه يحب (المؤلف) فى نفسه أكثر من حبه (للناقد) فهل كان ذلك نتيجة لأنه أحب النصف الأبقى أو الاطول عمرا ؟! .. لا أدرى ! .. لا أدرى غـير أنه قال :

ـ اننى أحس احساس الناقد وأنا أؤلف ٠ بل لعل أحدا لم يقس على فى النقد كما أقسو أنا على نفسى ٠ أفندم ؟! ٠٠ اننى أعانى جهدا كبيرا فى سبيل التجويد ٠ ولعل ذلك يفسر لك قسوتى أحيانا على من أنقدهم ٠

قلت :

ـ نعم ٠ لكن هل من الممكن أن تصف لى احساس الناقد وهو مستغرق فى التأليف ؟ ٠

ـ ممكن ٠٠ ممكن أن أتكلم عن أصول عامة ٠ فالابتكار الذى هو التأليف هزة روحية ٠٠ اضطراب ٠٠ قلق ٠

هذه هى الحالة التى تصاحبنى عند التأليف ٠ وفى هذه الحالة تعاطنى الالفاظ معايشة شديدة ٠ فاقابلها بصرامة ولا أرضى عن لفظ الا وأنا واثق أنه هدفى ، وبمعنى آخر : أنا فى حالة التأليف أشتغل (على الساخن) وان كانت يدى باردة كل البرودة ٠ أما عند النقد فليس هناك هزة روحية بل محاولة الذهن للتيقظ والانتباه وجمع الاشتات وتصنيفها والعثور على الدلالة المختبئة فى داخل العمل الفنى ٠ فأنا اذن عند النقد أشتغل (على البارد) ٠

فأكملت مداعبا : وربما كانت يدك ساخنة فى هذه الحالة ٠٠ وضحكنا ٠

كان «يحيى حقى» لا يزال يقطع الغرفة مجيئا وذهابا ٠٠ طيفا حقيقيا من أطياف النهار ويردد كلمة (أفندم) فى انتظار فكرة تخلفت أو امهالا لى وأنا اكتب ٠ وكنت مستصحبا معى كتابا من تأليفه عن «قنديل أم هاشم» كان هو مجموعة قصص « دماء وطين » ٠٠ فيها قصة اعجبت بها منذ قرأتها هى قصة « البوسطجى » تحاول فيها الكاتب كما قال لى أن يبذل محاولة جديدة فى معالجة الزمن وكنت أرى ان الفرق شاسع بين لغة السرد فى هذه القصة ولغة الحوار الذى يتجلى فى الأعم الأغلب على هيئة اعتراف أو حوار داخلى ٠ وعندما فتحت القصة لأقرأ له فيها اقترب منى ٠ اتكأ على المكتب بمرفقه كأننى سأقص عليه ذكريات شبابه ٠ وعيناه وراء المنظار توحيان بالترقب وجمرة السيجارة تهدد اصبعيه ٠ وقرأت وصفه للبوسطجى :

« عباس عائد فى الصباح المبكر من المحطة راكبا ركوبته فوق الجسر ٠ أمامه حقيبته الصفراء مملوءة بالخطابات يثير دهشة أفواج الفلاحين الذين يمر عليهم لأنه لا يرد سلام من يحييه منهم ٠ له ظل واضح الاطراف متعلق بأرجل الحمار ٠ وسطه ملتو على الجسر المائل وآخره ينسحب على بعد ـ كالمراقب الحذر ـ فوق الغيط المجاور فى الجو نسيم مشبع ببرودة يستلذها الوجه ٠ وفى السماء قطع من سحاب ٠ عذارى رقيقة الحاشية ٠ زاهية اللون ٠ ممشطة مترفة ٠ تسير الهوينا ـ متداخلة متفارقة ـ للتنزه والتمطى فى الشمس ٠ فهى شفافة مبتسمة ٠ ليست سودا ولا دكنا كاخوتها الحبليات بالمطر » ٠٠٠

ولفت نظره الى مايفعله المؤلف عن لا شعور فى أول قصة ستكون فى آخرها عذراء تحبل من شاب يتركها ويهرب ٠ هى الأخرى زاهية مبتسمة شفافة اللون

ممشطة مترفة ولو انها فى الصعيد ٠٠ نعم ٠٠ وتبسم المؤلف لمؤلف ينقد كما يتبسم الناقد لناقد يؤلف وقلت له :

انني أحس جمال هذه الصورة بتجربتين احداهما شخصية والاخرى فنية ٠ ولذلك اشتد اعجابى بها ٠٠ لكن ما أعظم الفرق بين هذا وبين قولك فى نفس القصة: « من ساعة ماحطيت رجلى فى البلد ماطقتهاش ومثل كلمة عبال ما ارجع » ٠٠١ انني أعرف الحجج التقليدية لمثل هذه القضايا يا أستاذ « يحيى » لكنى كنت أحس تفاوتا شديدا فى مستوى « الطيران » وأنت فى سماء العمل الفنى ٠ والدليل على ذلك الجملة الرائعة التى ختمت بها القصة ٠ حين دق ناقوس الـكنيسة فى القرية يعلن موت مجهولة ٠٠ هى البطلة ٠

« صوت جرس الكنيسة الصغيرة يدق اشعارا بموت ٠ يكاد ينطق ٠ فقديعبر النحاس فى بعض الاحيان عن منتهى حزن الانسان وألمه » ٠

وتبادلنا النظرات فى صمت فقد كان كل منا عند رأيه ٠
ثم سألت بعد ذلك :

ــ قلت ذات مرة : ان اهتمامات الطبقة المتوسطة لم تعد ذات موضـــوع فى الرواية ٠ فهل أنت مصر على هذا ؟!

فأجاب :

ــ نعم أنا عند رأيى ٠٠ والتحول الاجتماعى قلب الاوضاع قلبا تاما ٠ خـذ القصص العديدة التى تحدثت عن الموظفين ومشاكلهم ٠٠ والموظف عماد الطبقـة الوسطى ٠ وكذلك التحول فى المفاهيم الاجتماعية بالنسـبة للمرأة والعمل ومعنى كلمة الشرف الى آخره ٠

قلت : هل أفهم من ذلك أننا نلغى من كتاباتنـا وجود طائفـة من الناس بواجداناتهم ومشاكلهم ؟ هل يمكن هذا ؟! ٠٠٠ « دعوا كل الأزهار تتفتح » ! ٠

فقال : هناك أولوية ٠ فحين تكون المشاكل الرئيسية هى التطبيق الاشتراكى مثل الاجير الذى يصبح صاحب أرض والعامل حين يصبح عضـوا فى مجلس الادارة يجب أن نكتب عن هذا ٠

ــ ألا تخاف أن تصبح مهارات كتابنا متقاربة اذا انحصرت فى نطاق واحد فقط؟

ــ ان تقارب المهارات دليل على فقر الشحنة الادبية وهذا لا حيلة لنا فيه ٠ ولكن المفروض أن يكون التعبير انعكاسا لمزاج الكاتب وثقافته ولابد من اختــلاف المزاج والثقافة ٠ وقد انحلت كثير من المشاكل بفعل الثورة ، واذا دققت فى الوسط الأدبى رأيت كثيرا من كتاب الجيل الماضى يلفظون أنفاسهم وهم يعلمون ٠

ــ زدنى توضيحا ٠

ــ لأن الثورة الاشتراكية سحبت الارض التى يقفون عليها ، والشىء الذى

نادوا به قد تحقق بفعل الثورة ، فلا بد لهم من أهداف جديدة ، ولعلهم غير قادرين الآن على رؤية هذه الأهداف ، أو لعل الملل والاعياء يصيبهم اذا فكروا • قلت :

ـ هل لابد اذن للكاتب (لكي يكتب) من مجتمع غير مستـــقر ؟ فماذا اذن عن عصور الاستقرار بعد الثورات في الدنيا كلها ؟! •

ان الثورات يا سيدى تقوم التهيىء للمجتمعات بفترات من الاستقرار ، تطول وتقصر حسب طبيعة الثورة التى سبقت فترة الاستقرار ومدى مواءمتها لحاجة الانسان فلو كانت القيم التى قررتها معاهدة الصلح بعد الحرب العالمية الاولى قيما حقيقيـــة بالنسبة لمصالح الغالبية العظمى من البشر ـ ماقامت الحرب العالمية الثانية • وهكذا بالنسبة للثورات الاجتماعية ، فكلما كانت الثورة لصـــالح أكبر عدد من الناس ولرفاهيتهم كلما كانت أعمق جذورا في التاريخ ، وتبعا لذلك تطول فترة الاستقرار التى تليها • ويكون الادب والفن متحدثا عن قيم ثابتة يعتنقها المجتمع ومتغنيا بها • وليس ضروريا أن يتحدث الادب والفن دائما عن قيم (متحركة) ككرة (البنج بنج) والا كانت علاقة الادب والفن بالفكر البشرى مثل علاقة المضرب بالكرة • والفرق بين اللعبتين كبير • أظنك معى يا أستاذ يحيى فى أن المجتمعات لا يمـكن أن تعيش فى حالة (مخاض) باستمرار أقصد فى حالة (آلام المخاض) فبعد أن تتمخض الثورات عن مواليدها يجب أن يتمتع نحن البشر باحساس الابوة والامومة لمواليد الثـــورات •• أعنى قيمها • وبنغمة الغناء لهذه المواليد السعيدة وبهدهدة الأرجوحة لها • فقال « يحيى حقى » :

ـ الادب ليس متعة بل رسالة • وأحب أن يكون الادب وليد صراع • مثل أدب ابسن وتولستوى ودستويفسكى •

ـ لاتناقض بين المتعة والرسالة والصراع (ولادة) باستمرار يا اســـتاذ حقى وليست هذه هى طبيعة الحياة • هناك دائما فترة بين (الولادتين) •

ـ نعم نعم •• فى هذا بعض الحق بدليل ماقاله بعض النقاد من اننـــا نعود الى الادب الرومانى •

ثم انتقلنا بعد ذلك الى سؤال جديد :

ـ حدثنا عن اسلوب القصة • وما القصة الجيدة فى نظرك ؟

ـ القصة فرع من فروع الادب فاذا لم يشعر القارىء أن للمؤلف اسلوبا خاصا به بحيث يتجنب العبارات الشائعة والقوالب والكليشيهات ـ هبطت القصـــة عن المستوى الادبى • وأنا شخصيا أحس احساسا شديدا أن التعبير الادبى تلوين جديد لمعنى قديم •

فقاطعته قائلا :

ـ هذا أجمل تعريف •

واستطرد :

ـ وهذا التلوين الجديد للمعنى القديم هو القدرة على رؤية تكشف اما جانب الفكاهة أو العبرة فى المشهد الذى يراد وصفه •

أما القصة الجيدة • فماذا تريد أن أقول عنها ؟ فقلت :

ـ شيئا خارجا عن حدود قواعد النقد • شيئا يقوله فنان • فأجاب :

ـ هى القصة التى تجعلك بعد قراءتها تشعر بأنك اصبحت انسانا غير الذى كان • فقلت مبتسما : يكفينى هذا التعريف •

ثم ان هناك سؤالا مكررا فى أحاديثى القيته على عميد الادب طه حسين والكاتب الكبير عباس العقاد • ولست أرى فضولا فى القائه عليك • فهو شبه (استفتاء) لانه سؤال مهم :

ـ لماذا لم تولد مدرسة أدبية كما يحدث فى الخارج ؟!

ـ ليس هذا بصحيح • فقد ولدت عندنا مدرسة أدبية فى النقد عندما أصدر العقاد والمازنى كتاب (الديوان) ويصدق هذا بدرجة أقل فى الشعر عندما نشأت مدرسة (أبولو) وفى الادب مدرسة ادبية كان نجمها المتالق محمود طاهر لاشين • لكن مع الاسف كان الجيل الذى بعدها جاهلا بخيرها •• لم يعن بها • فدار دورة كبيرة حتى اذا ما نضج ادرك انه كان يستطيع أن يبدأ من حيث انتهت هذه المدرسة •

قلت :

ـ ذلك يا سيدى لان نأخذ (دليلنا) من الخارج فلو كان الدليل من (هنا) ما وقعنا فى هذا العناء •

ـ هذا صحيح • وحدث بعدذلك أن تاريخ ادبنا اصبح تاريخ (أفراد) لا تاريخ (مدارس) • ثم استطرد :

وأرجو أن تتجمع القوى التى تحاول أن تعبر عن مجتمعنا الجديد فى مدرسة متميزة فى كل شىء • فنحن ننتظر تجديدا فى الشكل والأسلوب والتعبير • انى اعتقد أن فن القصة عندنا قد استنفد أغراضه ، ولذلك فان بعض الكتاب يحاولون الفرار الى فن آخر • وهذا تعليل للاقبال على كتابة المسرحيات والرحلات • وانا اعتقد ان انتاجهم المبدئى فى المسرح لم يثبت بعد أرض فن المسرح لان الموهبة المسرحية تختلف تماما عن الموهبة القصصية •

قلت ليحيى حقى وأنا أضحك فى يأس لان الحسبة أوشكت أن تكون (صفرا) •

قلت :

ـ اذا كان هذا هو الحال بالنسبة للقصة وهى أرقى الانواع الادبية عندنا فماذا اذن عن الشعر ؟!

فأجاب :

ـ ان الشعر يعانى عندنا أزمة شديدة جدا فلم يستطع الشعراء حتى الآن

الخروج عن ذاتيتهم • الوحدة والضياع نصيبهم • ولا نجاة للشعر الا أن يرتبط من جديد بضمير الامة وأحلامها الباقية من عهود أمجادها السالفة •

اننى أضع الشعر فى رأس فنون الادب • هو القادر قبل المسرح والقصة على تحريك أى أمة • ولست تنسى ما فعله اقبال فى باكستان وعبد الحق حامد فى تركيا وان كان مصطفى كمال (أتاتورك) قد طوى صفحة كل ما قاله هذا الشاعر العظيم•

هؤلاء قد تكلموا فى كليات تغذى الروح ومن الممكن وجدانها عند الترجمة • وهى التى يشعر منها المسلم العربى انه معتز بنفسه وأن جميـع المصـاعب يمكن التغلب عليها •

وأتبت بالسؤال الاخير وأنا متطلع لاجابة جديدة •

ـ احداث الثورة ومكاسبها • ما رأيك فى القصص التى كتبت حولها ؟

ـ هناك قصص عن احداث الثورة ومكاسبهـا لا نزال بانتظارها • لا نزال نترقبها •

ولن تاتى من خارج الوسط الذى يعانى حوادثها • نحن نطلب (الصدق) •

وفى ذهنى أمل أن يكون فى هذه الجموع التى تعمل فعلا فى السد العالى أو الوادى الجديد من له موهبة قصصية • انسان فنان سيسجل فى أدبنا هذه الاعمال المجيدة • أما أن ينتظر هذا التسجيل من كاتب مقيم بالقاهرة لا صلة له بأسوان ولو زار السد أو أقام به فترة من الزمن فذلك أمل بعيد •

قلت ليحيى حقى وأنا أبتسم له وأرقب ملامحه الهادئة والابتسامة التى تصلح مركز اشعاع لكثير من المعانى :

ـ انت اذن معى فى أن التجربة الشخصية هى الاب الشرعى للتجربة الفنية •

فرد مبتسما وهو يقول : أفندم •• أفندم •• نعم أنا معك •• ومعى ومعك كل الكتاب •

ثم تركت مكتب « يحيى حقى » •• وخرجت •

كان فى ذهنى معان كثيرة وأنا أعود ادراجى • منها أن الكاتب قد يحب من أعماله الادبية أعمالا لا يحبها الناس • ومنها أن الكاتب الناقد يجب أن يدعى كاتبا قبل أن يدعى ناقدا ، ومنها أن التجربة الجزئية خير من لا شىء •• حتى ولو كانت صغيرة • فكثير من الكتاب العالميين أخرجوا تجاربهم مرتين • مرة كعمل صغير فى قصة قصيرة ، ومرة أخرى كعمل روائى •••

وفى ذهنى أشياء أخرى •••

ان الكتاب يجب أن يعيشوا مدا عند مفاخر الثورة • عند الاعمال الكبرى التى ستعيد خلق تاريخنا ومجتمعنا • بل وكل فرد فيه • وأظن ان السد العالى أعلى مفاخر التاريخ • وسنغنى لهذه المواليد فى مجتمعنا المستقر •• سنحس بطعم الابوة والامومة لمواليد ثورتنا •

أعنى لقيمها الثابتة ••

الأصابع العارية

بقلم

محمود البدوى

وقف شاب فى ساعة الأصيل امـام أحد البيوت القديمة فى عزبة النخل يتلمس الجرس ، فلما لم يجد استجابة فى الداخل قرع الباب بتؤدة ثم بعنف .. وسمع نبـاح كلب فى الداخل ثم أقداما تقترب فى ممشى الحديقة وصوتا خشنا يزجر الكلب .

وانفرج الباب الكبير وهو يصر وظهر رجل طوال ، براق العينين على العتبة كان يرتدى صدارا من الصوف الداكن وبنطلونا رماديا .. ويمسك بيده سلسلة صغيرة تدلى منها مفتاح .

ونظـر الرجل بعينين نفـاذتين الى الشاب ..

وسأل الطارق بصوت هادىء :

ـ اهذا بيت السيد مدكور ..؟

ـ نعم ...

ـ وهل هو موجود ..؟

ـ أنا مدكور ..

ـ اننى مختار المهندس الذى حادثت حضرتك فى التليفون أمس ..

ـ أهلا وسهلا .. تفضل يا بنى .. تفضل ..

واجتاز مختـار العتبـة وهو ينظر بخوف الى الكلب الضخم الذى وقف فى حالة توثب بجوار سيده ..

ولاحظ السيد مدكور ذلك .. فقال:

ـ لا تنظر اليه بخوف هكذا .. ففى الكلاب حاسة ادراك خارقة ، ولا احب ان تكون بينك وبينه عداوة ..

وابتسم مختـار ومشى فى حديقـة موحشـة كثيفة الاشجـار فيها أنواع مختلفة من اشجار البرتقال والليمـون والورد ،. كما زرعت نخلتان طويلتان وبنيت فسقية صغيرة فى وسط الحديقة يمرح فيها البط .

وبدت الحـديقة تحت نظره بهائجه لم تتناولها يد منذ مدة بالتشـذيب . وارضها معشوشبة فى جانب ومتربة فى الجانب الآخر .

ولاح البيت وراء الحديقة من طابق واحد وقد خيم عليه السـكون المطبق ولم تظهر بادرة انفاس تتردد فى داخله .

ودفع السيد مذكور الباب ووراءه مختار الى ردهة بدت معتمة حتى عن النهار الباهر .

وفى حجرة واسعة جلس مختاربنظر حواليه الى أشياء كثيرة وضعت فى غير نظام ولا ترتيب .. فقد رأى تماثيل دقيقةولوحات فنيةرائعة وعدداًمختلفة وآلات حدادة ونجارة وساعات حوائط ومنبهات وكتبا ..

وتركه السيد مذكور جالسا وحده فى الغرفة ودخل فى جوف البيت .. وتأتى له من هناك صوت ناعم .. وكاد من شدة خفوته لا يبين .

ورجع مذكور الى غرفة الجلوس .. وأغلق وراءه بابها .. وأخذ يرحب بمختار ويحادثه بمودة .. وسمع نقرة خفيفة على الباب المغلق فنهض وحرك مصراع الباب حركة خفيفة وبصر مختار بكف بيضاء وأصابع عارية تمتد بصينية القهوة .

وشربا القهوة وأفاضا فى مختلف الاحاديث ولاحظ مختار ان صاحب البيت وان جاوز الستين من عمره ولكنه ما زال موفور الصحة ، ولا يزال يجرى فى عرقه الدم ، وقد خلا وجهه من التجاعيد ..

كما لاحظ انه لا يدخن وانه يشرب القهوة بتؤدة وهو يستلذ مذاقها ... وانه علىثقافة واسعة .. وعلم بالميكانيكا والكهرباء ..

وقال السيد مذكور وهو يشير لأول مرة الىالمهمة التى جاء مختار منأجلها .. والآن تفضل لأريك الماكينة ..

ونهض مختار ومشى به مذكور فى ردهة طويلة معتمة الى الناصيةالخلفية من المنزل وفى قاعة صغيرة رأى آلة صغيرة على قاعدة من الاسفلت .

وقال مختار فى سرور :

ـ انها تبدو رائعة ..

ـ وقد تعجب اذا علمت اننى ركبتها كلها بيدى ..

ـ هذا عظيم ..

ـ ومعظم العدد تسوقتها من السوق .. وبعضها صنعته بنفسى .

ـ وكم كلفتك ؟

ـ حوالى مائة وخمسين جنيها ..

ـ مثلها تساوى الآن أكثر من خمسمائة ..

ـ لم يكن هذا قصدى .. وانىكنت أود أن أصنع شيئا فى حياتى .. شيئا ذا قيمة وقد صنعته ..

وبدا على مذكور الزهو والافتخار . ومد قامته .. لما سمع صوت الكلبفى الحديقة .

وكان مختار قد انحنى على الآلة يتفحصها بدقة ثم رفع رأسه وقال :

ـ نديرها ..

وادارها مذكور « وتكت » وخرج « العادم » والكلب ينبح والرجل قد اغرورقت عيناه من الفرحة .

وقال لمختار بصوت الحالم :

ـ ما أجمل ان تصنع شيئا ينبض تحت سمعك وبصرك .. شيئا يتحرك فى حركة رتيبة كخفقة القلب ..

وقال مختار ليزيد من حماسة الرجل :

— انه عمل رائع .. انه خلق ..

وقال مذكور وعيناه تلمعان :

— لقد أحببت الوابورات منذ الصغر .. وكنت أصنع الوابور الصغير من الطين ..

وعيدان البوص .. واجعله يدور حتى احتبس البخار .. واخرج بتلك الفرحة التي تراها على وجهي الساعة .

وسأل والماكينة لا تزال دائرة :

— والآن ما العيب يا باشمهندس ؟

— في تصوري انه في الكرنك ..

— وليس في الحدافة .. ولا البستم .

— لا .. انه في الكرنك .. انه خفيف الضغط .. ولذلك قلت السرعة ..

— وما الرأي ؟

— نستبدله .. أو نصب غيره ..

— ومتى ارسله لك ..؟

— سأفكه الآن وآخذه معي في سيارتي .. وجلس الرجلان يفكان الصواميل .. وقال مختار :

— سالقى بنظرة اخرى على العدد كلها ما دمنا شرعنا نفك الوابور ... فارجو ان تاتي لي بمصباح ..

وغاب مذكور قليلا ثم رجع .. وبعد دقيقة واحدة .. سمع نقرا خفيفا على الباب كمثل الذي سمعه أول مرة .. وامتدت الاصابع العارية بالمصباح .. وهمس مذكور بشيء لم يسمعه مختار .. وكان قد رفع رأسه بدافع الفضول واخذ ينظر الى هذه اليد السحرية التي تمتد في الظلام .

ولاحظ مذكور ... بعد أن شعر مختار عن ساعده .. جرحا قديما ترك آثاره في الذراع اليمنى ..

فسأل :

— أهذا من الآلة .. ؟

— لا .. انه من الانسان ..

— من الانسان ..؟ كيف ..؟

— كنت مع الشبان الذين ذهبوا الى الاسماعيلية واطلق الانجليز عليهم الكلاب المسعورة ..

— نسيت هذا .. وسيظل الانسان هو وحش الوحوش .. جميعا .. !! منذ فجر التاريخ .. منذ نيرون ... الى القرن العشرين عهد الفرنسيين في الجزائر ..

وهو وحش الوحش ..

— هذا صحيح ..

— ما من شيء يتفنن في تعذيب اخيه .. كما يتفنن الانسان ..

ما من حيوان أو جارح من جوارح الطير .. ما من مخلوق على الاطلاق .. سوى الانسان ..

وكان العشى قد زحف وازداد السكون .. وقطع السكون صوت الكلب وهو ينبح بشدة .. فنهض مذكور الى الباب ففتحه واطل منه ... ثم رجع وهو يقول وعلى وجهه الابتسام ..

— الناس تتصور انني ادفن كنزا في الحديقة .. وبغير هذا الكلب يا ربي كيف كنت أعيش وأنام ..

ورفع مختار رأسه وابتسم في ود وهو ينظر في عيني الرجل فقال هذا وكأنه قرأ ما يدور في رأس مختار :

— ولهذا السبب أصبحت لا أشغل

احدا فى بيتى لا جنايني ولا خادم .. واعمل كل شيء بيدى .

ـ فى العمل تسلية ولذة ..

ـ تصور انهم كانوا يسرقون التحف والتماثيل التى لا تقدر بمال ويبيعونها بأبخس الاثمان .. وكنت أتعذب واظل أبحث عنها حتى استردها .. واخيرا أغلقت النوافذ والأبواب .. وعشت وحدى واسترحت ..

وسمع النقر على الباب ... واطلت الاصابع العارية تحمل صينية الشاى .. وامتدت بها أكثر واكثر حتى بدا المعصم كله فى ضوء المصباح .. وبدت يد انثى لينة ودقيقة الاصابع فى جمال ساحر ..

ورفع مختار راسه .. وطالعه الغموض من جو البيت .. وغص بريقه .. وهو يود ان يسأل :

لمن تكون هذه الأصابع .. اذن ما دمت تعيش وحدك ..؟

ولم يقو مختار على السؤال فصمت وتناول كوب الشاى واخذ يترشفه فى بطء شديد وهو يتأمل .. ثم سأل ليقطع خيط السكون :

ـ هل الوابور .. لرى الحديقة بدل البئر .. أم لانارة البيت .. ؟

ـ للاثنين معا .. وسأعطى النور والماء للجيران مجانا .. أجل دون أجر على الاطلاق ..

ـ هذا عمل خير ..

ـ بعض الجيران .. فقراء .. وفى أشد الحاجة الى النور والماء .. وما أثلج على القلب .. ان ترى النور يدخل الى هذه البيوت المظلمة .

واستطرد مدكور وقد برقت السعادة على وجهه :

ـ لقد كانت أمنيتى منذ أحلت الى المعاش وجئت الى هذه المدينة الصغيرة .. ان أرى منازل الفقراء التى حولى تضاء بالكهرباء .. وان ارى الاشجار تزرع والارض مخضرة والورود متفتحة هنا .. وان أحول كل شيء الى حياة ..

وصمت قليلا ثم اضاف فى حماسة :

ورغم اننى اعيش وحدى ولكننى أقول لك عن تجربة : ما أجمل الحياة لمن يعمل ويكد لغاية نبيلة ..

ـ هذا حق ..

وشغل بما فى يده برهة ثم نظر الى الشاب بعطف وساله :

ـ أمتزوج ياسيد مختار ؟ ..

ـ ابدا ..

ـ لماذا .. يا بنى .. اسرع بالزواج .. والا ستشعر بالضياع فى شيخوختك .. وتكون كمن تقطعت به الاسباب فى الصحراء .. لا ماء ولا شجر .. عجل والا ستقع فى نفس غلطتى ..

ـ وحضرتك لم تتزوج ...؟

ـ ابدا .. كما ترانى ، وحيد ... ضائع ..

ونظر مختار الى وجه الرجل ... ثم عاد الى ما فى يديه وهو يفكر . هل هذا الرجل يمكر به ... ام انه يستخدم فى بيته الشياطين .. من هى

صاحبة اليد التى رآها اذن اكثر من مرة ؟

. من تكون .. من ..؟

وغصت براسه الاسئلة ..

ثم استغرق فى عمله حتى انقضى جزء من الليل ..

ولما فرغا من العمل .. نهض مختار مودعا والغموض والسكون يخيمان على البيت .. وحمل الكرنك فى سيارته وانطلق ..

***

وعاد مدكور فاغلق بابه بالمفتاح .. وكان الظلام يخيم والريح تصفر بين الشجر الملتف والكلب يتبعه وهو يبصبص بذنبه ..

ودخل مدكور البيت واغلق الباب وراءه وطالعه ضوء المصباح الخافت والسكون العميق ..

ونظر الى التماثيل الصغيرة والكبيرة فبدت له كالاشباح الخرساء .. كما بدت الصور كخيال الظل ... وشعر بمرارة قاتلة لانه ذكر وحدته المرة للشاب الذى تركه منذ لحظات .... ونبش حياته .. واحس بفراغه القاتل.

وبدلا من ان يدخل الغرفة الاولى.. وكان النور فيها قد انطفأ ٠٠ دخل غرفته .. الغرفة التى لا يشعر فيها بنهار ولا ليل ..

واستلقى على السرير فى الظلام دون ان يشعل المصباح الصغير .

وكلما اشتدت الريح فى الليالى الظلماء كان يحس بتحرك الشجر ثم بتحرك الاشباح ٠٠ ويتصور أن أحدا تسور السور ٠٠ وجاء لسرقته أو قتله فيحزن أشد الحزن لأنه ليس عنده من صلبه ولد يحميه ويرد عنه غائلة الليل.

كان يشعر بقشعريرة من مجرد التفكير فى انه سيمسك المسدس ويطلق النار على اللص الذى يتسور السور فى الظلام .

وراح فى دوامة من القلق والعذاب .. ثم أغلق عينيه فى الظلام واسترخى واخذه النوم واحس بأصابع عارية تضم عليه الغطاء ...

***

وبعد ايام قليلة رجع مختار فى ساعة الغروب يحمل له الكرنك الجديد .. وسر به مدكور جدا ٠٠٠ واتفقا على ان يركباه فى الصباح التالى . بعد ان يقصر السير بمقدار عقده ... لتكون سرعة الوابور طبيعية .

وطار مدكور من الفرحة وهو يتصور امنيته قد تحققت بعد طول جهاد وانه صنع شيئا نافعا له ولجيرانه الفقراء..

***

وفى اليوم التالى ركب مختار سيارته فى الصباح المبكر واسرع بها الى بيت الرجل وضغط على الجرس ثم قرع الباب فلم يتلق استجابة وتمهل برهة ثم عاود الطرق بعنف خيم بعدها السكون ... وانتابه هاجس جعل القشعريرة تسرى فى بدنه فتلفت حواليه فلم يجد احدا يسأله ، ثم ضغط على الباب بكل قوته فلان تحت جسمه وانفرج وهرول مختار الى الداخل .

ووجد باب البيت مفتوحا .. فولج منه ووقف فى الصالة وقد شله الرعب

.. فقد وجد الرجل صريعا وغارقا فى دمه اذ ضرب بآله حادة .. والكلب بجواره ضرب نفس الضربة ... ولكن ليس فى نفس المكان وظل يزحف حتى رقد بجوار سيده

ثم تلفت مختار فى حزن والدنيا تدور به .. فوجد بابا مفتوحا واشياء مبعثرة على الارض .. فاسرع الى هناك ووجد سيدة رائعة الحسن مكممه فى فمها وموثوقة اليدين والرجلين ومربوطه فى السرير .. وقد طعنت بسكين فى كتفها ولكنها لا زالت تتنفس وتتوجع.

وفك عنها الوثاق سريعا .. ورفع يدها .. وتذكر الاصابع العارية التى رآها أكثر من مرة وفتن بها .. ووضع رأس السيدة على صدره ومسح عنها الدم وتأمل وجهها الجميل ... وهو يفكر فى صلتها بالرجل الذى مات .. وكانت الاشياء المبعثرة حوله تؤكد له أن الجريمة كانت للسرقة .. ولا علاقة لهذه السيدة المسكينة بها ..

وكان مدكور قد آوى هذه السيدة الجميلة فى بيته بعد ان استشهدوالدها ليصونها من الدنس ويحفظها من ذل الفقر .

ولا تدرى بعد هذه الفاجعة كيف تواجه الحياة ..

ولكن مختار تناول اصابعها العارية ومسح عليها برفق وحنان ..



فى عائلة كرفان

قصة الكاتب الفرنسى : جى دى موباسان

ترجمة : سعدية صبرى

كان ترام « نبيه » قد جاوز لتوه مدخل « مايو » وانطلق الآن على طول الطريق المؤدى لنهر « السين » . وكانت المكنة الصغيرة التى تقطر العربة تنفخ بوقها لكى تفسح أمامها الطريق ، وتنفث بخارها وتلهث كمن يلتقط أنفاسه وهو يجرى ، وأساطينها (مكابسها) تحدث ضجة ، متلاحقة ، لقوائمها الحديدية وهى تتحرك . كان ذلك فى نهاية يوم من أيام الصيف ، تهبط حرارته الشديدة فوق الطريق فيرتفع منه ، دون أن يهب أى نسيم ، تراب أبيض طباشيرى كثيف خانق ، يلتصق بالجلد الرطب ويملأ العيون ، ويكتم الأنفاس

أخذ بعض الركاب يهرعون الى الأبواب باحثين عن الهواء ، وأنزل زجاج العربة وأخذت جميع الستائر تخفق مهتزة من سرعة العدو ، أما الذين احتلوا داخل العربة فهم القلة ؛ لأنه فى مثل هذه الأيام الحارة تكون الأفضلية فى الجلوس دائما للدور العلوى من العربة أو سطحها . فأولئك سيدات بدينات مزينات بطريقة غريبة لافتة للأنظار ، انهن من ساكنات الضواحى اللاتى يستعضن عما ينقصهن من صفات بعظمة متكلفة مصطنعة .

وهؤلاء رجال مكدودون من المكاتب ، وجوههم مصفرة ، وقاماتهم مقوسة لهم كتف تعلو عن الأخرى من طول العمل وهم محنيون فوق المكاتب .

الوجوه قلقة وحزينة تحكى دائما المتاعب المنزلية ، والحاجة غير المنقطعة للمال . والآمال القديمة التى اندثرت، الى الأبد . انهم جميعا ينتمون الى هذا الجيش من الشياطين الرثة الثياب ، التى تدعو الى الشفقة ، تلك التى تنبت بأقل النفقات فى منازل حقيرة مبنية بالجبس بجانبها خربات من الأرض تقوم مقام الحدائق ، وسط مزرعة المجارى التى تقع عند أطراف باريس .

بالقرب من باب العربة وقف رجل قصير بدين ذو وجه منتفخ يتدلى بطنه بين ساقيه المنفرجتين ، يرتدى ملابس سوداء مزركشة ، وقف يتحدث مع شخص طويل القامة نحيف ذى مظهر

غير منظم ، يرتدى رداء قذرا من الكتان الأبيض ، وفوق رأسه قبعة عتيقة من خوص « البناما » • كان الاول يتكلم ببطء مترددا أحيانا حتى ليبدو وكان به لكنة هذا هو السيد « كرافان » ويعمل « باشكاتبا » بوزارة البحرية ، والثانى مراقب صحى سابق على ظهر سفينة تجارية ، انتهى به الأمر أن استقر فى ميدان « كوربفوا » حيث أخذ يطبق على سكان هذه البقعة البؤساء المعلومات الطبية المشوشة التى تبقت له بعد حياة تتسم بالمغامرة • كان يسمى « شينيه » وكان يحلو له أن ينادى بالدكتور ، ومسلكه كانت تحوم حوله الشائعات •

أما السيد كرافان فهو يواصل حياة بيرقراطية عادية • فمنذ ثلاثين عاما وهو ياتى فى رتابة الى مكتبه كل صباح ومن نفس الشارع ، ومقابلا فى نفس الساعة وفى نفس الامكنة نفس أوجه الرجال الذاهبين الى أعمالهم • ويعود منه كل مساء من نفس الطريق حيث يجد من جديد نفس الوجوه التى ظل يراها حتى هرمت •

كان فى كل يوم بعد أن يشترى صحيفته نظير « سو » ـ وهو جزء من الفرنك ـ فى ركن من أركان ضاحية « سانت أونوريه » يذهب ليحضر لنفسه رغيفين صغيرين ثم يتوجه بعد ذلك الى الوزارة كالمذنب الذى جاء ليستقر فى سجنه • انه يبلغ مكتبه فى حيوية لكن قلبه يمتلىء بالقلق فهو دائما فى انتظار التأنيب عن شىء من الاهمال يكون قد اقترفه

لا شىء قط حدث ليغير من نظام حياته الرتيبة • ان أى حدث لم يكن ليؤثر فيه الا ما يتعلق بعمله كالترقيات والعلاوات ولم يكن يتحدث فى أثناء وجوده بالوزارة أو وسط عائلته (فهو متزوج من ابنة أحد زملائه بغير دوطة) لم يكن يتحدث أبدا الا عن العمل ، ونفسه التى أعيتها تقريبا المطالب الملحة التى تتجدد كل يوم ليس لديها أية أفكار أخرى أو آمال أخرى أو أحلام أخر الا تلك التى تتصل بالوزارة

ان الشىء الذى يفسد عليه شعوره بالرضا عن عمله ، هى حسرة مريرة سببها مفاجأة ضباط اتصال البحرية وصناعها بشاراتهم الفضية لأعمال الرؤساء والمرءوسين • وفى كل ليلة أثناء تناول طعام العشاء كان يحاول أن يقيم الأدلة أمام زوجته التى تقاسمه نفس الاحقاد ليثبت أنه من الظلم ـ من جميع الوجوه ـ أن تعطى المناصب فى باريس لأشخاص مخصصين للملاحة •

لقد أصبح كرافان شيخا الآن • لم يشعر ألبتة بحياته وهى تمضى ، فالمكتب ـ وبدون أى تغيير ـ هو امتداد للمدرسة والمشرفون على الدراسة الذين كان يرتعد أمامهم بالأمس استبدل بهم الرؤساء الذين لا يفتأ يتشكك فى نواياهم وهو فزع • وعتبة حجرة هؤلاء المستبدين تجعله يرتعد من قمة رأسه الى اخمص قدمه • وكانت هذه الرهبة الدائمة تكسبه منظرا أبله ومظهرا مستضعفا ونوعا من التأتأة العصبية • انه لا يعرف باريس تماما كما لا يعرفها أعمى يقوده كلبه ، كل يوم فى ممر لا يتغير ، وهو اذا قرأ فى صحيفته ذات « السو » الواحد الأحداث والفضائح مر بها وكأنها قصص خرافية مخترعة ، عن طيب خاطر ، لكى ترفه عن صغار

الموظفين . وبما أنه رجل له مركزه ومعارض دون أن ينتمي لحزب معين وعدو للتجديد ، فانه يعبر الأحداث السياسية التى كانت صحيفته تشوه معالمها دائما لأغراض نظير أجر مدفوع وعندما كان يعود كل مساء من طريق « الشانز اليزيه » كان يتفحص الجمع الحاشد من المتنزهين والسيل المتدفق من التجمعات كعابر غريب يمر ببلاد قاصية

فى السنة نفسها ، عندما أكمل عامه الثلاثين فى خدمة الدولة منحته هذه فى اليوم الأول من شهر يناير وسام « جوقة الشرف » الذى يعطى دائما لموظفى الادارات المدنية التى حولت الى عسكرية تقديرا لخدمتهم الطويلة المضنية ، أولئك المذنبين البؤساء الراسخين بالقائمة الحضراء .

هذه العظمة الفجائية أعطته عن مقدرته فكرة سامية وجديدة وغيرت طباعه تغييرا شاملا . فمنذ هذه الساعة استبعد سراويله الملونة ، والسترات المزركشة وارتدى بدلا منها سراويل سوداء أنيقة وسترات ردنجوت طويلة فهى أكثر ملاءمة للنيشان العريض .

انه الآن يحلق ذقنه كل صباح ويقلم أظافره بعناية أكثر ويغير ملابسه الداخلية كل يومين وهو يشعر بشعور حقيقى من الرضا والاحترام للمرتبة الوطنية التى أصبح يحتلها .

لقد أصبح فى يوم وليلة « كرافان » آخر نظيفا مهيبا متواضعا وفى منزله ، وفى كل مناسبة كان يقسم دائما بوسامه لقد انتابه نوع من الفخر جعله لا يعبأ بأية أو سمة يحملها الآخرون ، من أى نوع آخر . وكان يغتاظ على الأخص حينما يبصر أناسا يحملون نياشين أجنبية (وكان رأيه أنه يجب ألا تترك هذه النياشين تحمل فى فرنسا) ذلك ما يريده وخاصة بالنسبة للدكتور « شينيه » الذى يلقاه كل مساء ، وعلى صدره أحد النياشين البيضاء ، أو الزرقاء ، أو البرتقالية أو الحضراء .

كان حديث الرجلين ابتداء من « لارك دى بريومف » الى أن يصلا « نبيه » دائما نفس الحديث ، واليوم ، وكالأيام السابقة ، انشغلا أولا بالمخالفات المحلية التى كانت تنغض كليهما فى الوقت الذى لا يأخذها فيه عمدة «نبيه» مأخذا جديا . وكما يحدث دائما ، والانسان بصحبة طبيب ، فان كرافان يمر على الصفحة الصحية مؤملا أن يستخلص بهذه الطريقة بعض النصائح الصغيرة المجانية أو حتى استشارة طبية يعمل بها دون أن يفطن الى ذلك أحد .

ان صحة والدته تقلقه منذ حين فهى كثيرا ما تصاب باغماءات طويلة ، ثم انها ، على الرغم من شيخوختها ، وعمرها الذى بلغ التسعين ، لا توافق على أن تعالج مطلقا ، ان كرافان يشفق عليها من أجل سنها الكبيرة ، ويردد بدون انقطاع للدكتور « شينيه » : « ألست تراها غالبا وهى قادمة هنا ؟» ويفرك يديه فى سعادة لا لأنه مهتم بكون السيدة المسكينة قد عمرت على وجه الأرض ، ولكن لأن طول بقائها كان بمثابة وعد شخصى له بأنه سيكون

كذلك . ثم يضيف « نحن فى عائلتى نعيش طويلا ، ولذا فاننى واثق بأنه ما لم يقع لى حادث فسأموت شيخا هرما جدا » ويلقى عليه المراقب الصحى نظرة اشفاق ثم يتفحص للخطة وجهه المحمر ورقبته الغليظة وكرشه المتدلى بين ساقين مترهلتين سمينتين ، وهذا الشكل الكروى الذى يؤذن باصابة صاحبه الموظف العجوز الواهن بالسكتة القلبية ، يتفحصه ثم يجيب ساخرا وهو يرفع بيده قبعته « البناما » الرمادية : « ليس هذا مؤكدا تماما يا صديقى الطيب فوالدتك كالمطاط الرفيع ، وأنت مكور كوعاء الحساء (سلطانية الشوربة) » ويرتبك كرافان ولا يحير جوابا .

ويصل الترام الى المحطة فينزل الرفيقان ويذهبان كعادتهما الى قهوة « جلوبل » المقابلة للمحطة حيث يقدم السيد (شينيه) لصديقه قدحا من النبيذ ، ويمد صاحب القهوة وهو صديق لهما اصبعين من فوق الزجاجات المرصوصة على البار أمامه فيضغطان عليهما محيين . ثم يذهبان بعد ذلك لينضما الى ثلاثة من هواة « الدومينو » جالسين الى مائدة منذ الظهيرة ، وبعد أن يتبادلا معهم العبارات الودية ، وعبارة « ماذا هنالك من جديد » التى لا تغفل يستأنف اللاعبون لعبهم فى الحال ويتمنى لهم السيد «شينيه» وزميله آمسية سعيدة فيمد هؤلاء أيديهم لمصافحتهما دون أن يرفعوا رءوسهم . ثم يذهب بعد ذلك كل منهما الى منزله لتناول العشاء .

كان كرافان يقطن بالقرب من ميدان «كوربقوا» منزلا صغيرا من طابقين ، وأما (البدروم) فيسكنه أحد الحلاقين

كانت شقته تتكون من حجرتين وحجرة للطعام ومطبخ ، بها بعض الأرائك المجددة التى ينقلونها من حجرة الى أخرى حسب الحاجة اليها ، وتقضى مدام كرفان معظم وقتها فى تنظيفها ، وفى أثناء ذلك تلهو ابنتها «مارى لويز» وعمرها اثنتا عشرة سنة وابنها «فيليب أوجست» وعمره تسعة أعوام فى مستنقعات الشارع مع بقية رعاع الحى

أما والدة كرافان التى أسكنها فوقه فى الطابق العلوى فهى سيدة بخيلة ملأ صيت بخلها جميع الأرجاء ، وكان نحولها خير دليل على أن الله قد طبق عليها نفس تعاليمها فى التقتير . انها ثائرة بغير انقطاع ، لايمر يوم واحد دون أن تتشاجر وأن تهيج هياجا عنيفا فهى تشتم الجيران من النافذة وتبكتهم وهم وقوف أمام أبوابهم ، وجميع الباعة ، والكناس، والصبية ، حتى أنهم ـ لكى ينتقموا منها ـ كانوا يتبعونها عن بعد ، وهى تسير فى الشارع ، ويلقون عليها ـ فى شبه زفة ـ عبارات السخرية والاستهزاء .

وكانت هناك سيدة نورماندية مسنة على جانب لا يعقل من البلاهة ، تقوم بأعمال المنزل وتبيت الى جوار السيدة العجوز بالطابق الثانى ، مخافة أن يقع لها حادث .

وعند ما عاد كرافان الى منزله وجد زوجته ، وهى مصابة بداء التنظيف المزمن ، تلمع بقطعه من قماش «الفانلة» الكراسى المصنوعة من خشب الأبنوس ، والمبعثرة داخل الحجرات الخاوية ، انها تلبس دائما قفازا من الخيط ، وتحلى رأسها بقبعة مزينة بشرائط متعددة الألوان تنسدل دائما الى ناحية فتغطى احدى أذنيها ، وكانت تكرر دائما اذا ما فاجأها أحد وهى تنظف وتغسل « اننى لست غنية ، كل شىء عندى متواضع ، ولكن النظافة هى زخرفى الوحيد ، انها تساوى الكثير »

ونظرا لأن الله حباها بعقلية عملية راجحة ، فقد كانت دليل زوجها فى كل شىء ، وكانا كل مساء فى أثناء تناولهما الطعام ، وبعد أن يأويا الى الفراش ، يتحدثان طويلا فى شئون العمل ، ورغم أنها تصغره بعشرين عاما فهو يثق بها كمرشدة له ، ويتبع دائما نصائحها فى كل كبيرة وصغيرة ·

ان مدام كرافان لم تكن جميلة يوما من الأيام ، بل هى دميمة ، ذات جسم ضئيل نحيف ، ترتدى ملابس غير ملائمة لها ، تخفى دائما ما تبقى لها من أنوثة كان من الممكن ابرازها لو ارتدت أزياء أنيقة متقنة · لكنها تلبس دائما « جونلات » تميل الى أحد الجانبين انها تقابل دائما وفى كل مكان بالنفور الذى يتزايد أحيانا حتى يبلغ حد الرجفة عند رؤيتها · والزينة الوحيدة التى سمحت بها لنفسها تتلخص فى مجموعة من الأشرطة الحريرية المتداخلة مثبتة فوق ما تسميه قبعة ، والتى اعتادت ارتداءها فى المنزل ·

وبمجرد أن لمحت الزوجة زوجها نهضت وقبلته فى وجنتيه قائلة : «هل تذكرت ما كلفتك اياه يا عزيزى (انها مهمةوعدها بانجازها) » فارتمىمذعورا على كرسى ، لأنه نسى هذه المهمة للمرة الرابعةوأجاب : «يالسوء الحظ !! يالسوء الحظ !! لقد تذكرتها جيدا طول اليوم ولكننى عند قدوم المساء أنسى دائما » ولما رأت زوجته أن هذا قد أحزنهواسته قائلة : « ستتذكرها غدا ان شاء الله ، ولا شىء هناك » وتابعت الحديث : « هل من جديد فى الوزارة »

ـ نعم نبأ خطير فقد عين أحد الصناع وكيلا للرئيس ·

وبانت عليها أمارات الجد وسالته :

ـ وفى أى مكتب ؟

ـ فى مكتب المشتريات الخارجية ·

وأغضبها هذا النبأ ووقعت قبعتها على كتفها ·

ـ أرأيت أن كل شىء قد انتهى ، هذه العلبة المغلقة لا يمكن العمل بها الآن ·

ومن هو ضابط اتصالك الجديد ؟

ـ « بناسو » ···

وأحضر كرافان دليل البحرية الذى كان دائما فى متناول يده وأخذ يبحث ··· « بناسو ـ ولد بطولون سنة

١٨٥١ ٠٠ مساعد ضابط اتصال سنة ١٨٧١ ووكيل ضابط الاتصال سنة ١٨٧٥ » ٠

ــ هل مارس الملاحة ؟

واستعاد كرافان بشاشته عند هذا السؤال وغمرته موجة من البهجة اهتز لها كرشه الضخم وقال : « انه مثل بالان تماما ، مثل بالان رئيسه » ٠

ثم سرد وهو مستغرق فى الضحك دعابة قديمة كانت تتندر بها الوزارة كلها : « ان بالان وبناسو يجب ألا يرسلا للتفتيش على محطة « بوان دى جور » البحرية عن طريق البحر ، فان سفرهما فوق هذه المراكب الصغيرة سيكون فيه متعبة لهما وسيمرضان » ٠

ولم تغير هذه الدعابة من هيئة مدام كرافان ، وبقيت صارمة كأنها لم تستمع اليها ، ثم همست وهى تدعك فى بطء ذقنها : « لو كان لدينا نائب واحد فى المجلس ، مدين لنا بأى شىء ، لكان يجعل الوزير يقفز من هول الصدمة عندما يعرف الجميع ما يحدث هنا فى داخل الوزارة ٠ »

وانطلقت صرخات على السلم مقاطعة حديثها ٠ ان « مارى لويز » و «فيليب أوجست » وهما عائدان لتوهما من مستنقع فى الشارع يتبادلان على كل درجة من درجات السلم اللطمات والركلات فاندفعت والدتهما وهى فى ثورة عارمة وأمسكت بذراعيهما وألقت بهما داخل الشقة وهى تهزهما بقسوة ٠

وبمجرد أن لمحا والدهما أسرعا اليه فقبلهما فى حنان قبلات طويلة ثم جلس وأجلسهما على ركبتيه وتحدث معهما حديثا قصيرا ٠

ان « فيليب أوجست » ولد صغير سىء الخلق أشعث الشعر قذر من أخمص قدمه الى قمة رأسه ، ذو وجه تلوح عليه البلاهة ٠ أما مارى لويز فكانت تشبه أمها فى كل شىء ، تتحدث مثلها ، وتكرر عباراتها وكلماتها ، وتقلدها حتى فى حركاتها ، وتردد أيضا نفس عباراتها : « ماذا هنالك من جديد بالوزارة » ويجيبها والدها فى مرح : « أيتها الصغيرة » ان صديقك رامون الذى يأتى ويتغذى معنا هنا كل شهر سيتركنا ٠ لقد أتى وكيل جديد بدلا منه » وترفع الفتاة عينيها لتنظر الى والدها فى براءة الطفل الصغير : ثم تقول : « لقد قفز اذن واحد آخر من فوق ظهرك » فضحك كرافان دون أن يجيب ، ولكى يغير الحديث قال موجها الكلام الى زوجته التى كانت لا تزال تلمع زجاج المنزل ، حتى هذا الوقت : « هل والدتى بخير فى أعلى ؟ »

وتوقفت عندئذ مدام كرافان عن الدعك واستدارت اليه ووضعت فوق رأسها القبعة التى كانت قد سقطت فوق ظهرها وارتعشت شفتاها ٠٠

ــ « نعم لنتكلم عن والدتك ، لقد أرادت أن تبدى لى ملاحتها اليوم ! تصور أنه منذ قليل صعدت الى مدام

« ليبو دان » زوجة الحلاق لكى تقترض منى علبة من النشاء فطردتها وعاملتها كما لو كانت « شحاذة » لأنى لم أكن موجودة بالمنزل ، ولذلك فقد لمتهـــا فتظاهرت بالصمم كعادتها عندما تتلى عليها الحقائق ، ولكنها ليست أشد صمما منى ، خذها منى كلمة ، هـذا تبلد ، كل هذا والدليل على ذلك أنها صعدت الى حجرتها فى الحال دون أن تنبس ببنت شفة » ، وارتبـك كرفان وسكت ، وأسرعت الخـادمة ضئيلة الجسم تدعوهم للعشـاء · ولكى ينبه كرفان والدته تناول يد مكنسة مخبأة دائمـا فى ركن من الأركان ودق بها السقف ثلاث دقات ، ثم انتقل الجميع الى حجرة الطعام ، وقدمت مدام كرفان الشابة الحساء ، وبقوا فى انتظار مقدم مدام كرفان العجوز· لم تحضر هذه وبدأ الحساء يبرد فأخذوا يأكلون فى تباطؤ وفرغت الأطبـــــاق وهم مازالوا فى انتظارها وفى ثورة جامحة وجهت مدام كرفان الكلام لزوجها : « انها تفعل هذا عامدة ، أتعـرف ذلك ؟ لأنك دائما تؤيدها ووقع الزوج فى حيرة شديدة بين الاثنتين ولـكنه أرسل مارى لويز لتصحب جدتها ، وبقى ساكتا ، خافضا عينيه ، وفى الوقت نفسه كانت زوجته تنقر بالسكين فى عصـبية ظاهرة على أسفل كوبتهـا ، وفجأة فتح البـاب وظهرت الفتاة من جديد شاحبة اللون تكاد تتوقف أنفاسها ، وقالت وهى تتكلم بسرعة : « ان جـدتى ملقــــاة على الارض ···· » ·

وانتفض كـرافان واقفــا والقى بمنشفته على المائدة واندفع الى السلم يدقه بخطواته الثقيلة السرعة التى كان صوتها يدوى ، وفى نفس الوقت تبعته فى بطء زوجته وهى تهـز باشمئزاز كتفيها فقد كانت تظن أنها خدعة خبيثة من خدع حماتها ·

كانت العجوز ملقاة بطولها على وجهها وسط الحجرة فادارها ابنها ولكنهـــا كانت جـامدة ودون حـراك ، جلدها مصفر مغضن مدبوغ ، وعيناها مقفلتان ، وأسنانها محكمة الاطباق بعضـها على بعض ، وكل جسدها النحيل فى حالة تصلب ·

وركـع كـرافان على ركبتيه وهو يجأر : « مسكينة أنت يا أماه ! مسكينة أنت يا أماه ! » ولكن مـدام كرافان الشابة تفحصتها للحظة ثم قالت : « انها مغمى عليها كالعادة وهذا كل ما فى الأمر ، وكن على يقين أن كل ذلك لكى تمنعنا من تناول العشاء » · وحملوا جسدها الى السرير ثم خلعوا عنه الملابس تماما وأخذ الجميع يدلكونه : كرافان وزوجته والخادمة ولكن على الرغم من جهودهم لم تعـد العجوز الى وعيها ، فارسلوا الخادمة « روزالى » لاستدعاء « الدكتور شينيه » ·

كان هـذا يقطن بعيدا عن رصيف النهر بالقرب من « سيرسين » ولذا كان الانتظار طويلا وأخيرا حضر شينيه وبعد أن نظر الى السيدة العجوز وجسـها

وفحصها نطق هذه الكلمات : « تلك هي النهاية » ·

وارتمى كرافان فوق جسدها وهو يهتز من النشيج المتلاحق ، يقبل في تشنج وجه أمه المتصلب ودموعه تفيض بغزارة فتبلل قطراتها وجه السيدة المتوفاة · أما مدام كرافان الشابة فقد أصابتها نوبة غم حقيقية ، وكانت ترسل وهي واقفةخلف زوجها تأوهات خافتة ، وتدعك عينيها في عناد ·

وانتفض كرافان فجأة بوجهه المنتفخ وشعيراته المبعثرة فهو يبدو شديد القبح عندما يلم به حزن صادق : «ولكن هل أنت متأكد يا دكتور ؟ تمام التأكد ؟ فاقترب المراقب الصحى وقلب الجثة في براعة علمية مثل تاجر يقدر ثمن سلعته وقال : « تقدم أيها الطبيب وأنظر الى العين · ثم رفع الجفن وبدت نظرة السيدة العجوز تحت اصبعه وليس بها أدنى تغيير وبدت حدقتها أكثر أتساعا· وشعر كرافان بصدمة في قلبه وبخوف يسرى في مفاصله · ثم أخذ السيد شنيبية وهو ثائر كما لو كان أمامه شخص يعارضه ، أخذ ذراعها وضغط على أصابعها لكي يفتحها : «انظروا فقط الى هذه اليد ، انني لا يمكن أن أخطئها ، فكونوا على يقين » · وسقط كرافان يتمرغ فوق السرير وهو خائر القوى تقريبا ، في الوقت الذي أخذت فيه زوجته تقوم بعمل الأشياء الضرورية ، متظاهرة بالبكاء · قربت من السرير منضدة صغيرة ، بسطت عليها غطاء ، ووضعت فوقه أربع شمعات أضاءتها جميعا ، وأخذت غصنا معلقا خلف مرآة المدفأة ووضعته بين الشموع في طبق ملأته بالماء الرائق لأنه لم يكن لديها ماء مقدس ولكن بعد تفكير سريع ألقت في هذا الماء ذرة من الملح وهي تتخيل دون شك أن ذلك يكسبها نوعا من القداسة ·

ونزل كرافانفي الصباح عندمانادته زوجته وكانت قد أعدت قائمة بالأشياء التي يجب عملها في الصباح فناولته هذه القائمة ففزع عند رؤيتها وقرأ :

١ – اعلان الخبر في مقر العمدة ·

٢ – استدعاء طبيب الموتى ·

٣ – التوصية بعمل التابوت ·

٤ – المرور بالكنيسة ·

٥ – وبمحل الفراشة ·

٦ – وبمطبعة الخطابات ·

٧ – عند مسجل الكنيسة ·

٨ – وبالتلغراف لكي يخبر العائلة ، وعلاوة على ذلك سيل من المشاوير الصغيرة

ثم أخذ قبعته وانصرف ·

كان النبأ في ذلك الوقت قد انتشر وبدأ الجيران يفدون لرؤية المتوفاة ، وعند الحلاق في «البدروم» كان يجرى مشهد مسرحي بين الزوج وزوجته خاصا بهذا الموضوع في أثناء حلاقته لأحد الزبائن · همست الزوجة قائلة وهي تصنع جوربا من التريكو :

« بناقص واحدة ·· واحدة بخيلة ،

لم يخلق مثلها كثير ٠٠ انني لم أكن في الحقيقة أحبها ولكن مع ذلك يجب أن أذهب لرؤيتها »

وزمجر الزوج وهو يغطي ذقن زبونه بالصابون : «هذه خواطر لا داعي لها !، ان النساء قد خلقن لهذا ٠ ليس يكفيهن أن يضايقنك في الحياة ، بل انهن لا يستطعن حتى أن يتركنك تنعم بالراحة بعد الموت » فأجابت زوجته دون أن تنفعل : « هذا شيء أقوى مني ، يجب أن أذهب ، ان هذا الامر يشغلني منذ الصباح ، انني اذا لم أرها يخيل الى أنني سأظل أذكر ذلك طول حياتي ولكني اذا تأملتها جيدا لأتذكر ملامحها فسأكون راضية بعد ذلك » وهز الرجل كتفيه وهو ممسك بالموسى ، وأسر الى السيد الذي كان يحلق له ذقنه : «انني أسألك قليلا ٠٠ ما هي أفكارك بالنسبة لهذه المقدسات النسائية ؟ ، انني شخصيا لست ممن يتسلون برؤية ميت » بيد أن زوجته سمعته فأجابته بغير تردد : « ان الامر كذلك ٠٠٠ انه كذلك ! » ثم وضعت الجورب فوق المنضدة وصعدت الى الدور الاول ٠ وكانت قدحضرت آنذاك جارتان أخريان وبقيتا تتحدثان مع مدام كرافان عن الحادثة وهي تقص عليهما تفاصيلها ٠

وتوجه الجميع صوب الحجرة الجنائزية ودخلت السيدات الاربع دون جلبة ورشت الواحدة تلو الاخرى الغطاء بالماء المملح وركعن ، ورسمن علامة الصليب، ثم تمتمن بصلاة قصيرة ثم نهضن وقد ازدادت أعينهن اتساعا، وفغرن أفواههن وهن يتفحصن الجثة لمدة طويلة ، وأمسكت زوجة ابن المتوفاة منديلا فوق عينيها ثم اصطنعت تنهيدة يائسة ٠

وعندما استدارت مدام كرافان لتخرج لمحت خلفها بالقرب من الباب ماري لويز وفيليب أوجست ، يرتدي الاثنان قميصيهما وينظران في فضول ، عندئذ نسيت حزنها الاضطراري وأسرعت نحوهما مرفوعة اليد تصرخ بصوت مدمر : « ارحلا من هنا أيها المتشردان الأبلهان الثقيلان » ٠ وصعدت مرة ثانية مع حفنة أخرى من الجارات ولوحت بالغض فوق حماتها من جديد وصلت وسكبت الدموع وأتمت جميع واجباتها ثم التفتت فوجدت خلفها ولديها وقد عادا من جديد ، فصفعتهما بشدة ، ثم لم تهتم بعد ذلك عند قدومهما في المرة التالية ٠ وعند قدوم أي زوار بعد ذلك كان الصغيران يقلدان دائما ـ وهما راكعان في ركن من الاركان ـ أمهما في كل ما كانت تفعله أمامهما ٠

وقلت وفود الفضوليات تدريجيا بعد الظهيرة ثم ما لبثت أن انقطعت نهائيا فعادت مدام كرافان الى شقتها وانشغلت في تجهيز كل مايلزم للطقوس الجنائزية وبقيت الميتة بمفردها ٠

كانت نافذة الحجرة مفتوحة ، تدخل منها حرارة محرقة مع الغبار المنتشر ، وكان لهب الشمعات الاربع يتحرك بالقرب من الجسد الساكن ، وفوق الغطاء وعلى الوجه ذي الأعين المقفلة ، وفوق اليدين الممدودتين كان الذباب الصغير يتسلق ويروح ويغدو ويتجول بدون انقطاع كأنه يزور السيدة العجوز في انتظار ساعتها الاخيرة ٠

وعنــدما عادت مارى لويز وفيليب أوجست ليتجولا من جديد فى الشارع أحاط بهما الزملاء من كل جانب (وعلى الاخص الفتيــات الصــغيرات الاكثر نضوجا وادراكا لغوامض الحياة) وأخذن فى استجوابهما تمــاما كمــا يفعل الاشخاص الكبار •

ـ « هل ماتت جدتك »

ـ « نعم أمس مساء »

ـ كيف يكون الميت •

فاخذت مارى لويز تشرح وتقص عن الشموع والغض والوجه وعندئذ اشتعل الفضـــول فى جميع الاطفـال وطلبوا الصعود عند الميتة • وفى الحال نظمت مارى لويز رحـلة أولى من خمس بنات وولدين كانوا أكبر وأشجع الموجودين ، ولكى لا يكتشفهم أحــد أرغمتهم مارى لويز على خلع نعالهم وتسللت الجماعة الى المنزل وصعدت بمهــارة كجيش من الفيران • وفى الحجرة نظمت الفتــاة الصغيرة اقامة الطقـوس مقلدة فى ذلك والدتها ، فقادت زملاءها فى احتفــال مهيب وركعت ورسمت عــلامة الصليب وحركت شفتيهــا ثــم نهضت ورشت السرير • وفى ذلــك الوقت اقتــرب الاطفــال وهم متراصـون كأنهم حفنة واحدة يملؤهم الخــوف والفضــول والذهول ليتأملوا وجه العجوز ويديها ، وتصطنع مارى لويز فجأة البكاء مخبئة عينيها فى منديلهــا الصغير ، ثم تهدأ عندما تفكر فى هؤلاء المنتظرين بالباب فتسرع فى اصطحاب من معها الى الخارج لتحضر مجمــوعة ثانية ثم ثالثة ، لان جميع أطفـــال المدينة أشقياء ، وحتى الشحاذين فى ثيابهم البالية كانيهرعون للتمتع بهـذه المتعة الجديدة • وكانت مارى لويز تبـدأ فى كل مرة من جديد فى محاكاة أمها باتقان تام، وفى النهاية تعبت فانصرف الاطفال بعيدا الى لعبة أخرى وبقيت الجدة وحيدة منسية تماما من العــالم كله • كانت الظلال تمـلأ الحجرة وكان لهب الشموع المهتز يجعل الاضواء تتراقص فوق وجهها الجــامد المجعد • وحوالى الساعة الثامنة مساء صعد كرافان وأغلق النــافذة واستبدل شموعا جديدة بالشـموع • كان يدخل فى هدوء وكالعادة يتفحص الجثة كمــا لو انها كانت هناك منذ شهور • لقــد اكتشف انه لم يظهر بها أى تحلل بعد فابدى هذه الملحوظة لزوجته فى أثنــاء جلوسهم الى المــائدة لتناول الطعــام فأجابته : « اطمئن ، انهــا مخلوقة من خشب ولن تبلى قبل عام » ثم تناولوا الطعام دون أن ينطق أحدهم بكلمة ، أما الاطفــال فكان التعب قد أنهكهم لانهم ظلوا منطلقين طوال اليوم فنــاموا فوق مقاعدهم ، وبقى الجميع فى سكون • وفجأة انخفض ضــوء المصباح فأدارت مدام كرافان مفتاحه لكنه احدث صوتا مجـوفا وحشرجة طويلة ثم انطفأ نوره نهائيا • لقـد نسوا فى غمرة الانشغال شراء زيت ! والذهاب الى البقالسيؤخر موعد العشاء فاخذوا يبحثون عن بعض الشموع ولم يجدوا فى النهـاية سوى الشمعات المضــاءة فوق المنضدة بالدور الأعلى • ولما كانت مدام كرفان سريعة فى اتخــاذ قراراتها فقد أرسلت مارى

لويز على عجل لتحضر اثنتين منهما ، وظل الباقون ينتظرون وسط الظلام . لقد سمعوا بوضوح وقع أقدام الفتاة وهى تصعد السلم ، ثم تبع ذلك سكون لمدة لحظات ثم عادت الابنة مسرعة وفتحت الباب وهى فزعة ، وكانت أكثر انزعاجا من الليلة السابقة عندما أخبرتهم بالفاجعة قالت فى صوت منخفض وأنفاسها تكاد تختنق : « ان جدتى ترتدى ملابسها ياأبى !» وانتفض كرافان واقفا وهو يرتجف وتدحرج مقعده ، وارتطم بالحائط ثم قال متلعثما: « أنت تقولين ... ما الذى تقولينه ؟»

ولكن مارى لويز أعادت هذه العبارة وهى تكاد تختنق من شدة الانفعال .. « ج ... ج ... جدتى ترتدى ملابسها وستنزل » .

فاندفع كرافان الى السلم فى جنون تتبعه زوجته وهى مشدوهة ثم وقف أمام باب الدور الثانى يرتجف من الفزع دون أن يجرؤ على الدخول . ماذا تراه سيرى ؟ وكانت مدام كرافان أكثر منه شجاعة فأدارت القفل ودخلت الحجرة وبدت الحجرة وكأنها ازدادت ظلمة ، وفى وسطها شبح طويل نحيل يتحرك . لقد كانت هى العجوز التى تقف ، والتى لما أفاقت من غيبوبتها ، وقبل أن تعود تماما الى رشدها استدارت متكئة على مرفقها وأطفأت ثلاثا من الشمعات الاربع التى كانت تحترق بجانب سرير الموت ، ولما استعادت كامل قوتها نهضت لتبحث عن ملابسها ، ولقد أزعجها عدم وجود (الكومودين) الخاص بها فى بادىء الامر ولكنها وجدت بالتدريج حاجياتها داخل صندوق خشبى فارتدت ملابسها فى هدوء . وأفرغت الطبق المملوء بالماء وأعادت الغض الى مكانه خلف المرآة والمقاعد الى أماكنها وعندما أصبحت مستعدة للنزول ظهر أمامها ولدها وزوجته وأسرع كرافان والدموع تملأ عينيه وأمسك بيديها وقبلها ووقفت زوجته خلفه تكرر فى خبث : «ياللسعادة ياللسعادة ! » وسألت العجوز وهى مشدودة كالتمثال وعينها متحجرة دون أن ترق أو تبدو عليها أنها تفهم سر ما يدور حولها سألتهم فقط : هل أعد العشاء ؟ فأجاب كرافان وهو يكاد يفقد رأسه : « أجل يا والدتى ونحن فى انتظارك ! » وبسرعة غير عادية أمسك بذراعها وأمسكت مدام كرافان الشابة بشمعة لتنير لهما ونزلت أمامهما السلم بظهرها درجة درجة ، وعند وصولهم للدور الاول أوشكت مدام كرافان أن تصطدم بالقادمين خلفها فلما استدارت تبينت أنهم عائلة « شارنتون » ومدام « برو » وزوجها . وفتحت مدام برو وهى طويلة القامة غليظة ذات كرش تشبه المصابين بداء الاستسقاء ، ويميل بقفصها الصدرى الى الخلف فتحت عينيها فى ذعر واستعدت للهرب ، أما زوجها وهو اسكاف قصير القامة مغطى بالشعر حتى أنفه ، يشبه القرد تمام الشبه فقد همس دون أن يبدو عليه أى تأثير :

« ما هذا ؟ هل بعثت من جديد ؟ » وما ان رأتهم مدام كرافان حتى أشارت لهم اشارات يائسة ، ثم قالت لهم بصوت مرتفع : « ما هذا ؟ لقد حضرتم اذن ! يا لها من مفاجأة سعيدة » ولم تفهم مدام برو وأجابت بصوت منخفض وهى فى ذهول : « انها برقيتكم هى التى أتت بنا الى هنا ، لقد كنا نظن أن كل شىء قد انتهى » وكان زوجها واقفا خلفها يقرصها لكى تسكت ثم يضيف وهو يضحك ضحكة ماكرة ، تحجبها ذقنه الكثيفة : « كم كان لطيفا منكم أن دعوتمونا ، لقد جئنا اليكم على عجل » وكان يشير بذلك الى المشاحنات التى تسيطر منذ زمن بعيد على الطرفين • وما ان وصلت العجوز الى الدرجات الاخيرة من السلم حتى تقدم منها برو فى حيوية ورفع عن خدها الشعر الذى يغطيه ، ونظرا لفقدانها السمع فقد صاح فى أذنها : « كيف حالك أيتها الوالدة ؟ متينة كعادتك ! أليس كذلك ؟ »

ولم تجرؤ مدام برو حتى على أن تقبل والدتها فهى فى دهشة من أمرها ، كيف تجدها حية من كانت تظن أنها فى عداد الاموات • وظلت مدام برو واقفة تسد الطريق ببطنها أمام بقية القادمين •

كان يبدو على العجوز القلق والشك ولكنها لم تتكلم بل كانت تلتفت الى هذا الجمع الذى يحوطها وتسرح نظراتها من شخص لآخر ، وكانت عيناها الرمادية الصغيرة تمتلىء بالخواطر المرئية التى يتضايق منها أبناؤها • ولكى يوضح كرافان الامر قال : « لقد كانت متعبة بعض الشىء ولكنها تحسنت الآن • تحسنت تماما • أليس كذلك يا أماه ! »



فأجابت السيدة وهى تتابع سيرها بصوت ضعيف كأنه آت من بعيد : «لقد كانت اغماءة وكنت أسمعكم طول الوقت » وتبع ذلك سكون محير ثم توجهوا الى الصالة وجلسوا حول عشاء أعد لهم فى دقائق · ان السيد برو فقط هو الذى ظل محتفظا بثباته ، ولكنه من حين لآخر كان يقطب وجهه الذى يشبه وجه الغوريلا الشرسة ويطلق كلمات ذات معنيين يتضايق منها الجميع بوضوح ، وكان جرس البهو يدق كل لحظة وتأتى روزالى فى حيرة تبحث عن سيدها فيلقى كرافان بمنشفته وهو يندفع اليها فيسأله زوج أخته السيد برو عما اذا كانهذا اليوم يوم استقباله فيجيب متلعثما : « لا بل هى أعمال لا شىء مطلقا » وفى تلك الاثناء أحضرت له روزالين ربطة ففتحها ببلاهة ولما وجد بها خطابات للتعزية مجللة بالسواد أعاد اغلاق الربطة ودسها فى خجل شديد داخل صديريته، والتفتت العجوز ذات الوجه المجعد الذى يشبه وجه الساحرة ، والعينين المرتعشتين الماكرتين الى ابنتها وقالت : « احضرى لى ابنتك يوم الاثنين فانى أريد رؤيتها » وأشرق وجه مدام برو وصاحت : «سمعا وطاعة يا أماه» وشحب وجه مدام كرافان وهى تتميز من الغيظ · وفتح الباب وظهر منه الدكتور شنيبه فانتابه الذهول لحظة ، لكنه تمالك نفسه واقترب من العجوز وقال : « انك تبدين أحسن حالا اليوم أيتها الوالدة ، اننى لم أكن أشك فى ذلك ، تصورى أنى كنت أخاطب نفسى وأنا أصعد السلم وأقول : «سوف أجدها واقفة ، تلك المخضرمة ، اننى أراهن على ذلك ، انها قوية مثل جسر « بون نيف » سوف تدفننا جميعا وسترون وجلس شنيه وقدمت له القهوة فشربها وعندما شعرت العجوز بالتعب وأرادت الانصراف أمسكتبذراع ابنتها وغابت عن الانظار ·

وبقى كرفان وزوجته فى حالة ذهول وصمت ، فقد كانا واقعين فى نكبة مخيفة ، فى حين كان برو يفرك يديه ويرتشف قهوته بتنغيم وفجأة جنجنون مدام كرافان من الغضب فانطلقت اليه وهى تنبح « انك لص ، انك منحط ومن أسافل القوم ، اننى أبصق فى وجهك· اننى ·· اننى ··· » ولم تجد شيئا شيئا آخر تقوله ليضايقه لكنه استمر فى شرب القهوة وهو يضحك ·

وكانت زوجة برو قد اقبلت لتوها فانطلقت نحو زوجة أخيها ، وتبادلتا بأعلىصوتيهما قناطيرمقنطرة منالسباب الاولى بطنها ضخم ومرعب ، والثانية مصابة بالصرع نحيلة ذات صوت متلون ويد مرتعشة ·

وتدخل شينيه وبرو ودفعهذا الاخير نصف زوجته وهو ممسك بكتفيها وقذف بها الى الخارج صائحا ، «اذهبى أيتها الجحشة انك تنهقين كثيرا ! » ثم سمعا يتشاجران وهما يبتعدان فى الطريق وانسحب السيد شينيه وبقيت عائلة كرافان وجها لوجه، وسقط الرجل على مقعد والعرق البارد يتصبب من جبينه وهمس قائلا :

« ماذا سأقول غدا للرئيس ؟ »

القصة فى الأدب الانجليزى

بقلم : د . طه محمود طه

١

٤ عصر التجارب • القصة فى القرن العشرين

١ ــ نظرة عامة .
٢ ــ العلم الحديث والقصة .
٣ ــ علم النفس والقصة .
٤ ــ مشكلة التوصيل وعزلة الفنان .

١ ــ نظرة عامة :

يطلق المؤرخون على العصور الوسطى « عصر الايمان » The Age of Faith
وعلى القرن السادس عشر « عصر المغامرات » The Age of Adventure
وعلى القرن السابع عشر « عصر العقل » The Age of Reason
وعلى القرن الثامن عشر « عصر التنور » The Age of Enlightenment
وعلى القرن التاسع عشر « عصر الايدولوجيا » The Age of Ideology

ويصعب علينا ان نجد لعصرنا اسما مناسبا ، فهو لم ينصرم بعد ، ولكن الآراء توحى بأنه سيكون « عصر الذرة » أو « عصر التحليل » The Age of Analysis وأطلق عليه « كولن ولسون » « عصر الهزيمة » The Age of Defeat وترجم له كتابه Religion and the Rebel تحت عنوان « سقوط الحضارة » وسبقه أزولد شبنجلر فى ١٩٢٦/١٩٢٨ باصدار « تصدع العالم الغربى » The Decline of the West • وقصيدة « أودن » W.H. Auden عنوانها « عصر القلق » ووصف اليوت عالمه بأنه « الارض الخراب » ، عالم يسكنه « الرجال الجوف » The Hollow Men وأطلق هكسلى على عصره « العالم الجديد الشجاع» ولكنه عالم تتصارع فيه « الغوريلا والجوهر » Ape and Essence . وصور جورج أورويل ما سيكون عليه العالم فى قصته «١٩٨٤» وكتبها فى عام ١٩٤٨ .

ولم تكن الأزمات حادة فى العصر الفكتورى كما هى فى العصر الحديث وعلى أسوأ الفروض اطلق ديكنز على عصره « ايام صعبة » Hard Times واسماه ثاكرى « سوق الغرور » . وفى الادب نطلق على القرن العشرين «عصر الغموض والتعقيد»

وأحيانا « عصر التجارب » وأحيانا « عصر التفتيت » نسبة الى « عصر الذرة » فى الفيزياء .

واعتقد ان احسن معالجة للفترة ما بين عام ١٩٠٠ ، ١٩٥٠ هى التى ترتكز على معنى «التفتيت» لأنها ستقودنا حتما الى دراسة التفتيت والتحليل فى الفيزياء وفى التحليل النفسى وما لهما من أثر بالغ فى تفتيت القصة شكلا وموضوعا وتفتيت الشخوص والمواقف والحبكة و « الحدوتة » حتى اللغة ومفرداتها . ويظهر «التفتيت» فى النظريات النقدية الحديثة كذلك ويتزعم هذه المدرسة وليام امبسون .

وفى الشعر يظهر التفتيت فى المدارس الحديثة ونراه فى شعر اليوت و « ازرا باوند » و «أودن» .

ولقد حدث تغير شامل فى الجو العلمى والثقافى والأدبى والسياسى فى هذا القرن وأسرعت الحرب « بتفتيت » المعتقدات والفلسفات القديمة التى سادت العصر الفكتورى وما قبله وكان من نتيجتها تغيير جذرى وعضوى فى الفكر والاحساس وطرق التعبير .

ولا يطلق المؤرخون أو النقاد كلمة « فكتورى » على كل ما كتب أثناء حكم الملكة فكتوريا فى انجلترا ١٨٩١ — ١٩٠١ ، بل على فترة معينة كانت الأفكار والعادات فيها تتسم بطابع «فكتورى» متزمت دوجماطيقى . وعند مطلع هذا القرن اخذ بعض الأدباء ينظرون الى العصر الفكتورى نظرة شك وتهكم وسخرية ، واعتبروه عصرا منافقا له جو خانق لا يساعد على الابتكار والحرية وتذوق الجمال ، عصرا ماديا يخلو من الاحساس والعاطفة . وجاهر هذا الفريق بآرائه واتهموا العصر بالسطحية والسذاجة فى الافكار واخذوا يهزأون من «تنيسون» ويتثاءبون كلما قرأوا جورج اليوت ، أما ديكنز وثاكرى ، فقد كانت قصصهم تقرأ بسرعة وفى قفزات طويلة من فصل الى فصل تبلغ أحيانا المائة صفحة .

وكانت هذه الطفرة سببا ونتيجة للتغيرات الهائلة فى أدب الخمسة وعشرين عاما الأولى فى هذا القرن . وأصبح كل شىء من طبيعة الكون الى الشكل والاطار فى الشعر معرضا للهجوم والنقد . فبينما كان هـ.ج.ويلز يراجع معتقداته الدينية عن خلق الكون كان « روبرت بروك » مشغولا بقلب شكل السونيت راسا على عقب ، وبينما كان جيمس جويس يعد «قنبلة» العصر فى القصة ويضفى على قصته «عوليس» سوقية ومجافاة لمعنى الادب القائم على الذوق السليم والحس السليم وتفتيتا يقابل التفتيت فى الفيزياء كان ازراباوند واليوت يكتبان شعرا يعتبر صورا ليس بينها رابط منطقى ذهنى . وبدات الأسس الجمالية والصفة الفنية تطرق ابوابا جديدة وظهرت آثار هذه النزعة التجريدية التجريبية فى شعر اليوت وباوند وقصص جويس « وفيرجينيا وولف » و «ابريس ميردوك» فى الثلاثينات . واصبحت القصة لاتخضع لقواعد العقل والمنطق ، بل اصبحت صورة للحياة المفككة المفتتة ، وخرجت فى شكل وعاء يضم كل المتناقضات التى تجعل من الحياة كومة من الأخلاط العجيبة الممزقة وكأن الانسان ينظر الى الحياة والدنيا لأول مرة وكأنها لغز . ولهذا نجد أحيانا ميلا

شديدا فى القصة الى تذكر أيام الطفولة البريئة وهى نزعة تظهر فى فن بيكاسو كذلك .

وما اعتبره الفكتوريون جميلا ، اعتبره أحفادهم وأولادهم كريها لعينا . وما كان يقدره الفكتوريون ويعتزون به من أثاث منزلى ألقى به فى سلة المهملات أو فى صناديق القمامة ، وان كان كره الأحفاد لأثاث الأسلاف عظيما فقد كان حقدهم على « الفرش الذهبى » أعظم .

والتغير الشامل الذى بزغ مع مطلع القرن العشرين كان نتيجة للرغبة الملحة فى محاولة الالمام بكل شىء والوصول الى الحقيقة مهما كانت مرة . وتزعم هذه الحركة برنارد شو ، وكان فى طليعة المشككين ، وهاجم ما أسماه « خرافات الدين القديمة » و « خرافات العلم الحديثة » . ولم يكن هذا بسبب عدائه للدين والعلم بل لأنه كان يؤمن بأن كل عقيدة أو نظرية لا يمكن الأخذ بها الا اذا درسها الفرد وتقبلها عقله . وأهم النصائح فى فلسفته هى « اسأل » ، « اختبر » ، « افحص » ، «جرب» ولهذا يمكننا أن نطلق على العصر الحديث « عصر التساؤل » .

وفى تسعينات القرن التاسع عشر تأثرت القصة بحركة « الفن للفن » . وعلى الرغم من انه لم يكن لهذه الحركة أثرها الكبير فى القصة الا انها أنجبت لنا بعض القصص المرموقة . وقد مهد لهذه الحركة « جون رسكين » (١٨٠٩ — ١٩٠٠) فى كتبه « الفنانون المحدثون » ١٨٤٣ — ١٨٦٠ « والمصابيح السبعة فى فن المعمار » ١٨٤٩ و « أحجار البندقية » ١٨٥٣ ، وفيها شرح مبادىء فن المعمار وتدرج من الحديث عن فن المعمار الى الحديث عن العمال المهرة ثم اخذ يهاجم النزعة التجارية الرخيصة فى عصره . واحتج فى كتبه كذلك على بلادة شعور جمهوره تجاه الفن والجمال كما اتخذ من عبادة الجمال لنفسه دينا . وفى هذه الفترة تأثرت القصة بالاهتمام بالشكل والاطار والتكنيك فى كتب هنرى جيمس وصمويل بتلر ، وقد اهتم الأخير بنظرية الفن للفن وبالحركة الجمالية عموما .

وللأدب الانجليزى عامة والقصة خاصة ميل شديد الى عدم الخضوع لمدارس معينة ، ولا نجد مطلقا ما يطلق عليه « تدهور نهاية القرن » ، والوحدة التى نراها فى أدب هذه الفترة والتجانس الظاهرين الاعمال الادبية هما رد فعل سيكلوجى بدأه « رسكين » كما بينا ضد جمود الاحساس فى العصر الفكتورى ومن بعده أصبح « والتر باتر » ١٨٣٩ — ١٨٩٤ الاستاذ بجامعة اكسفورد رائدا لهذه المجموعة التى تعبد الجمال وتكرس الفن للفن . وتعتبر قصته « ماريوس الابيقورى » ١٨٨٥ تعبيرا عن الفلسفة الجمالية لعصر يحتضر ، وأسلوبها جميل يخلو من الخطأ ، وتبعه أوسكار وايلد بقصته « صورة دوريان جراى » ١٨٩١ وهى قصة صورة تظهر عليها رذائل صاحبها بينما ينعم هو بالشباب والحيوية . ولغة القصة غنية ولو انها لا تضارع قصة « ماريوس الابيقورى » لباتر فى جمال الاسلوب . ويحاول دوريان جراى ولورد هنرى ان يلخصا لنا فى القصة فلسفتهم الجمالية ، ومع هذا نحس ان أوسكار وايلد

كان مدركا للقبح وهو يكتب عن الجمال وكان يشعر ان هناك دودة تنخر فى هـذه **الزهرة الجميلة** . فدوريان جراى رجل فاقد الاحساس بالرغم من لباقته وحسن مظهره ، ويظهر لنـا فى النهاية على حقيقته عنـدما ينتقل التشـويه فى الخلقة اليه وترتسم الرذائل على وجهه بدلا من ظهورها على اللوحة الزيتية وذلك قبل وفاته بلحظات . والكتاب يلخص لنـا حياة أوسكار وايلد وحيـاة أولئك الذين يتمتعون بالحياة وبجمالها دون الخضوع لأى سلطان اخلاقى أو دينى او اجتماعى .

وينتمى « روبرت لويس ستيفنسون » الى هذه المجموعة وكان صديقا لهنرى جيمس ، وله أسلوب رقيق ولم يخط بقلمه كلمة واحدة دون أن يراعى فيها النواحى الجمالية فى الاسلوب . ونذكره جيدا من قصصه ومنها « المخطوف » و « جـزيرة الكنز » . واخرج لنا « جورج مور » الايرلندى « مياه استر » ١٨٩٤ وهى قصة فتاة تشبه الى حد ما «تس» فى قصة توماس هاردى ، وقصته «هلواز وأبيلار» تحكى قصة حب راهب وفيلسـوف العصـور الوسطى بيتر أبيلار Peter Abelard « لهلواز » وفيها احياء للعصور الوسطى بالوانها الزاهية ومغامراتها الرومانسـية وفلسفة المثاليين والواقعيين بين المدرسيين .

ويعرف «جورج مور» فن كتابة القصة على انه «**تتابع ايقـاعى منظم للحوادث فى أسلوب ايقاعى منظم للعبارات**» . والقصة عنده هى « الشكل » والشخوص يجب عليها أن تنثنى لتتبع توافق الالحان فى هذا الايقاع المنظم . ولا بد من انتقاء التجارب والعواطف وتصنيفها طبقا لقواعد سيكلوجية معينة تقصد ابرازها فى اطار معين مع العناية بابراز الأضواء والظلال تماما كما فى اللوحات الزيتية . وبهذا يصبح القصاص الصانع الماهر الذى يصقل مادته الانسانية . واصبحت القيم الأخلاقية نسبية حتى اننا نجد أوسكار وايلد يقـول : « الفن جميعه لا أخـلاقى » بمعنى انه فوق القيم الأخلاقية .

وقد يجد المؤرخ فى المستقبل فى فرويد وماركس وابنشتين ثلاثة من المفكرين لهم أعظم الأثر فى الحضارة والعلم الحديث كما كان « لكوبرنيكوس » وماكيافيـللى ومونتان فى القرن السادس عشر . وفى كلا القرنين يبدو أن نظاما مستقرا يأخذ فى التدهور من جراء فلسفات وعلوم نظام آخر . ففى القرن السادس عشر افسـحت نظريات بطليموس عن الكون وسيطرة المسيحية المجال الى الفردية ونظرية جديدة فى الكون وعلاقة الانسان به ، ولم يعد الانسان ذلك المخلوق الكامل ولا الارض مركـز الكون ، بل اصبحت الارض بمن عليها معزولة فى فضاء لا نهاية له ولا تربطها بباقى الكون اية رابطة . واخذ العلماء تدريجيا يبنون نظاما جديدا بدأ يأخذ شكله فى القرن الثامن عشر على اثر نظريات نيوتن فى التجاذب . وكان أساس هذا النظام الايمـان بالتقدم وكمال الانسان وظهـر الاعتماد المطلق على العقـل فى حل المشاكل الدينية والاجتماعية والفلسفية . وفى نهاية القرن التاسع عشر كان يبدو أن هـذا الحال

ازلى ، وكان العصر يوحى بالاستقرار والاستمرار . وفى العشر سنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى كان الرأى العام متفائلا ويؤمن بالتقدم والازدهار بالرغم من وجود بعض الأفكار التى كانت تعمل على تقويضه ومنها نظرية التطور لداروين وكذلك تنبأ ماركس ١٨١٨ ـ ١٨٨٣ بسيطرة الشعب والعمال وتدهور الارستقراطية البرجوازية وتحقق ما تنبأ به فى الثورة الروسية عام ١٩١٨ بينما كان فرويد يزيح الستار عن الغريزة ويثبت انها تتحكم فى تصرفاتنا . ونشر اينشتين فى ١٩٠٥ أولى نظرياته فى النسبية وتبعها فى عام ١٩١٥ بنظرية أخرى مكملة .

وقد أوضح أحد النقاد أن هذا التغير أثبت أن كلا من ماركس وفرويد يشيد بأهمية ما هو فى مرتبة أدنى ـ الجماهير عند ماركس والغرائز عند فرويد ـ وفى كلتا الحالتين أصبحت رموز ومقومات كل ما هو فى « مرتبة أعلى » ـ الارستقراطية ورأس المال والعقل ـ تظاهرا واقنعة وكان لا بد لهذه الظاهرة أن تفسح الطريق حتى تستطيع الجماهير على الصعيد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، والغرائز على الصعيد النفسى السيكلوجى أن تجد لنفسها مكانا وتعبر عن ارادتها .

وقد صورت القصة الحديثة هذين المذهبين العريضين وهذه التغيرات فى معتقدات هذه الفترة . وشجعت هذه الفلسفة الادباء على معارضة كل ما هو متفق عليه وتقليدى ، وأعطت الأديب والجمهور حرية خالية من كل قيد أو كبت . ونلاحظ تيارين مختلفين فى أدب هذه الفترة أحدهما سلبى والآخر ايجابى . وقد اتجه الأدباء السلبيون الى التهكم والسخرية اللاذعة ، ونقدوا وسخروا من التقاليد والعرف . وفى المجموعة الثانية استغل الاديب الحرية الممنوحة له فى خلق طرق عديدة فى التعبير وأصبح على ثقة من نفسه لكى يحمل على عاتقه واجب خلق مبادىء جديدة لتملأ الفراغ الذى خلفته المبادىء القديمة . واشتركت المجموعتان على السواء فى التمتع الوثنى بالحياة الذى كان يتفق والفردية الجديدة .

ولم يبق هناك شىء مقدس ، وهوت المثل العليا التى آمنوا بها الواحد بعد الآخر واكتسحتها الدماء التى أريقت فى ميادين القتال فى الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وأصبح العقل والمنطق حبلا رفيعا يسير عليه الانسان فوق هوة سحيقة تغلى بالغرائز والفوضى والمتناقضات . وبدأ الأدباء فى العشرينات يهاجمون كل ما كان ينبىء بمجتمع مستقر ، ولم تسلم الكنيسة من هجومهم أو التعليم أو السياسة أو التجارة أو العلاقات الجنسية وقيود المتطهرين . واتهمت البرجوازية بأنها هى المسئولة عن الحرب والدماء واستقبلت قصص هكسلى وافلين واو وميكل آلين بحماس لأنها تهاجم التقاليد وتسخر من الحرية الجنسية وكان تأثرهم بفرويد عظيما . وظهر التهكم والسخرية على الحرب فى القصص التى تعالجها ومنها «موت البطل » ، « وداعا للسلاح » ، « جزاء الجندى » وترجم لامارك « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » ومعظمها يعبر عن فتور الحماس بالحياة أو الفردية الفوضوية .

وانتهت هذه الفترة الثائرة فى أوائل الثلاثينات ، وانقلب هذا الاحساس راسا على عقب نتيجة للتغيرات السياسية والفوضى الاقتصادية بعد الحرب . وبدأ قصاصو الثلاثينات يفقدون المرح الوثنى وابتعدوا عن فلسفة اللذة الابيقورية والقيم الفردية والفريزة وبدأوا يهتمون بالدين والتصوف والفن والتجديد فى طرق التعبير او يحاولوا أن يجدوا فى الماركسية علاجا لامراض المجتمع واخذ نفوذ فرويد ـ الذى كان قويا فى العشرينات ـ يضعف الى حد ما .

وفى الثلاثينات تغير مكان الاديب فى المجتمع ، وبدأ الاهتمام به يفتر ، فقد كان هناك جيش من المتعطلين فى انجلترا ، وانتشرت الفاشية فى المانيا ، وكانت الحرب الاهلية فى اسبانيا تختمر . ووجد الاديب أن غلة حرفة الادب بدأت تقل وواجه مجتمعا أصبح فيه غير ذى بال . وكان أمامه طريقان : اما أن يضحى بتجربته الذاتية فى سبيل تيار الوعى السياسى ويساير الركب ويخضع عبقريته لمطالب الايدلوجية السياسية أو يحيد عن الطريق ويتجنب المجتمع والقوى المحيطة به ويعزل نفسه عزلا فى منفى يصنعه بنفسه ويحاول أن يبحث عن خلاص فى الدين أو الفلسفة او الفن أو التصوف .

وكان من الطبيعى أن ينضم الشبان منهم الى الركب السياسى ووجد كبار السن منهم ـ وكانوا قد تذوقوا الحرية المطلقة من قبل ـ الطريق وعرا وتجنبوا العناء والمشقة لانهم وجدوا أن الثلاثينات تفتقر الى روح الحرية السابقة والمثل العليا ، فالعلوم الانسانية لم تفلح ، والفوضى الخلقية كانت تهدد بتحطيم الحضارة ، والفردية كانت عاجزة عن صد تيار المجموع . وبدأت ثقتهم بالفلسفة المادية تتزعزع ونرى أصدق تمثيل لهذا التيار فى أعمال هكسلى مثلا جملة . فمن عام ١٩١٦ الى ١٩٢٨ بظهور « تقابل الألحان » Point Counterpoint كان التهكم والاحباط واضحان فى قصصه . وفى « تقابل الالحان » نجد الصراع بين العقل والفريزة ، وبين الفاشية والماركسية ، بين فلسفة لورنس الجنسية وفلسفة هكسلى العقلية . وبظهور « عالم جديد شجاع» ١٩٣٢ ندرك أن هكسلى قد بدأ يفقد الأمل فى فردوس ارضى لا يخلو من القيم الروحية . وتظهر قصته « ضرير فى غزة » Eyeless in Gaza فى عام١٩٣٦ ويظهر فيها حبه للسلام وسياسة عدم العنف والمقاومة السلبية كما يظهر فيها بوضوح ميله الى التصوف الذى يفصح عنه فى كتابه The Perennial Philosophy ١٩٤٤ .

وقد حاول الكتاب أن يصلوا ، كل بطريقته الخاصة ، الى فلسفة روحية أو فنية تسد الفراغ الذى خلفته الفلسفات القديمة . ونلاحظ ازدياد الاهتمام بالدين والقيم الروحية والفلسفة الهندية السلمية بعيدا عن نشاط الحروب والعنف . ويربط العشرينات بالثلاثينات فئة من الكتاب لم يهتموا بالحرب ولم تؤثر فيهم أحداث الفترة وهم الذين أدخلوا تعديلات وتجارب على فن القصة ومنهم جيمس جويس وفيرجينيا وولف وايريس ميردوك .

وقد وجدت حوادث تلك الفترة خير صدى لها فى القصة التى أثبتت مرونتها. واستطاعت القصة أن تمتص مادتها من مصادر مختلفة وفى العشرين سنة الاخيرة أظهرت تقدما ملحوظا نحو التعقيد والغموض وطغت الصنعة الفنية على الابتكار، والتحليل على التوفيق والانسجام، والتعقيد على البساطة، والفرد على المجموع، والعقل الباطنى والهذيان على العقل الواعى والمنطق، والرمز على الايضاح، والاشارة على الافصاح، واصبحت القصة خليطا عجيبا من «الحدوتة» ان وجدت، والتحليل النفسى والعلم والموسيقى والرسم. وهذه الظاهرة خطيرة وتهدد النثر القصصى الذى يعتبر فنا لسرد «الحدوته»، واصبحت «الحدوتة» نفسها غير مهمة وطغت طرق التعبير والسرد على الاهتمام بها. ولهذا قل عدد القصص التى تشد القارىء اليها مثل قصص ديكنز وثاكرى وفيلدنج وسكوت وجورج اليوت.

ويميز الفنون اليوم نوع من الخلط تميزت به العصور الوسطى وعقل الطفل، نوع من الفوضى و «البعثرة المنهجية» فى سبيل عرض المادة بطريقة حية. وربما امتدت جذور هذا الميل الى الاضطرابات النفسية التى يعانى منها الانسان فى العصر الحديث. ويرجع هذا الى النظريات الحديثة فى علم الفيزياء والرياضيات وعلم النفس وما كان لها من اثر فى القصة. وهذا الاتجاه فى معظم الفنون مرده الى الشعور بقصور العقل والمنطق.

ولقد استجابت القصة من زمن بعيد استجابة تامة للتيارات الحديثة فى المعرفة والفكر أكثر من استجابة الشعر أو المسرحية وهى كوثيقة اجتماعية او تاريخية أكثر قابلية لتلقى المؤثرات الخارجية وامتصاصها وتسجيلها بدقة واحساس وافاضة لا نجدها فى الشعر أو المسرحية، وتمكنت فى عصرنا هذا من تتبع التغيرات العلمية والسيكلوجية والاجتماعية وتشبعت بها.

وتعطى النظريات الجديدة القصة الحديثة طابعا معينا، والمصاء بالتى تقابلها القصة هى نفس المصاعب التى تقابلها فى عالمنا. ولكى نقدر القصة الحديثة ونتذوقها لا بد لنا من أن نلم بموضوعات شتى قد لا تبدو مرتبطة بعضها بالبعض الآخر، وفى الوقت نفسه لا بد أن يكون لدينا استعداد لتقبل التجديد والابتكار والابتداع مهما كان مجافيا للذوق السليم ومضادا للعقل والمنطق.

ولعل أكبر الصعوبات التى ستعترض القارىء الحديث الذى تعود على قراءة قصص جين اوستن وديكنز وثاكرى هى التى ستقابله عندما يبدأ فى قراءة القصة الحديثة ويجد نفسه مضطرا الى تغيير وجهة نظره كلية قبل أن ينتهى من قراءة الصفحة الاولى ويقابل القصاص الحديث ويتعرف عليه فى عالمه الخاص به. وسيجد أن ما وصل اليه فى قراءاته لديكنز مثلا لن يجديه فى تفهم مرامى جويس وفرجينيا وولف. وبدلا من القصة الطويلة بحجمها الكبير وتقديمها للشخوص بشكل منطقى

معقول وسرد منظم والتى قال عنها هنرى جيمس انها « محشوة بالتوافه » سيقابل تركيزاً شديداً وقفزات سريعة من فكرة الى فكرة لان القصص الحديث يهتم بانتقاء مادته أهتماما شديدا أو يستمدها من مصادر مختلفة بعضها خارج الزمان والمكان والنظام الاجتماعي . واضطر الاديب الى هذا التجديد والابتكار الفنى والابتداع بسبب زوال القيم الفنية الماضية . فهو يحاول احيانا أن يقلد الموسيقى فى فاعليتها فى التأثير على شعورنا بسهولة وبسرعة ، ويحاول أن يطوع الكلمات والجمل لتقوم بهذه العملية المعقدة التى تقوم بها الانغام والاصوات فى الموسيقى وهكذا يمكننا من رؤية التجربة والكون من حولنا بطريقة لم نألفها . ويحاول أن يقلد التصوير (Painting) احيانا حين يوقف أو يجمد الزمان ويعطينا صورا تظهر فيها الالوان والظلال بوضوح ويعرف هذا التكنيك فى القصة بالانطباعية Impressionism والى حد ما أصبحت مادة القصة ذهنية لا حسية ، واخذ القصصى يستثمر رؤاه كنماذج ، وحلت الافكار محل الشخوص وتميزت القصة بطابع الحرية فى التحدث عن الجنس بيولوجيا وسيكلوجيا ، وأخذت القصة تعالج الكلمات وكأنها عوالم صغيرة مشحونة بالدلالات والرموز والمعانى ، وطرحت القصة الاراء الفكتورية وتأثرت الى حد كبير بالاكتشافات الجديدة فى العلوم وعلم النفس التحليلى وقطعت صلتها بالماضى .

ويقول موباسان « ان القصص ليس غرضه أن يقص قصة ، أو يسلينا أو يثير شعورنا بل هدفه هو أن يجبرنا على أن نفكر ونفهم المغزى العميق الخفى للحوادث . وفنه لا يتجلى فى المؤثرات العاطفية أو فى جمال اللغة أو فى البداية المشوقة أو فى الصراع المؤثر ، بل تكمن قدرته فى حشد التفاصيل الدقيقة المتكررة التى ستعمل على ابراز المغزى الجوهرى فى عمله » . وقوله « ستعمل » يعنى أن مغزى القصة لن يتضح الا بعد الانتهاء من قراءتها بحرص وصبر وأناة ، حتى نستطيع نحن أن نساعد الاديب على استكمال الصورة المراد ايصالها الينا . ويظهر هذا النوع من الصنعة فى قصتى جيمس جويس « عوليس » ، « فينجانز ويك » بشكل ملحوظ . ولهذا لا نجد فى القصة فى العصر الحديث ذلك الحشو الزائد الذى كان يميز القصة المسلسلة فى العصر الفكتورى . وأهملت الشخوص وأصبح جريان الفكر وسيولته أو مايعرف بتيار الوعى يكونان العمود الفقرى فى أية قصة حديثة . واستعمل القصاصون فى ابراز هذه النزعة التجديدية طرقا سيكولوجية عديدة منها المونولوج الداخلى ، والمونولوج الصامت ، ورموز العقل الباطنى ، ودلالات رموز الأحلام ، وأحلام اليقظة « Conscious Reverie » والهذيان « Hallucination » التى يجلبها الاجهاد أو النعاس أو الخمر أو المخدرات . وأصبحت الكلمة هى الوحدة المهمة فى هذه الطريقة السيكولوجية فى التعبير ولها قدرة على اجتذاب صور الأحلام التى تحل محل الصور المرئية . ونفذ الاديب من « أبواب الحس الادراكى » The Doors of Perception (عنوان كتاب لألدوس هكسلى) الى متاهات العقل الباطن واللاشعور .

ويجب أن نعترف أن معظم الانتاج الادبي لم يكن من هذا الصنف الممتاز . ولم تؤثر التجارب الجديدة فى القصة فى جمهور القراء وأعرضوا عن قراءة الصعب والغامض منها ولكن هذه التكنيكات أثرت فى القصة بوجه عام وتحررت القصة وقد ساعدها العلم الحديث على ذلك ـ من القيود الزمانية والمكانية فى السرد واصبح الاديب حرا فى تشكيل مادته وصبها فى اطار يناسب السرد اللازمنى واللامكانى .

٢ ـ العلم الحديث والقصة :

كان القصاصون الواقعيون فيما مضى يعيشون على ارض صلبة فى وقت كانت فيه الحقيقة والواقع تحت سيطرة العلم المادى ، وكان الواقع خاضعا للبيئة والاحصائيات التنبؤية . ولم يكن هناك شىء غامض ـ فوق أو تحت العقل والادراك او الميكانيكية المادية ـ يمكنه أن يتدخل ليفسد هذا الجو المنظم الذى تسوده نظريات داروين ونيوتن . وفى القرن العشرين بدأت القصة التى كانت تتغنى بنظرية السبب والمسبب تتدهور لأن العلم الذى كانت تصنعه وتعتمد عليه أخذ فى التدهور . وأخذت علوم الرياضة البحتة والتغيرات السريعة مكان المادة الميكانيكية والبيولوجية . كذلك ذبلت الحتمية فى الفلسفة العلمية وحل محلها « حرية الارادة » فى الذرة والاحتمال الاحصائى ، وبهذا كف العالم عن اتخاذ صورة الآلة واصبح الكون فكرا ، واصبحت المادة موجة ، والموجة نوعا من الخيال . ويقول سير آرثر ادنجتون « لقد طاردنا المادة الصلبة من حالة السيولة المستمرة الى الذرة ، ومن الذرة الى الالكترون ، وهناك فقدنا أثرها » . وبدأ الزمان يعقد المكان وأصبح الفضاء يدور على نفسه . وباختصار تنازل علم الفيزياء عن مكانه ، اذا كان هناك مكان ، الى عالم الفيزياء الرياضى الذى يستطيع وحده أن ينظر الى الكون بطريقة علمية حديثة .

ومن جراء هذه النظريات أصبح عالم «زولا الواقعى الطبيعى وكأنه عالم قديم وقد مهد داروين الى حد ما لتقبل النظريات الحديثة حين قلل من أهمية الدور الذى يلعبه الانسان وجعله مجرد ذرة فى تاريخ البشرية الهائل الطويل ولم يعد الانسان أحسن المخلوقات أو أرقى التدبيات بل اصبح مخلوقا فى مرحلة انتقالية يؤدى دوره فى عملية التطور . ويحدثنا اليوم سير جوليان هكسلى عالم البيولوجيا المعاصر عن تطور الانسان فى المستقبل وكيف أن التطور القادم سيكون تطورا ذهنيا عقليا . ويتحسر د . هـ . لورنس على هذا الرأى لأنه يعتقد أن مصائب الانسان فى العصر الحديث ترجع الى أنه ينمو ويتطور من خصره الى أعلى بينما يترك ما دون الحزام كما هو أى يعنى بالعقل على حساب الجسد .

وبعد داروين ونيوتن يأتى ماكس بلانك (١٨٥٨ ـ ١٩٤٧) ويشكك فى نظرية العلة والمعلول التى يرتكز عليها أى تفسير منطقى مادى ويؤكد روح عدم الاستمرار

واللامعقول فى علم الفيزياء الحديث . ووجد العلم الحديث ـ الذى بدأ بجاليليو والذى كان يحاول تفسير « كيفية » حدوث الاشياء بدلا من تفسير أرسطو لماهية الشىء وسببه ـ انه من الصعب تفسير «الكيفية» بطريقة اكيدة . واتساع دائرة العلم اللامرئى واللامعروف فى غاية الاهمية بالنسبة لدراسة القصة الحديثة لأن العلم الحديث يرى أن أسرار الطبيعة والكون والمادة تكمن فيما وراء ادراك الانسان المحبوس فى سجن حواسه .

وساعدت نظريات بلانك فى «الكوانتا» على «تفتيت» المادة وانكار الاستمرار واصنحت «الكوانتا» وهى أساس مادة الكون وحدة من الطاقة .

وفى القصة والأدب عموما ، اصبحت فتات المادة أو قطعها اللامرئية أو ما أسماه «بلانك» بالكوانتا هى فتات الشخوص وخلجات النفس وشطحات الفكر والغرائز والمناظر والحوادث والحياة نفسها ، فلا استقرار فيها ولا تجانس ولا ترابط ولا شكل معين . فالحقيقة كما يراها العلم مفتتة الى قطع صغيرة من الذرات والذرات الى عوالم صغيرة من الالكترونات والبروتونات والنيوترونات وكلها تسبح فى الخلاء . وفى الأدب اصبح من العسير على البطل فى قصة أن يتحكم فى عالمه أو فى نفسه لأن الانسان ادرك فجاة انه ـ حتى بوسائله العلمية الحديثة ـ لا زال يسير ويتحرك ويعيش فى عالم مظلم ساكن وبوسائل لا عقلية فى بعض الأحيان . وكيف يتحكم الانسان فى تصرفاته وهو تحت رحمة تكوينه الجسدى وجهازه العصبى وافرازات غدده ؟ ويقول أحد أبطال الدوس هكسلى : « لقد قدر لى أن أتصرف هكذا بسبب تكوينى الجسدى » فالانسان اذن مخلوق « تعذبه اللذة والألم ، تحت رحمة جلده وافرازات غدده ، تحت رحمة تلك الخيوط الرفيعة من الاعصاب » .

ولقد ادرك اينشتين أهمية نظرية «بلانك» وقال بان جميع أشكال الطاقة المشعة بما فيها الضوء والحرارة واشعة اكس تسير فى الفضاء فى كميات متقطعة . واصبح الانسان غير واثق من ماهية الضوء التى كان يظن أنه يعرفها جيدا وأخذ أينشتين يتحدث عن ذرات الضوء وجسيماته وساعدت نظريته على تحطيم ثقة الانسان بنفسه بتقويضها ايمانه بالسببية والحتمية ولهذا نجد فى أدب القرن العشرين ما هو متيافيزيقى ، لا عقلى ، وصوفى . ونعود ثانيا الى عالم الظلال عند أفلاطون فسير آرثر ادنجتون وسير جيمس جينز يعتبران ـ كل منهما من زاوية مختلفة ـ العالم وكأنه ظاهرة عقلية وليس ظاهرة مادية . والعالم السوفيتى أوسنسكى يبنى نظريته على الحدس وليس على المنطق . ولا يمكن للعلم الحديث أن يراقب الكترونا بمفرده ولا يمكننا التنبؤ بتصرفه من تجربة لأخرى . ولهذا يضطر العالم الى الالتجاء لوسائل تمكنه من دراسة مجموعة هائلة من الألكترونات أو الذرات . ويقول ريتشارد ف . همفريز وروبرت بيرنجر فى كتابهما « المبادىء الأساسية للفيزياء الذرية » .

« ان الذرة بنواتها والالكتروناتها من الصغر بحيث لا ترى . وأصغر مجموعة من الذرات أمكن رصدها الى الآن (بواسطة الميكروسكوب الالكترونى) تحتوى على بضع مئات الآلاف من الذرات ومع ذلك ، فمجرد هذا القول يدل على أننا نعلم أن هناك ذرات ـ وقد عددناها بالفعل » .

والطريقة التى يصل بها العالم الى نتائجه هى طريقة « الاحتمال الاحصائى » وهى تشبه الى حد ما الرسوم البيانية التى تستعملها شركات التامين على الحياة .

ولم ينكر العلم الحديث أهمية الدين لأنه اذا كانت الالكترونات حرة الارادة والمادة ما هى الا « فكر » فلا أقل من أن يكون هناك مكان للملائكة والدين والتصوف فى هذا الكون المتداعى . وشجعت الفيزياء الحديثة الأديب على أن يكون ذاتى النزعة . واعانته نظرية النسبية على هذا لأن كل شىء نسبى بالنسبة للانسان الذى يقوم باجراء التجربة . وشجع علم النفس التحليلى والنظريات الجديدة فى الفيزياء الأديب على أن يعتبر الفكر أساس الكون والعالم ما هو الا « فكرة » . وأصبح الوعى نفسه غير مستمر أو منطقى تماما مثل « الكوانتا » الغير مستمرة فى الفيزياء . وربما لا نجد سلوك الشخوص فى القصص الحديثة غير معقول اذا أخذنا فى الاعتبار أن تصرف الألكترون نفسه غير معقول .

ولم تؤثر هذه النظريات الحديثة فى القصة فقط بل تعدتها الى الشعر والنقد حين يركز «امبســـون » Empson كل همه فى النقد على الكلمات وكأنها «كوانتا» متغيرة . وهكذا نرى تشابها بين عدم الاستقرار فى الالكترونات وتغيرها المستمر وبين عدم ثبات الشخوص أو الافكار على حال واحد . واذا كان العالم «نيلز بور» يفضل هذا التفسير للمادة على ذاك لأن أحدهما «تفسير أنيق» فلا غرو فى أن علم الجماليات قد اقترب من علم الفيزياء .

ومن أهم نتائج نظرية النسبية القول بأن الانسان لم يعد فى استطاعته أن «يرى» الحقيقة الموضوعية بوضوح تام لأنه فى محاولته مراقبة المادة بأجهزةخاصة تعوضه عن ضعف حواسه يشوهها ويشوه الحقيقة التى يحاول الكشف عنهـا . وأصبح العالم يرتكز على نظام رياضى بحت يرمز الى الاشياء التى لايمكن ملاحظتها او رؤيتها . وبدأ الانسان ينظر الى الاشياء التى كان يعتبرها ثابتة وأزلية نظـرة مختلفة تحكمها علاقاتها بأشياء أخرى . وأصبحت الكلمة المهمة هى « العلاقة » فى الفيزياء وفى الأدب . وتأكدت هذه النظـرية عندما فقد الانســان ثقته بحواسه ، فالعلاقة بين الاشياء والمناظر والمواقف والرموز والشخوص وتصرفاتهم تفسر لنـا أعمال هكسلى وفيرجينيا وولف وجويس وفورستر . ومع مولد « العلاقة » كف

العـالم والاديب عن البحث عن « المطلق » فليس هناك شيء رديء أو حسن ، خير أو شر ، مطلق وأصبحت كل الأشياء نسبية . ولم يعد من المعقول أن نرى بطلا رومانتيكيا فى القصة يطوع عالمه ويؤثر فيه وفى حوادثه بارادته وأصبحت الارادة نفسها معرضـــــة للهجوم والنقد ، لأنه اذا كانت حواس الانســـان غير قادرة على اكسابه المقدرة على ملاحظة الاشياء والظواهر الطبيعية ، فكيف اذن سيتمـكن من السيطرة على نفسه ؟ ولهـــذا فمعظم شخوص القصص الحديثة غير متكاملة مثل ستيفن فى عوليس لجيمس جويس ونوسترومو فى «نوسترومو» لكونراد ومسز رامزاى فى «الى الفنار» لفرجينيا وولف وسبتيموس وارن سميث فى قصتها «مسز دالواى » وفيليب كوارلز فى «تقابل الألحان » لهكسلى .

وهكذا تداعى عالم نيوتن الذى كان يتـكون من اجسام مميزة صـلبة مادية لا تتأثر بحوادث التاريخ أو موقعها ، وبدأ يتغير تغيرا جذريا بظهور الآراء الجـديدة فى المادة والطاقة الزمان والمكان ، تلك التغيرات التى بدأت بفاراداى ومايو فى كلارك ماكسويل وليلارد وارنست ماك حتى وصلت الى بلانك واينشتين . واصبحت المادة ـ معقل الماديين ـ سواء اذا كانت صلبة أو غازية او سائلة تغاير ادراكهم لماهية المـادة . واصبحت المادة سواء فى حالتها الخام او فى حالة منظمة تفسر على أنها نوع من الطاقة فى حالة سكون واتزان الى حد ما .

ولهذا تلقف الأدباء النتائج العلمية الحديثة التى تؤكد الذاتية ـ لان العـلم ما هو الا صوغ عن طبيعة الكون قد يستبعد عقب ملاحظات أوسع ـ للدفاع عن الذاتية والشعور والاحساس الفردى بالحقيقة ، واغتنموا فرصــة قصور العقـل والمنطق ووقوعهما فى الخطأ . فالعالم اذن لا معقول . ولكن هذه النظريات الحديثة شر لابد منه ، فكيف نستطيع أن نعرف الحقيقة اذا لم نحاول أن نتصـــور شبحها وظلها . وبدأ الانسان يتساءل : أنتبع عقلنا العاجز المغامر أم الهامنا العميق الغامض أم الحكم الغشيم لأعيننا وآذاننا وأيدينا التى تتحسس ؟ وأخذت أعين الأدباء تبصر فى الظلام الحالك المحيط بهم وأخذوا يقتربون من بؤرة النور لكى يجلسوا فى كهف الفراغ ويصبحوا من أصحاب المعارف الى الأبد ومنهم اليوت وازرا باوند فى الشعر وهكسلى وجويس وفرجينيا وولف وفورستر و د.ه. لورنس فى القصة . وواجهوا اللغز بشجاعة واصبح فن الحياة عندهم اسمى من حياة الفن .

وعندما يكف اللسان عن جميع المناقشات ويتحـول الفكر وينظـر فى وجل وخوف الى «الكون الغامض» The Mysterious Universe (عنوان كتاب لسير جيمس جينز) يصبح الأدب لاهوتا وتصوفا وحينئذ لا يدلى العارف برأى قاطع بل يشير باصبع نحو الهدف المراد تحقيقه أو نحو الحقيقة العارية التى لا يمـكن التعبير عنها بكلمات لانها خارج الزمان والمكان . وربما ، ونحن نقرأ له ، نركز أعيننا

على الأصبع الذى يشير ويخفى علينا المغزى المشار اليه . واذا كان السكوت من ذهب فهذه هى ادنى مراتب التصوف ولا بد للأديب من ان يكتب ، ولهذا يتحدث الينا عن تجربته بالأحاجى والألغاز وأحيانا يتحدث عنها حديثا متواضعا يشبه لغو البلهاء اوكلام الاطفال الساذج الغير منطقى ، وحديثه البسيط هذا يتناسب فى هذه الحالة مع جهلنا البشرى . وأصبح انتاج القصص فى القرن العشرين يتعلق بمشكلة الخلود والموت والحياة والمعرفة والحقيقة ومكان العلم الحديث وتدهور الدين والأخلاق وعدم الثقة والخوف ، لأن العالم مهدد بالفنا . والاستقرار شىء صعب المنال والحياة ليست شيئا منظما أنيقا ولكنها ، كما تقول فيرجينيا وولف ، هالة من النور والظلام فى وقت واحد ، تتدفق بسرعة مذهلة وتفاجىء جميع القوانين والاشكال بما لا نتوقعه . والحقيقة ليست ما نراه او نشمه أو نسمعه وأصبح كل شىء فى القصة نسبى، فالحياة فيها القبيح والمليح والحلو والمر ، اما فى الواقع فليس هناك سوى الذرات والخواء . والحياة ليست لها حرارة أو برودة ، لا لون لها وصامتة وساكنة واصبح « الانسان مقياس الاشياء جميعا » كما يقول بروتاجوراس فى محاورات افلاطون .

ومن اثر النظريات الحديثة فى العلم ظهور احساس جديد بماهية الزمان والمكان ، واصبح الزمان شعورنا بالقبل والبعد ، واثرت نظرية النسبية فى الزمان وخرج لنا ما يعرف بنسبية الزمان . فاليوم الذى يزخر بالتجارب ليبدو أطول من عام خال من الذكرى ، ويتضاعف الزمن تحت مبضع الجراح ، ويمر بسرعة فى لحظات السرور واللذة . ونجد احسن تعبير عن هذا الاحساس بنسبية الزمان فى عبارة كتبها جويس فى قصته « عوليس » وانقلها للقارىء كما هى :

But tomorrow is a new day will be. Past was is today. What now is will then tomorrow as now was be past yester.

ونجد اثر هذه النظرية فى القصة الحديثة ، ففى قصص فيرجينيا وولف يتضاءل الاحساس بالزمن الميكانيكى الذى تحكمه عقارب الساعة او حركات البندول ويحل محله زمن ذاتى لا يتقيد بدوران الارض حول الشمس . وفى قصة «عوليس» لجيمس جويس نقرا عن اطول يوم فى تاريخ الادب فيوم مستر بلوم فى القصة يغطى ١٨ ساعة فقط ولكنه يوم ملىء بالحوادث وكأنه ١٨ عاما . وحكى نيكولاس فلاماريون الفلكى الفرنسى (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥) قصة الرجل الذى رأى حوادث الثورة الفرنسية تتابع مقلوبة على عكس نظامها فى الزمان لانه كان يبتعد عن الارض بسرعة تفوق سرعة الضوء . وحكى هـ.ج. ويلز مغامرات الانسان فى المستقبل لركوبه «آلة الزمن» The Time Machine وتخيل هكسلى فى قصته « لابد للزمن من أن يقف » مايمكن حدوثه اذا فقد الانسان احساسه كلية بالزمن .

والمكان يغير الزمان كما فى رحلة فى طائرة وكما يحدث فى قصة « حول العالم فى ثمانين يوما » لباسبارتو ورواد الفضاء فى عصرنا . والزمان يغير المكان ، فالنجم

الذى نراه فى السماء ، كما يقول برتراند رسل ، ليس هناك لانه تحرك من مكانه منذ ارسل لنا الضوء الذى نراه «الآن» . فالزمان والمكان اذن من الامور المعقدة ، فالزمان احساس بالقبل والبعد وشعور بالتدفق « الآن » وهو ذاتى ، والمكان باعتباره الاحساس بالمسافة أو بقياسها هو فى شطر منه ذاتى مادام الوضع والمسافة نسبيين لنا . ومن الكتب الهامة التى تعالج الزمن كتاب ج.و.دون J.W. Dunne وعنوانه An Experiment with Time

وهكذا تبدو الحياة وكانها شىء يتغير ويجرى وينبض بالحياة بدلا من جسم هائل مادى صلد . ومن نظرية عدم الثبات فى المادة والتى تقول انه لا يمكننا ملاحظة الكترون واحد بمفرده أخذ الاديب يعبر عن هذا القلق فى المادة وفى الشخوص باستعمال تيار الوعى فى قصصه . وكما تقول فيرجينيا وولف فى مقال لها عن القصة الحديثة « لا بد للقصة من أن تسجل الافكار التى تشبه الذرات وهى تتساقط الواحدة تلو الاخرى على العقل » . وبتفتيت اللغة والمفردات والجمل حاول الاديب أن يعبر عن احساسه بالحياة وكانها تتابع ، لا سببى للانطباعات والاحساسات والتى نستطيع ان نعرف طريقها واتجاهها وما تشير اليه بعد ملاحظتنا لعدد كبير منها مع استحالة معرفة اتجاهه او هدفها من دراسة الذرات التى تتكون منها تماما كما فى علم الفيزياء ، ومن خلال هذه المتاهات يتضح لنا طريقنا الى المعرفة .

ومن مبدأ عدم الاستقرار وعدم القدرة على التنبؤ نجد ظاهرة جديدة فى القصة فى القرن العشرين ، فقد خلق عدم الاستقرار فى المادة عدم استقرار مماثل فى العلاقات الانسانية وفى المجتمع . ولهذا لا يعبر القصاص الحديث نهاية القصة اى اهتمام ، فبينما نرى معظم القصص فى الماضى تنتهى بالزواج ، نجد ان القصة الحديثة تنتهى اما بالطلاق او الانتحار او تبدأ بمشاكل الزواج والحياة الفردية والعائلية . واتخذت القصة شكل الدائرة تماما كشكل الفضاء الذى يسير فيه الضوء فى خط منحنى ، نفتحها حيث نريد ونقرأ حتى نصل الى آخر صفحة فيها ونعود الى اولها ونقرأ حتى نصل الى نقطة البداية واحسن تعبير عن هذا التكنيك يظهر فى قصة جويس الاخيرة « فينيجانز ويك » Finnigans Wake

وكما يقول ماثيو آرنولد نحن « نهيم بين عالمين ، احدهما ميت / والآخر ليس فى استطاعته أن يولد » .

٣ ـ علم النفس والقصة :

وبينما كانت نظرية النسبية والكم تشكك فى المعتقدات السابقة ، أخذ فرويد ويونج Jung يغوصان فى أغوار النفس البشرية ويشيران الى العلاقة بين الانسان الناضج البالغ والطفل ، وبين الانسان المتحضر والانسان البدائى ، وأصبح لعلم الانثربولوجيا فائدة كبيرة وخاصة بعد ظهور كتاب « الغصن الذهبى »

The Golden Bough لســير جيمس فريزر – فى عام ١٩٢٢ . وقد كان فرويد اقرب للأدب من اينشتين لان نظرياته عن الجنس والسيكوباثولوجى أعطت الادب وسيلة لاكتشاف تجارب جديدة . ويقول فرويد ان تحت غطاء العقل الواعى مستنقع تنمو فيه الدوافع اللاعقلية وجذورها فى الجنس والغريزة وسلطة الوالدين والتوقف والتسلط والأحباط . وكانت بعض مؤلفات فرويد قد ترجمت الى الانجليزية قبل الحرب العالمية الاولى وكان فى استطاعة قصاصى هذه الفترة كما يقول أحد النقـاد « أن يجتازوا امتحانا فى مادة فرويد فى علم النفس بتفوق » . وقد أثرت مادة فرويد ويونج فى تكنيك القصة وموضوعها واكتشف الأدباء عن طريق مؤلفاتهم أن حيـاة الانسان الواعية ماهى الا جزء ضئيل من حياة الفرد ، وان العقل ليس بالمكان المنظم الذى نظنه . ويصور هكسـلى هذا الاحساس بقـوله ان للانسان خمس أو ست «أنفس» «تظهر واحدة منها فقط كجزء من جبل الثلج الذى يطفو على سطح الماء ، والباقى يظل مغمورا » . وهكذا لم يعد العقل مكانا منظما لتصنيف الافكار وابتداعها بل مكان مظلم يتكون من عدة طوابق بعضها فوق بعض وله « بدروم » معتم وأقبية مظلمة تزخر بالمتناقضات والخرافات ويحتفظ فيها الانسان بأشلاء من التجـارب الماضية تماما كما نضع الاثاث القديم فى «البدروم» .

وعلى باب هــذا « البدروم » حارس قد يغفو من آن لآخر فتتسلل مخلوقات البدروم الغريبة زاحفة الى الادوار العليا وتذهل سكانها ، ولا يسكن هذه الدار شخص واحد بل أسرة تتكون من عدة أفراد وأقلها عددا من كانت تتكون من «دكتور جيكل ومستر هايد» . ويحاول العقل الواعى وهو رب هذه الأسرة ان يسيطر على باقى افرادها ويوفق فيما بينهم ، ولكنه يفشل أحيانا ويحدث هرج ومرج وتتداعى الطوابق وتختلط «بالبدروم» ويؤدى هذا الى الجنون .

واخطر من هذا فقد أصبح الجنس يلعب دورا هاما فى حياة الانسان وشـجع هذا الاحســاس بأهميــة الجنس الأدباء على المضى فى الكتــابة عن الجنس ووصف الامراض الجنسية والنفسية دون حياء . وأدى هذا الى ظهــور الاعترافات ونشر المذكرات ، وما كتب لورنس الا نوع من الاعترافات لهذا يقول لورنس « ان نشر عمل أدبى تعرية للجسد والالقاء بشىء رقيق حساس الى البغال والقرود والكلاب » .

وقد مهدت نظريات «لوك» فى العقل والذاكـرة فى نهاية القــرن السابع عشر لنظريات فرويد ونرى «لورنس ستيرن» الآن وكأنه قصاص حديث . واصبح الفكر فى القرن العشرين لا يسيل من العقل بطريقة ميكانيكية مادية كما يفرز الكبد المرارة، ولكنه يسيل بطريقة غير منظمة لا منطقية ، وله سيولة وجريان يخلوان من التسلسل

المنطقي كما لا يصدر الفكر من العقل في جمل مستقيمة وعبارات منظمة . وما نراه في القصة الحديثة هو المونولوج الداخلي الصامت وهو تسجيل - ولا نقول سرداً - للافكار التي لا تنطق بها الشخوص تسجيلا عفويا حيثما اتفق بطريقة تداعي المعاني الحر في العقل . ويمكن حصر أساليب استعمال علم النفس في القصة على النحو التالي : -

١ - قطع الحديث العرضي من آن لآخر بين الشخوص أو بتر المواقف أوالوصف في منتصفها لافساح المجال لفكرة أو خاطر يثيره صوت أو منظر أو كلمة أو صورة أو رائحة .

٢ - عدم الاهتمام باعطاء صورة كاملة لموقف معين أو تتبع الحوادث الى نهايتها المنطقية وابراز العلاقة بين السبب والمسبب .

٣ - تواتر وتكرار الافكار والخواطر والكلمات الرمزية وازدواج الفكرة الرئيسية أو الشخوص أو الكلمات أو المقاطع .

٤ - ظهور نوع من الغناء الشعري الذي ينتج عن استعمال دقيق للكلمات والعبارات من أجل أثرها الموسيقي ومعناها وما تلقيه من دلالات علىمواقف وكلمات أخرى وما تثيره في النفس من ذكريات .

٥ - انطباعية يساعد فيها تكرار الاحساسات ومدلولها وتسجيلها على خلق جو معين لا يظهر للأديب فيه أثر ويظل خارجه طول الوقت .

٦ - عدم الاكتراث بالربط المنطقي والتمعن الذهني ، وهو نوع من اللامعقولية لان العقل يعجز عن أن يعلل لتصرفات الانسان وتداعي الخراطر .

٧ - يظهر التعقيد والتعدد وكأنهما توأمان يلازمان الرجل العاطفي لا الرجل المنطقي .

٨ - ظهور الهذيان واللغو ومنطق الطفل أحيانا دون تحضير أو تحذير من الكاتب .

٩ - عدم التقيد بوحدتي الزمان والمكان وتلاشيهما أحيانا لأنهما ظاهرتان ذاتيتان .

وكثير من هذه الظواهر جاء عن طريق فرويد والباقي عن طريق برجسون وفلسفته اللامادية التي أثرت في «بروست» و «جيد» وجماعة القصاصين الانجليز.

وقد أكمل «برجسون» عمل علماء النفس في محاولته لهدم الفكرة المادية للعالم، ونظرته الى الزمان لها أهميتها في القصة الحديثة ويظهر أثرها في «نوسترومو» لونراد و « الامواج » و « مسز دالواي » « والى الفنار » لفرجينيا وولف

و«عوليس» و «صورة الفنان» لجيمس جويس و «تقابل الالحان» و «ضرير فى غزة» و «لابد للزمن من وقفة» لألدوس هكسلي .

ويبدو لنا أن سيولة الزمان وذوبانه لم تكن من اكتشاف السيرياليين وحدهم اذ نرى أثر نظرية «برجسون» فى عجزنا عن قياس التجربة الذاتية وتفسير لحظات من الوعى عن طريق ذكريات يصعب تفسيرها، واستحالة التحليل الا عن طريق التشويه والتغيير فى التجربة ذاتها تماما كما فى علم الفيزياء الحديث . وكل هذه الآراء تضمنها فلسفة برجسون التى ساعدت على ظهور نظرية جديدة فى الفن القصصى واضافت عنصرا آخر ساعد على التجريب فى التكنيك القصصى .

وبالاضافة الى هذا فقد بينت مؤلفات فرويد أن للرمز أو الصورة عدة معان فالرمز يحمل فى طياته أحيانا عكس ما نظنه ويتفرع فى الاحلام الى عدة دلالات . وقد أنكر «يونج» تفسير فرويد للجنس على أنه الدافع السيكولوجي الرئيسى فى الحضارة ووضع نظريته فى «اللاوعى الجمعى» للجنس البشرى وبين ان هذا «اللاوعى الجمعى» ماهو الا مستودعا، يمكن اعتباره ارثا يرثه كل من يولد فى هذه الحضارة . ويمكننا أن نصل الى جذور الامراض العصبية والاساطير والرموز عن طريق هذا «اللاوعى الجمعى» ، ولهذا يصبح الانسان المتحضر على صلة وثيقة بالانسان البدائى واصبح من الممكن للقصصى أو الشاعر أن يربط بين التجربة «الآنية» لشخوصه وبين هذه الدوافع الخفية الغامضة فى الماضى البعيد . واصبح من الممكن عن طريق الاسطورة أن يربط الاديب المواقف والشخوص بعضها ببعض فى شكل جديد ويعلق عليها . واحسن مثال لهذا النوع من الاستفادة من الاسطورة ما نجده فى «عوليس» لجيمس جويس ، فقد استعار شكل وحوادث ملحمة هومر الأوديه وأقام عليها حوادث قصته وأصبحت رحلة مستر بلوم فى أنحاء دبلن وبجولاته فى يومه الطويل بمثابة مغامرات لعوليس حديثا ، وتجول «ستيفن» فى القصة يقابله بحث «تيليماكوس» عن والده فى الملحمة الاغريقية ، وحلت مسز بلوم محل «بينيلوبى» . واستطاع عدد كبير من الادباء أن يتناولوا بالبحث جذور الانسان الحديث بعد دراسة «يونج» وسير جيمس فريزر ويظهر الاهتمام بالاساطير والمضارات القديمة والانثربولوجيا جليا فى قصص «د. ه. لورنس» وفى قصص فورستر وجيمس جويس . وهكذا تغير معنى المذهب الطبيعى فى الادب فى القرن العشرين ولم يعد يمت بصلة الى أدب (السبب والمسبب) بل تعداه الى الاهتمام بالاساطير والانسان البدائى والرموز .

والزمان فى عالم «برجسون» خليط عجيب فى حركة دائمة وسيولة ، يتغير ويراوغ دائما وتسبح فيه الاشياء والحوادث غير مميزة . والزمان فوق كل هذا لايمكن تحديده بلحظات منفصلة ، والسيطرة عليه ـ كما حاول البعض وكما نحاول يوميا ـ أمر صعب لانها محاولة لقياس مالايمكن قياسه .

ولهذا نستعيض عن الزمان بالمكان ويحدد مكان الارض بالنسبة للشمس لنا الزمان ، أو عقارب الساعة على دائرة مقسمة الى اثنى عشر جزءا ، ولكن عن طريق الزمن السيكولوجي أو الاستمرار Duration انكر «برجسون» الايمان بالحقيقة السطحية للحياة وأكد وجود زمن لاعمل لعقارب الساعة فيه وطرق قياسه عقلية وفي سيولة الزمان عند برجسون يسبح الانسان في نهر البواعث والمحركات والدوافع اللامعقولة والتي تتكون منها الحياة • ويصبح الانسان داخل الشيء نفسه عن طريق البصيرة أو الحدس ـ وهي عملية لاعقلية صوفية ـ بدلا من تأمل الشيء من الخارج أو من نافذة ، وهي عملية عقلية منطقية • وكان اعتقاده أن الحقيقة ماهي الا عالم متغير يتكون من عناصر يرتبط بعضها ببعض ولا يمكن للعقل الامساك بها •

وهذه الطريقة اللاميكانيكية في التفكير جعلت الزمان بما فيه الماضي والحاضر يتركز في «آنية واحدة مركزة» والمكان يتركز في «الهنا» «The Here» وقد راقت هذه النظرية للأدباء لانها ترتكز كعلم الفيزياء الحديث على نسبية الحقائق واصبحت نظريته في الزمان تشير الى نسبية طبيعة التجربة الانسانية • ولهذا نجد معظم قصاصي القرن العشرين ينكرون الطلقات في العلاقات الانسانية ، وطريقتهم المفككة في العرض واصرارهم على تقلب الزمان وتغيره تعكس الايمان بعدم قيمة التجربة والتاريخ المطلقة ، واصبحت القصة خليطا من الماضي والحاضر ولا تستطيع الساعة ضبطها ، ولكن الفن يستطيع أن يعكسها ، فالفن هو الذي يستطيع أن «يجمد» الزمان في «الانية» ويوقف سيولته ويحتويه بماضيه وحاضره في اطار متماسك•• وهنا يبدو أثر الرسم والفن في القصة التي تحاول أن تقلده بتجميدها الزمان أحيانا ولدينا في المذهب التعبيري أكبر دليل على هذا •

وبدأ كتاب القصة يستخدمون فكرة الزمان الجديدة على غرار الطريقة التي يستعملها المحلل النفسي • وفيها يحلل التجارب والذكريات على أنها دليل على الأفعال الحاضرة وقرب برجسون بين العلم الحديث وعلم النفس عندما قال ان العقل عندما يحاول ان يفسر احدى وجوه الحقيقة فهو يشوهها لكي تستقيم مع تفسير ميكانيكي منطقي يقبله ، ولكي نحصل على صورة كاملة للحقيقة فهناك ملكة أخرى أو حاسة سادسة وهي البصيرة أو الحدس • وكما أن العقل يتفاعل ويتعامل مع المادة فالبصيرة أو الحدس يتعامل مع اللامادي • وهذه البصيرة غريزية وحيوية ، ولهذا عملت فلسفة برجسون على اضعاف الفلسفة المادية والمذهب التجريبي اللذان أعطيا للطبيعيين والواقعيين أمثال زولا سلاحا قويا ، وتضافرت نظريات برجسون والرمزيين على خلق جو جديد في القصة •

٤ ـ مشكلة التوصيل وعزلة الفنان :

وعندما تحطم العالم القديم بما فيه من عقائد وتقدم ومادية كان لابد للأديب من خلق وبناء عالم جديد ولهذا نرى عقد أوديب في قصص د • هـ • لورنس أو في البحث عن والد كما في «عوليس» لجيمس جويس و «الامواج» و «الى الفنار»

لفيرجينيا ولف أو البحث عن آلهة جديدة كما فى (قوس قزح) عند د · هـ · لورنس و «نوسترومو» لكونراد و «عالم جديد شجاع» و «ضرير فى غزه» لألدوس هكسلى او فلسفة جديدة كما فى «ضرير فى غزه» لهكسلى أو «رحلة الى الهنـــد» لفورستر أو فى تفحص النفس وتأمل الذات كما فى «مسز دالواى» لفيرجينيا وولف و «هواردز اند» لفورستر و «تقابل الالحان» و «لابد للزمن من وقفة» لألدوس هكسلى وهكذا يحاول الفنان أن يخلق عالما عمل هو على تحطيمه ، وأصبح البطل فى بعض القصص تافها ، يقاسى من اعياء الرذيلة والاخطاء وبهذا لايصبح «بطلا» ، ومع ذلك فنحن نشفق عليه لانه يذكرنا بانفسنا ويضعفنا ·

وقد وضع علم النفس عراقيل فى سبيل القصص الذى يحاول أن يعتبر الادراك او الشعور وكأنه يتحرك فى خط زمانى تاريخى مستقيم يجرى من نقطة الى نقطة اخرى واوحى للأديب بان الادراك له من السيولة مايجعله يعمل على مستويات مختلفة فى وقت واحد كما فى الموسيقى · وحينئذ يبدو سرد الحوادث المتسلل المنطقى فى خط واحد مستقيم وعرض الافكار فى اطار واقعى منظم وكأنه مخالف لواقع التفكير السليم وطبيعة الفكر الانسانى · وكما يقول هكسلى « **ان الموتى وحدهم هم الذين يتصرفون على نسق واحد ثابت** » فالشخوص فى القصة كما فى الحياة نفسها تتكيف أفعالهم وتصرفاتهم بما مروا به من تجارب فى الماضى ، والوقت الحاضر ما هو الا تجريد غير حقيقى ، فليس هناك سوى ذلك « الفيض » المستمر لما حدث والذى يصب فيما سيحدث فى المستقبل · والادراك ما هو الا خليط مستمر وتذكر أيام وتجارب خلت · والزمان ليس زمنا ميكانيكيا تحدده عقارب ساعة أو حركات بندول ولكنه دوام واستمرار وليس سلسلة من المواقف الزمنية المنفصلة · فما نحن الا ذكرياتنا وما نعيش الا بقدر ما نعى من ذكريات وتجارب ، ولكى يمكننا أن نصف أنفسنا بصدق فى اى لحظة من لحظات حياتنا فيجب علينا أن نقول كل شىء عن ماضينا · والشخصية فى هذه الحالة لا تعنى مجرد النظر الى ما خلفناه وراء ظهورنا ولكنها تصبح جزءا لا يتجزأ من ادراكنا لواقعنا وحاضرنا وشخصيتنا وحافزا لمستقبلنا · واذا كان الفرد لا يتغير عقليا بهذه الطريقة فهو فى تغير وسيولة من الناحية الجسدية ، فأنسجتنا وخلايا الجسم تموت وتبنى نفسها وتتقدم فى السن مع كل زفرة ، أى اننا دائما فى حالة تغير مستمرة · وتقول فيرجينيا وولف فى أحد محاضراتها :

« ما الذى نعنيه بكلمة « الحقيقة » ؟ يبدو أن الكلمة تعنى شيئا لا يستقر على حال ، شيئا لايمكننا الاعتماد عليه ، شيئا يمكننا أن نجده الآن فى طريق مترب ، وأحيانا فى ورقة من جريدة ملقاة فى شارع ، وأحيانا فى زهرة فى الشمس ، وأحيانا تضىء الطريق لمجموعة من الناس فى حجرة وأحيانا تضفى مغزى على قول عابر » ·

ويقول هكسلي في وصف سيولة الفكر ·

« يوجد معتوه في مكان ما في عقل الانسان يلتقط مجموعة من الصور ثم يوزعها اعتباطا ، ثم يلتقطها مرة أخرى ويوزعها في نظام آخر ، هكذا ، الى ما لا نهاية · بدون تسلسل زمني · فهذا الأبله لا يتذكر أى فارق بين القبل والبعد ··· ومن ذا الذى سيقرر أى صور يعطيها وأى صور يستبقيها ؟ حيوان شهوانى خائف كما يقول أتباع «فرويد» ·· وماذا عن الاشياء الكثيرة التى نتذكرها بدون دافع عاطفى معين أو مغزى ذهنى ؟ يبدو أن الذاكرة فى هذه الأحوال تكون مجرد حظ · ويبدو أنه وقت حدوث التجربة تكون بعض الذرات فى العقل فى وضع مناسب · وهب ! نمسك بهذه التجربة ونسجلها ولا تمحى من الذاكرة · لا لسبب معلوم » ·

ولهذا فقد أصبح أديب اليوم يكتب التاريخ على انه خيال بعد أن كان يكتب الخيال على أنه التاريخ ·

واذا اعتبرنا الوعى أو الادراك سيلا مستمرا لما نتذكره ومايختزنه العقل واندفاعه الى ما نتوقعه ، واذا كان رد فعل الفرد لأى موقف معين تتحكم فيه مجموعة تجاربه الذاتية الماضية فكل منا اذن سجين فرديته · واذا كانت الحقيقة كما تراها فيرجينيا وولف وغيرها مسالة ذاتية فالتوصيل أو التفاهم بين الأفراد يصبح صعبا ان لم يكن مستحيلا فى بعض الأحيان · وكيف يكون هذا التوصيل بين أفراد يحب بعضهم بعضا ؟ وكان أول قصصى اهتم بهذه الفكرة هو لورنس ستيرن (وقد تحدثنا عنه فى مقال سابق) الذى تعلم من « جون لوك » درسا يشبه الى حد ما الدرس الذى تعلمه كتاب القصة الحديثة من علماء النفس · وأدرك أن تداعى المعانى يشكل ويلون العقل الفردى ويكون حاجزا بينه وبين الاتصال المباشر بعقل آخر · وفى قصته « تريسترام شاندى يتكلم العم « توبى » عن نظريته فى التحصين العسكرى ويفسر أخوه ملاحظاته فى ضوء اهتمامه بتسمية الأشياء ، ويتكلم الاخ « والتر » عن الاسماء بينما يظن العم «توبى» أن أخاه يشير الى نظرية التحصين · ووجد « ستيرن » فى الحب حلا لمشكلته وادرك أن فى استطاعة الحب أن يتغلب على هذه الحواجز · فالحب يستطيع أن يدفع بالقضبان التى تحيط بالسجن الذى يسكنه الفرد وينفذ الى داخل النفس الأخرى ويحدث التلاقى ويتم « التوصيل » ·

ولكن القصصى المعاصر لا يرى الحل بهذه البساطة لأنه يجد أن الحب نفسه فيه شىء من الانانية وأكثر تعقيدا من مجرد عاطفة بين شخصين · فالحب الحقيقى عند د · هـ · لورنس مثلا يتحقق عندما يشعر كل فرد بانعزاله وفرديته بينما نجد « مسز دالواى » ترفض حب « مستر والش » فى قصة فيرجينيا وولف « مسـز

دالواى ، لأنها كانت تخشى من حبه للتملك • وهكذا تواجه الأديب مشكلة : كيف يمكننا الاحتفاظ بتكامل واستقلال شخصيتنا ومحاولة الاتصال بآخرين ؟ ووجد أديب القرن العشرين مخارج عدة من هذا المأزق •

فبعضهم يجد السلوى فى الهروب من المكان بالسفر فى رحلات طويلة كبحار كوليردج العجوز أو الهولندى الطائر ومنهم جويس ولورنس وهكسلى وفورستر • وأحيانا يجد مخرجا من الزمان بأن يكتب عن الماضى أو عن تجارب صوفية لا زمانية ولا مكانية مثل جويس وهكسلى واليوت ويتس ، وأحيانا عن طريق المخدرات أو التأمل أو الاجهاد مثل بودلير وهكسلى وجويس • ولكن هل تساعد هذه الطرق على الهروب من هذه الوحدة القاتلة ؟ فالمشكلة هى الفرار من الزمان والمكان ، وفى الحقيقة هى فرار من النفس ذاتها وأينما يسافر الانسان فانه يستصحب نفسه معه واذا تمكن من نسيانها لفترات قصيرة عن طريق المخدرات والخمر فهو يصحو ليجدها • وآخر طريق للهروب من واقعية الزمان والمكان ومن هذه النفس التى تطارد صاحبها هو الموت أو الانتحار وهذا ما فعلته فيرجينيا وولف فقد ألقت بنفسها فى هذا الفيضان المستمر التى طالما تحدثت عنه وانتحرت غرقا • وفى قصتها « مسز دالواى » نرى شخصية «سبتيموس وارين سميث » التى تشبه فيرجينيا وولف الى حد ما ، وتراه يدفع دفعا للانتحار لأن المجتمع ممثلا فى شخصية الدكتور هولمز ، يحاول أن يفرض عليه تقاليده وأحكامه • وهكذا يصبح الموت هو الحل الوحيد لهذا الموقف الذى يشعر فيه الأديب بالوحدة لأن الموت يطلق النفس البشرية من عقالها ويحررها من الجسد وتصبح جزءا لا يتجزأ من هذا الكون • ولكن هكسلى فى قصته «لابد للزمن من وقفة» يلاحق أحد شخوصه حتى بعد وفاته ويصف لنا تعاسته واشتياقه لملذات الحياة ويبعث مرة أخرى الى هذا العالم • وتستعمل فيرجينيا وولف فى قصتها « الى الفنار » طريقة أخرى لتوحى بعزلة الأديب عمن حوله ، فهى تنظر من خلال نافذة زجاجية مغلقة وهكذا يرى بعضنا البعض من خلال لوح من الزجاج وهذا هو الحاجز الخفى • وقد حاول بعض القصاصين أن يهربوا من التغير المستمر لكى يمسكوا بتلك اللحظة الخالدة ، بتلك « الآنية المركزة والهنا The Now and the Here» وعن طريقها يعودون الى المتغير • ولهذا يهتم بعض القصاصين بالتصوف مثل لورنس وجويس وهكسلى وفورستر لأن تلاشى الزمان يظهر فى التجربة الصوفية فى سكون مركز الدائرة حيث يتمكن المتصوف من التأمل فى هدوء بعيدا عن حركة المحيط الصاخبة ، يهرب من المتغير الذى تزخر به أطراف العجلة الدائرة الى الأبدية الأزلية السرمدية • وهنا يظهر شكل الدائرة فى تركيب القصة الحديثة التى ليس لها بداية أو نهاية بل هى فى شكلها كالدائرة والحل يكمن فى نقطة « الآن والهنا » • وفى المقال التالى نرجو أن نناقش أثر الرمزية والسينما والموسيقى فى القصة الحديثة •

كأسان



بقلم: أمين يوسف غراب

في اضطراب شديد دلفت الى المبنى في الظلام ، وفي خوف متزايد التفتت الى الوراء ، ولما لم تجد أحدا يراهـا استردت أنفاسهـا ، ولما اصلحت من هندامهـا راحت تخترق الممر وتتخطى بعض أبواب الشقق ، وهي تبحث عن باب معين بالذات وصف لها وصفا دقيقا ، وكأنها كانت لا تريد أن تتعرف عليه لأنها عندما وقفت أمامه عاودها نفس الاضطراب ونفس الخوف ٠

وهمت أن ترجع فعلا ، ولكنها تذكرت شيئا هاما هي في حاجة اليه ، ولهذا لم تشأ أن تفكر ومدت يدها المرتعشة وضغطت على زر كهربائي صغير ، وترامى صوت الجرس الى أذنيهـا من الداخل أشبه بعواء ذئب جائع ، فارتعش جسمها كله بعد أن كانت ترتعش يدها فقط ، وراحت تنتظر وتترقب ، انها تريد لهذا الباب أن يفتح سريعا وسريعا جدا وهي تريد له ألا يفتح أبدا ٠ ٠ انها كانت لا تعرف ماذا تريد ٠٠ وسمعت صوت المزلاج يتحرك من الداخل فاغمضت عينيها سريعا حتى لا ترى خوفا أبشع من هذا الخوف الذي هي فيه ٠ ٠ وانفتح الباب عن فرجه صغيرة ومع ذلك دلفت منها سريعا دون أن ترى أحدا ووقفت في الداخل فقد كانت الردهة شبه مظلمة وكانت لا تزال أيضا مغمضة العينين ٠ كان ظهرها له وهي واقفة ، وكان ظهره لها وهو يغلق الباب ويحكم اغلاقه جيدا ٠ ولما فعل استدار وقال ولكن قبل أن يرى وجهها :

ـ أهلا وسهلا ٠

وتمتمت في صوت خافت بعيد وهي تفتح عينيها ٠

ـ أهلا بك ٠

وأشار الى غرفة مضيئة وقال وكأنه لم ير وجهها أيضا :

ـ تفضلي ٠

وسار أمامهـا وسارت هي خلفه ٠ ولما اقتربت من شعاع النور الباهت المنبعث من فرجة الباب تبينته ، ولما رأته شعرت على الفور باشمئزاز لا حد له نحو هذا الرجل العجوز الذي وخط الشيب شعره وتقوس ظهره واعوج حتى ساعده وراح يسير أمامها كما تسير الدببة تماما ٠٠ ما اقذر أمثال هؤلاء الرجال ٠٠٠ حتى هذا الرجل أيضا ٠٠ حتى وهو في هذه السن ٠ وزمت على

شفتيها سريعا فى اضطراب اذ ظنت ٠٠ ولا ندرى لماذا ظنت هذا الظن ٠٠ ظنت أن الهواجس والأحاسيس والمشاعر قد تسمع لغتها الاذن ٠ وهى لا تريد أن تسمعه الا كل ما يرضيه ٠

وكانت قد بلغت الغرفة ورأت بعض المقاعد المتناثرة هنا وهناك فى فوضى عجيبة كانت المقاعد أشبه ما تكون معطلة ، تبدت لعينها أشبه ما تكون بتماثيل قديمة ملقاة فى العراء من آلاف السنين ٠ وتاملتها ثانية ورأت فيما رأت شيئا انزعجت له وزاد كثيرا من اشمئزازها ٠ رأت مائدة كبيرة عليها خمر ٠٠ أجل خمر ٠٠ زجاجة كبيرة ممتلئة ٠٠ وأخرى بجوارها فارغة ٠ ورأت أيضا كاسين ، كاسا فارغة لم تمتلء بعد ٠ لم تمتلء أبدا فهى لذلك نظيفة لامعة ٠ حلوة فى العين ، ورأت كاسا أخرى قذرة شاحبة ملوثة ، أشبه ما تكون بالشىء المتعب ٠٠ المرهق ٠٠ المنهوك القوى ٠ وكان بها خمر ٠ وتبدت لها هذه الكاس وكأنها تئن من كثرة ما تعبت ٠ من كثرة ما امتلأت وما فرغت ٠٠٠ لعل هذا الرجل شرب كثيرا ٠ لعله أرهق هو أيضا ٠٠ ونظرت اليه لاول مرة ، ورأت عينيه راعتهما بلون الدم المسفوك لساعته ، أم هما تماما بلون البقايا التى فى قلب هذه الكاسه المتعبة ٠٠٠ ترى من الذى أتعب الآخر وأرهقه كل هذا الارهاق ؟؟ ٠٠٠ ونظرت اليه ثانية وأحست باشفاق زائد عليه ٠ ولكنها عندما نظرت الى عينه مرة أخرى استبدل الاشفاق عليه بخوف كبير منه ، ولهذا دق قلبها دقات سريعة ، سريعة جدا ٠٠ كل ذلك وكانت لا تزال واقفه ٠ وكان هو قد أعد لها مقعدا بجوار مقعده ٠ ولما فعل قال وهو ينظر اليها لأول مرة ٠

ـ تفضلى ٠

فجلست ٠

ـ أهلا وسهلا ٠

نطقها وهو يجلس بجوارها ويتفحصها جيدا ، فتمتمت ولكن دون أن تنظر اليه ٠

ـ أهلا بك ٠

ومد يده وناولها سيجارة وكان قد نسى انه حياها فقال :

ـ أهلا وسهلا ٠

ونظرت اليه هذه المره وهى تتمتم ٠

ـ أهلا بك ٠

ولما أشعل لها السيجارة قال :

ـ حدثتنى عنك كثيرا الست شفيقه

فلم تجب لأنها استشعرت على الفور سخطا هائلا على شفيقة هذه أطبق على أنفاسها ٠٠٠ كان دائما سخطها على شفيقة هكذا يطبق على الأنفاس ٠٠ كان تماما أشبه ما يكون بالسخط المغيظ الذى يستشعره انسان نحو انسان آخر ورطه فى شر كبير ٠٠ فى حياته مثلا ٠٠٠

وكان قد نسى أنه قال لها شيئا ٠٠ ونسى أيضا أنه حياها لانه قال لها سريعا وهو يتعمقها بعينيه هذه المره ٠

ـ أهلا وسهلا ٠

ونظرت الى الكاس التى أمامه ٠ والسيجارة التى تضطرب بين شفتيه المرتعشتين واشفقت لأول مرة فى حياتها

على رجل مخمور ، ولذلك قالت وهى أيضا تتعمقه بعينيها ٠

ـ أهلا بك ٠

وأراد أن يقول لها شيئا آخر ، ولكن السيجارة سقطت من بين أصابعه فتناولتها هى من على الارض وأطفأتها ٠ وكانه قدر لها هذا الجميل، لانه قال وهو ينظر هذه المرة الى الزجاجة التى أمامه ويمد يده اليها ٠

ـ أهلا وسهلا ٠

وأرادت أن تضحك هذه ولكنها زمت على شفتيها سريعا لأنها رأته يملأ لها كاسا وهو يقول :

ـ ماء ٠٠ ثلج ٠٠ صورة ٠

وكانت لا تعرف شيئا من ذلك كله انها تعرف أنها تكره الخمر ولا تطيقها وأرادت أن تقول له ذلك ولكنها تذكرت انها قالت هذا لرجل غيره ذات مرة فغضب وطردها شر طرده ٠٠ ترى هل سيطردها هو أيضا ان قالت له ـ لا ـ ؟! وصمتت لحظات ٠ وقال هو ثانية ٠

ـ ماء ٠٠ ثلج ٠٠ صوره ٠

ـ ماء ٠

وانفرجت أساريره عن ابتسامة حلوة وهو يناولها الكاس ٠ وتالقت هذه الابتسامة أكثر وهو يراها تشرب ٠٠ وأدهشها أن انسانا يسره عذاب الآخرين ٠ ولذلك قالت :

الى هذا الحد أنت تحب الخمر ٠

فقال وهو يضحك هذه المرة ٠

ـ أحب الخمر وأحب شفيقة لأنها عرفتنى عليك ٠

وتحرك السخط فى قلبها على شفيقه عنيفا حتى أحسست به يكاد يمزق أحشاءها ولذلك قالت له فى عنف ٠

ـ منذ متى أنت تعرفت على شفيقه

فقال وهو ينظر اليها فى دهشة زائدة ٠

ـ من شفيقة ٠٠ أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم ٠

وراحت تنظر الى عينيه وقد تبدت لها كذبالة تريد أن تنطفىء ٠٠ وصمتت ٠٠ وصمت هو أيضا لحظات مسح خلالها سائلا لزجا كان ينساب من بين شفتيه المرتعشتين ومد يده الى الزجاجة وافرغ لها كاسا اخرى وقال وهو يقدمها اليها ٠

ـ أهلا وسهلا ٠

ولم تدر لماذا أحست باشفاقها عليه يتزايد ويتزايد ٠ ولذلك تناولت من يده الكاس وراحت تشربها وكانها تشربها راضية عنها سعيدة بها ٠

وحانت منه التفاته الى يدها المطبقة بها على الكاس وهى تشرب ٠ ورأى شيئا فى أحد أصابعها يلتمع فى عينيه ولما تامله جيدا وعرف أنه دبلة من الذهب قال وهو يريد أن يضحك ٠

ـ أنت متزوجة ٠

فقالت وهى تعيد الكاس الفارغة الى مكانها وتتذكر شيئا ٠

ـ كنت ٠

فقال وهو يضحك هذه المره ٠

ـ وأنا أيضا كنت ٠

ثم قال وهو يضحك طويلا ٠

ـ أهلا وسهلا .

ولما أفرغ لهـا الكأس الثانية قال وهو ما زال يضحك :

ـ اذن نحن متســـاويان .. اذن اشربى .. أجل أجل .. نحن متساويان

وتناول كأسه هو وشربها مرة واحدة ثم قال وهو يناولها كأسها :

ـ وأين ذهب زوجك .

ـ مات .

ـ أهلا وسهلا .

قالها وكأنه يقولها لنفسه هـــذه المرة . ولذلك لم تجب هى بشىء ولهذا قال هو :

ـ ولماذا لم تتزوجى .

ـعندى ولد .

وكان موجة طاغية من الفرحة المباغتة غمرته وجرفته الى بعيد . لأنه راح يضحك ويقهقه ويهتز فوق المقعد حتى كاد المقعد يسقط به . ولذلك أمسك به أو أمسك هو بنفسه حتى لا يسقط من فوقه . وقال وهو يحاول أن يمسك عن الضحك ويتمسك بالمقعد الذى يجلس عليه .

ـ حقيقة عندك ولد .

وكانت الدهشة قد عقدت لسانهـا ورغم ذلك قالت :

ـ نعم . وما الغريب فى ذلك ؟

ـ لا لا لا .. لا الغريب ألا يـكون ذلك .

فنظرت اليه طويلا وتمتمت دون أن تدرى .

ـ انك عجيب أيها الرجل .

ـ ها ها ها ها .. اشربى .

وظنته قد سمعها فغضب فاضطربت ولكنها لما نظرت الى وجهه وراته ما زال متهللا وما زال يضـــحك . اطمأنت وتناولت منه الكأس وشربتها . فقـال وهو يملأ له كأسا أخرى .

ـ وكم سنه .

ـ أربع عشرة .

فضحك وقال :

ـ اذن اشربى .

ـ شربت كثيرا .

ـ اذن أشرب أنا ..

وتناول الكأس وأفرغها فى جوفه مرة واحدة . ثم أمسك بالزجاجة وأفرغ منها كأسا أخرى وشربها . وكانت هى تنظر اليه ولكنها كانت تبكى دون أن تدرى لأنه نظر اليها وقال فى دهشه

ـ هل تبكين .

ـ لا أبدا . أبدا .

فقال وهو يضحك .

ـ لا بد أنك تحبين ابنك كثيرا .

ـ لماذا ؟ .

ـ لأنك تبكين .

ولما لم تجب قال هو .

ـ أنا أيضا أحبه كثيرا .

ففغرت فاها وهى تقول :

ـ هل انت تعرفه ؟

فمد يده سريعا هذه المرة الى الزجاجة وملأ لها كأسا وملأ له أخرى وقال وهو يناولها كأسها .

ـ اشربى •

فاضطربت يدها وهى تتناول منه الكاس واضطربت شفتاها وهى تسأله:

ـ أقول هل أنت تعرفه ؟

ـ أعرف من •

ـ تعرف ابنى •

فقهقه عاليا وهى يقول دهشا لهـذا السؤال •

ـ طبعا أعرفه •• أعرفه •• أعرفه جيدا •••

ومد يده سريعا وهى ترتعش الى يده الأخرى التى كانت ترتعش أيضـا ونزع منها ساعة ذهبية عالية وناولها اليها وهو يقول :

ـ خذى هذه الهدية اليه • خذيها اليه • الى ابنك • نعم الى ابنك •

ـ أقول هل أنت تعرفه ؟

ـ قلت لك طبعـا طبعـا • وخـذى أيضا •

ومد يده الى جيبه سريعا أيضا وأخرج قلما ثمينا من الحبر وناولها اياه وهـو يقول ويضحك ••

ـ وخذى أيضا هذا هدية اليه •

وأدارت الدهشة رأسها فدارت بها الأرض ولكنها تماسكت وأرادت أن تنطق ولكنه لم يمهلها لأنه راح يتلفت حواليه وكأنه يبحث عن شىء وهو يتمتم •

ـ انتظرى •• انتظرى •• ومـاذا أيضا ••

ومرة أخرى راح يتلفت حواليه وفجأة كأنه تذكر شيئا فرح له كثيرا وهـو يخرجه من جيبه ويعطيه اليهـا وهو يقول وما زال يضحك •

ـ خذى أيضا هذه السلسلة من الذهب انها اليه •• الى ابنك •• أجـل الى ابنك •

وأراد أن يقول لها شيئا آخر ولكنه قد بذل مجهودا كبيرا فى الضحك أتعبه الى حد فاستراح على المقعد وأسند ظهره اليه وألقى برأسه فوقه وأغمض عينيه حينا ليستريح قليلا •

وراحت هى تنظر اليه والدهشـة تكاد تمسك بحواسها جميعا ـ من أين يعرف ابنها ـ وفتحت عينيها ونظرت اليه فازدادت دهشتها • وفتحت عينها ونظرت الى كل هذه الهدايا التى مازالت تمسك بها وازدادت دهشتها • ورنت فى أذنيها بعض الكلمات فاندهشت أكثر وأكثر ••• طبعا طبعـا أعرفه ••• اعـرفه ••• ولكن من أين يعـرفه ؟؟ واحست بقوة تدفعها الى شىء ولذلك قالت له وكأنها تريد أن تنهره •

ـ اننى أسألك هل أنت تعرفه ؟ •• ومن أين تعرفه ؟ •

وفتح عينه وكان بفضل هذه الاغفاءة القليلة قد استعاد قواه ولذلك نظراليها ولما أعادت عليه السؤال اندهش دهشة غريبة لأنه انفجر ضاحكا هذه المرةوراح يضحك •• ويضحك •• ثم مديده وهو يضـحك الى الزجاجة التى كانت قد اوشكت على ان تفرغ • وأفرغ منهـا كأسا وشربها • ولما مسح ذلك الشىء اللزج الذى كان على شفتيه قال وكأنه يقول شيئا مفرحا •

ـ أنا أيضا عندي ولد .

ففغرت فاها وأغمضت عينيها فيما يشبه الذهول فقد كانت تتوقع أنه سيقول لها أي شيء غير هذا . ولما فتحت عينيها ونظرت حينا اليه وحينا الى الهدايا التي أعطاها اليها وكانت ما تزال في يدها قالت :

ـ يبدو أنك تحب ابنك كثيرا .

فأراد أن يضحك ولكنه لم يقدر هذه المرة وقال :

ـ كما تحبين انت ابنك تماما .

فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وقالت وهي تضحك هذه المرة .

ـ هل عندك غيره ؟

ـ لا هو فقط .

فأراحت ذراعها فوق كتفه وهي تقول مداعبة .

ـ لابد أنه جميل جدا .

فتألق وجهه وزادت فرحته وهو يقول لها في طفوله .

ـ مثل القمر تماما .. انظري ..

ودس يده سريعا في جيبه وأخرج صورة لفتى في العشرين من عمره جميلا جمالا رائعا وقال وهو يمسك بالصورة في يده وينظر اليها معها .

ـ انظري هذه هي صورته .. انظري الى عينيه أليست جميلة ؟ . .

ـ جدا .

فازدادت فرحته وازدادت طفولته وهو يقول :

ـ انظري .. انظري الى جبهته .. الى حاجبيه . . الى وجهه . . أليس جميلا .

ـ جدا . جدا .

ـ انظري .. انظري الى قوامه .

انظري الى كل شيء فيه .. انظري حتى الى الحذاء الذي في قدمه أليس جميلا ؟

فقالت وهي تمسك بالصورة وتريد أن تأخذها منه .

ـ انه أجمل فتى رأته عيني .

ولما أطبق بأصابعه على الصورة ولم يعطها اليها قالت :

ـ حفظه الله لك .

فوضع الصورة في جيبه وهو يهز لها رأسه شاكرا ويمسك بكاسه ويقول

ـ اشربي .

فقالت وهي تمسك بكأسها أيضا .

ـ هل هو يقيم معك هنا ؟ .

فضحك ضحكة عالية وقال وهو يخلص الكأس من بين شفتيه .

ـ انه سافر .

ـ سافر الى أين .

ـ سافر الى بلد بعيدة . بعيدة جدا .

ـ وكيف أخباره ؟ .

ـ يعلمها الله .

ولما أغمض عينيه قالت :

ـ ألا يكتب اليك ؟ .

ـ بكل أسف ليس في تلك البلدة مكتب بريد .

فادهشها هذا وقالت :

ـ ليس من بلد في الدنيا لا يوجد فيها مكتب بريد .

فقال وهو يضحك .

ـ بلد واحد فقط . هو الذي سافر اليه أحمد منذ عامين .

فاشفقت عليه وقالت :

ـ ومتى سيعود ؟

ـ اشربي .

قالها وهو يبتسم ومد يده التى كانت قد تخاذلت جدا الى الكأس التى أمامه ورفعها الى ثغره ولكنها فجأة سقطت من بين أصابعه · فانذعرت ·

ومدت يدها لتناول الكاس من على الارض ولكنه قال لها :

ـ اتركيها ·

ثم جاهد عينيه جهادا طويلا حتى فتحهما ونظر اليها وقال ·

ـ هيا بنا · اننى أريد أن أنام ·· أنا متعب أليس كذلك ؟ ·

ـ لا أبدا ·

فرفع ذراعه ولكنه لم يمدها طويلا وأشار الى خارج الغرفة على شمال الردهة التى أمامها وقال :

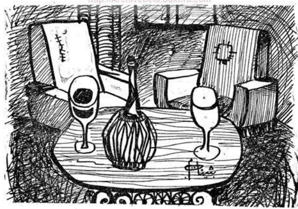
ـ من هذه الناحية تجدين الغرفة الثانية ·· اننى وحدى فى هذا البيت · أجل اننى وحدى منذ أن سافر أحمد

وكانت قد نهضت فعاود النظر اليها وهو يقول :

ـ سأنتظر قليلا ·· فقط أشرب هذه الكأس ·

فنهضت دون أن تنبس وغادرت الغرفة ، وسارت شمالا مخترقة الردهة كما أشار اليها بالضبط ورأت بابا فتحته كان هو الباب الوحيد الذى رأته ولما دخلت منه ردته خلفها وتمددت فوق الفراش بملابسها حتى الحذاء ظل فى قدمها أغمضت عينها وراحت تنتظر ·

ومرت لحظات ولحظات · ومع ذلك راحت تنتظر ·· ومرت لحظات أخرى ·· وأخرى بعدها · ودقت ساعة كانت فى الردهة ثلاثا فذعرت ·· ان الساعة تشير الى الثالثة صباحا ، وهى تريد أن تنصرف ، انها لا تستطيع أن تمكث أكثر



من ذلك ... ترى هل سيظل هـــذا الرجل يشرب حتى الصباح ؟؟؟

ونهضت فى تخاذل لا حد له وراحت تجر ساقيهـــا جرا حتى فتحت الباب واخترقت الردهة وأيضا الممر الصغير الذى بين الغرفتين وهى تكاد تكون مغمضة العينين . انها لا تريد أن ترى أحدا . ولا تريد أن ترى شيئا . ان كل أملها أن يأذن لها بالانصراف فقد بلغت الساعة الثالثة صباحا . ولا تستطيع ان تمكث أكثر من هذا الوقت .. وفجأة تعثرت قدمها فى شىء ففتحت عينها فيما يشبه الخوف . وما أن نظرت حتى وقفت ذاهلة يكتنفها ذعر شديد . فقد رأته ملقى فى الظلام فوق الارض فاقـد الوعى . انها أبدا لم تصدق عينيها . ولذلك نظرت ثانية فاسقط فى يدها وهى تقترب منه واسقط فى يدها أيضا وهى تتبينه على بصيص الضوء الخافت المنبعث من فرجة الباب وتتبين رأســـه الغارق فى شىء غريب . كانت الرأس ملقاة فوق رقعة لايعرف لها لون . هل هى سائل لزج مخاطى ينساب من الفم ، أم هى دم قانى ينساب من منخاريه ؟ . وأغمضت عينها فى شىء لم تعرف له شبيها من قبل . هل هو الخوف ؟ هل هو الفزع ؟ هل هو الوهم ؟ . هل هو الحزن ؟ هل هو الاشفاق . ؟ وفتحت عينيها ونظرت ثانية ولكن ما هذا الشىء الغريب الذى يلتمع تحت خده تماما وكأنه يضـــع رأسه عليه . وكأنه يخفيه فى هـــذا المكان من وجهه حتى لا يتلوث بالدماء كما تلوث أغلب الوجه .. ونظرت ثانية وتعمقت هذا الشىء وبعد جهد استطاعت أن تعرف أنه صورة صغيرة لفتى جميل فى العشرين من عمـــره .. وجحظت عيناها وهى تناديه ولكنه لم يجب . وهزته ولكنه لم يتحرك . وظنته ميتـا فأمسكت أنفاسها . ومدت يدها وهى فى هذا الرعب الشديد نحو صـــدره لترى هل مات حقا فتهرب ، أم هـــو ما زال حيا فتقدم له صنيعا حتى ولو كان حياتها ...

وأحس هو بيدها تقترب من صدره .. وظنهـــا ستسرقه فحاول أن يحرك يده ولكنه لم يقدر . وحاول أن ينطق ولكنه لم يقدر أيضا ، ولما لم تستطع يدها أن تتعرف الحقيقة من فوق الثياب مدت أصابعهـــا وفكت بعض أزرار القميص لتضع أناملها أو أذنها فـــوق القلب ولما أحس بيدها تقترب من صدره فعلا وتأكد من ظنه جاهد نفســـه حتى تحركت شفتاه وتمتم فى توسل دون أن يفتح عينيه .

ـ اسرقى كل شىء .. فقط أرجوك ابقى لى الصورة ... ابقى لى أحمد

واغرورقت عيناها وغمرتهما الدموع حتى انها لم تر الطريق الذى تسير فيه بعد أن غادرت المبنى .. ولما تعذرت الرؤية عليها وهى تتعثر فى الطريق فتحت حقيبتها وأخرجت منديلا لتجفف به هذه الدموع التى تحجب عنها الرؤية ، ولما فعلت أحست بالمنديل وهى تمسح به عينيها جافا خشنا على غير العادة يكاد يجرح جفونها أو هـــو يكاد يفقأ عينيها . فنظرت اليه ، ولما تبينته من خـــلال شبكة الدموع التى تمـــلأ العيون ، وجدته ورقة من فئة الخمسة الجنيهات كان قد وضعها لها فى الحقيبة دون أن تعرف .

أمين يوسف غراب

بطل الضياع

تأليف : بوريس بريفالوف
ترجمة : خيرى حماد

« بوريس بريفالوف ، كاتب قصصي معاصر ، ولد على مقربة من بريانسك في عام ١٩٢٤ . زاول قبل نشوب الحرب عددا من المهن بعد ان انهى دراسته الثانوية ، فعمل ممثلا وطباخا ، وبائع كتب ، ودليل سياح ، وانتهى اخيرا الى العمل كمراسل حربى .

« التقى اخيرا بالكاتب السوفياتى الساخر يوجينيبيتروف، فشجعه على التحول الى الادب ، وكان اول من نشر له قصة في عام ١٩٤٢ .

« اقبلت الصحف والمجلات بعد هذا التاريخ على نشر قصصه ومقالاته ونقداته . اصدر في عام ١٩٥٦ بالتعاون مع بوريس بيجوروف قصته الطويلة الساخرة ... « لا تمر .. »

وهذه القصة التى نتولى تعريبها اليوم هى من احدث قصصه ..

أهناك من لم يفقد شيئا قط ؟ قد يؤدى التدقيق فى البحث الى العثور على انسان مفرق فى حرصه الى الحد الذى صانه من اضاعة اى شيء مهما كان تافها طيلة حياته ... ولكن لو استطعنا العثور على مثل هذا الانسان، فحرى بنا ان نجد له متحفا خاصا نعرضه فيه ، كشيء فريد فى نوعه . لكن صديقى الملازم فيكتور سكاميكين ، الطالب فى الكلية الحربية ، كان انسانا عاديا ، مثلى ومثلك . ولعل هذا هو الذى دفعنى بعد ان نزلت واياه من سيارة ! الباص » الى سؤاله .. ترى أين حقيبتك ؟

وتطلع فيكتور الى يديه، وأخذ يقلب جيوبه وكأنه يبحث عن شيء ثم قال.. لا بد اننى نسيتها فى الباص .

وقلت على عجل .. ايها الأبله ! اذن هلم ، فاستقل «الترام» القادم ان «الباص» يقوم بدورة كبيرة ، قبل ان يصل الى المحطة القادمة ، التى تتجه اليها حافلة الترام رأسا . وهناك ستلحق بالباص ، وتعثر على حقيبتك. هيا ، ها هو الترام قادم .سأنتظرك هنا .

وقفز فيكتور الى الحافلة ، وراح يبحث عن حقيبته .

ولم تمض عشرون دقيقة ، حتى كان يهبط من الحافلة القادمة ، عائدا الى ، وهو مشرق الوجه ، ويبادرنى بقوله.. « لقد لحقت بالباص فى محطة كورسك. كان يحمل رقم ٦٧٩ . وعندما صعدت الى السيارة ، وجدت حقيبتى بجانب السائق . وبعد أن تثبت من ملكيتى لها من حرفى «ف. اس» ، المنقوشين عليها ، اعادها الى ، فانتقلت الى الترام وأيت اليك .

ـ ولكن أين الحقيبة ؟

وتطلع فيكتور الى يديه ، وقال مستسلما .. حسنا ، لا أدرى . لعلى نسيتها من جديد فى حافلة الترام .

ـ يالله ·· بم كنت تفكر يا رجل ؟

وابتسم فيكتور وقد علته الحيرة.. ثم قال : « قد لا تصدقنى ، ولكننى وأنا أحمل الحقيبة فى يدى ، كنت أفكر فى «مكتب الاشياء المفقودة» . انه المكتب الذى يعثر فيه الانسان على كل مايضيعه .. هلم نذهب اليه ..

ـ أو أوكلت اليك مهمة الاعلان عن هذا المكتب ؟

ـ لا تكن سخيفا . هيا .. ستفهم كل شىء هناك .

ولما وصلنا باب المكتب ... توقف صديقى فجأة ، فبادرته قائلا .. ولكن .. ماذا حدث ؟

وقال فيكتور وقد بان التردد فى نبرات صوته .. حسنا .. انظر.. سأنتظرك هنا .. ولعلنى ادخل بعد دقيقة أو دقيقتين .

ـ ولكن لم ؟... قل لى ما القضية؟

ـ انها مسئلة معقدة ·· حسنا أنا لا اريد ان القى مدير المكتب .. ادخل انت وحدك .. وانظر اذا كان هناك رجل بدين يضع على راسه قبعة اسيوية «قلبقا» .. انه ثرثار كثير الكلام ... هلم ادخل .. وسأشرح لك الموضوع فيما بعد ..

وفتحت الباب ووجدت نفسى ادلف الى صالة صغيرة ، تقود ابوابها الزجاجية الى مستودع الاشياء الضائعة ، حيث رايت فتاة شقراء الشعر رائعة الجمال تجلس الى مكتب صغير ، وامامها عدد كبير من المظلات والمعاطف التى تحمل مختلف الالوان . وكانت الى جانبها سيدة تضع على ساعدها اشارة «مفتشى الترام» ، وهى تمد اليها يدها حاملة اشياء عدة . وقالت المفتشة.. « لقد عثرنا على كل هذه المظلات والمعاطف بعد توقف المطر يا نيفا ··· أما يوم الخميس ، فقد عثرنا بعد تلك العاصفة الماطرة على رقم قياسى ·· ثمانى مظلات وخمسة معاطف » .

وقررت الا أدخل لتوى ، وان أتبع الطريقة الصحيحة فى الاستكشاف ، دون ان ادع احدا يرانى .. فلربما كان البدين المجهول هناك ، ولكننى لا اراه .. حسنا لأصبر .. ورايت رجلا يدنو من مكتب نيفا .. انه شاب نحيل يضع على عينيه نظارتين ... وفى يده كتاب ضخم وقال وهو يمد يده بالكتاب .. هذا هو .. وعليه اهداء المؤلف بخطه الى .

وقرات نيفا عبارة الاهداء ، ثم نظرت الى غلاف الكتاب ، وانفجرت ضاحكة

.. وشاركتها المفتشة ضحكها .. ثم قالت .. يا له من اهداء غريب ... تعال وانظر ..

وبدأ الشاب يشرح لهما فى عصبية ظاهرة ، وهو يمسك بنظارته فى يده.. جاء المؤلف الذى كتب هذا الاهداء الى كليتنا ، ليشهد ندوة أدبية.ألا تعرفينه .. لقد كتب عددا من قصص الحرب .. وكان من الطبيعى ان يشترى الطلبة جميع كتبه من المكاتب المجاورة ، أملا فى ان يوقع عليها ، مع اهداء منه .. انه لشىء عظيم ان يحصل المرء على توقيع المؤلف ..

وهزت نيفا ورفيقتها رأسيهما بالموافقة ، ومضى الشاب يقول .. ولقد تحدث الينا المؤلف عن كتبه ، ورد على اسئلتنا . وسرعان ما هجمنا عليه نطلب توقيعات على كتبنا . ورأيت انه يوقع على الكتب دون ان يتفحصها ، ويعرف ما اذا كانت كتبه حقا. وجالت فى ذهنى فكرة شيطانية .. حقا انها نكتة ساخرة . وسرعان ما امسكت بكتاب ليوتولستوى هذا وقدمته اليه ، فوقع عليه بعد أن كتب عبارة الاهداء دون أن يتطلع الى الكتاب .. انظرى ، ها هو قد كتب بخطه .. « فى ذكرى لقائنا » .

وهزت المفتشة رأسها وكأنها تؤنبه انها خديعة طفل ..

ورد الطالب قائلا .. « قولى ما تشائين .. على اى حال لقد نسيت الكتاب فى الباص ، ولولا هذا المكتب النافع ، لضاع على هذا الاهداء النادر ، على اى حال .. لاضير ، مادامت النهاية طيبة . شكرا ..

وكانت نيفا تلقى فى غضون ذلك بنظرة أخرى على التوقيع النادر ، ثم قالت .. ولكن المسئلة ليست من البساطة على النحو الذى تظن .

وصرخ الطالب وهو يقول ... الا تصدقينني .. الا تصدقين انه كتابى؟

ـ لا . انه كتابك . ولكن المؤلف كان يعرف أن ما يوقع عليه ليس بمؤلفه .

وقال الطالب مندهشا .. ولكن .. كيف ؟.. وما ادراك ؟

ـ لقد عرف لعبتك .. فى اى يوم كانت الندوة ؟

ـ فى الثلاثين من مارس .

ـ ولكن انظر الى التاريخ الذى ارخ فيه اهداءه .. انه الاول من ابريل . وقد وضع خطا تحت هذا التاريخ ليؤكده . انظر .. الا تراه .

وارتبك الطالب من شدة ما عراه من الخجل .. فاحمر لونه واصفر واخضر .. ثم قال .. حقا .. انك على صواب ، لم ألحظ هذا .. حسنا .. شكرا .. وأسعدتما صباحا .. بل أسعدتما مساء .. ومضى مارا من جانبى وكأنه طائرة نفاثة .. مندفعا الى الشارع .

وتطلعت الى الغرفة من جديد مغتنما فرصة اغراق الفتاتين فى الضحك . اننى لا أرى رجلا ، سواء كان بدينا أم نحيلا .. وبات فى وسعى أن انقل الى فيكتور اننى اديت المهمة على احسن مايرام ..

وقال الملازم وهو يلقانى ، وقد بان

الشك على محياه .. لماذا تأخرت كل هذه المدة الطويلة ؟.. أكنت تتحدث اليها ؟

كان صديقى فى منتهى الغرابة فى ذلك اليوم . ولم اعد ارى فيه ذلك الضابط الهادىء الوديع والمتزن الذى اعرفه .

وقلت له .. « الطريق مفتوح امامك .. ليس هناك رجل بدين » .

ودلفنا الى الغرفة . وفوجئت فى أن ارى الرجل البدين ذاالقبعة الاسيوية « القلبق » يقف فى نفس المكان الذى رأيت فيه مفتشة الترام . واراد فيكتور ان يتراجع بسرعة ،ولكن نظرى نيفا والرجل البدين وقعا عليه . ورأيت مفارقة غريبة على وجهيهما ، فقد بدت الفتاة سعيدة برؤياه ، بينما بان الفزع على الرجل . ولن يكون فى وسعى ان أصف النظرة التى القاهاعلى صديقى .

وقال فيكتور بشىء من التخاذل .. مساء الخير .

وردت نيفا وقد شفعت قولها بنظرة حانية عطوف .. اسعدت مساء ... ماذا فقدت اليوم ؟

ولم يرد الرجل البدين على تحية فيكتور المهذبة ، بل بادرنى قائلا ... أانت معه ؟ اذن تعال معى الى هنا من فضلك .

ومضى بى الى مكتب آخر . يحمل لافتة كتبت عليها عبارة «المدير» .

وقدم الى مقعدا ثم قال .. اتعرف الضابط جيدا ؟

ـ طبعا ، انه صديقى .. لقد كنا معا فى دورة تدريبية واحدة ..

ـ اذن ! تعرف ان صديقك هذا قد حرمنى من الاكل والنوم ؟

ـ لا . لا اعرف .

ـ لقد لقيت المئات بل الالوف فى عملى هنا . ولكن هذه هى المرة الاولى التى القى فيها انسانا كصديقك .

وصب قدحا من الماء ووضعه امامى. فاعتذرت بلطف ، وارتشفه وهو يقول .. بعد أن خلع قبعته .. اسمع ان صديقك يأتينا هنا كل يوم . اتفهم ما اقول ؟ انه يصل كل يوم .. ويملأ قسيمة من الورق ، مبينا انه فقد شيئا. ولقد حطم الرقم القياسى فى مدى اسبوعين فى الضياع . فلقد اضاع فى مختلف حافلات الترام فى موسكو خمس مظلات وحقيبتين ، وطردين ، وحافظة، وكلب صيد يسمى «طرزان» .

ماذا ؟ هل اضاع كل هذه الاشياء؟ لا بد أن هناك خطأ من اى نوع ... لقد وفد الى موسكو منذ أمد قريب ليدخل الكلية الحربية ... وكل ما حمله معه عند مجيئه ، لا يعدو حقيبتين ، هما فى أمان عندى ...

ـ ان قولك هذا ، يزيد الامر تعقيدا وغرابة ، لا سيما وانه ملأ قسائم بكل هذه الاشياء التى ذكرتها لك . ولكن هناك ما هو أهم من هذا . ان الناس يفقدون أشياء آثمن من تلك التى ذكرها صديقك وتعاد كلها الينا . لقد اضاع صراف عشرة الاف روبل مع قوائم الاجور والرواتب ، ولكنها جاءتنا كاملة

غير منقوصة ،فطلبنا الصراف واعدناها اليه . فليس الموضوع فى الكم وفى كثره مافقده صديقك ، وانما هو فى ان ايا من الاشياء التى فقدها لم تعد الينا ، حتى ولا الكلب . اجل لم نعثر على اية مظلة او حقيبة او طرد . وهذا مستحيل . اتفهم . انه مستحيل . انظر . اننى اعمل هنا منذ امد طويل. ولقد رايت كثيرا من الاشياء المفقودة ، وقد اعيدت الى مكتبنا، أو عاد معظمها، وفى مكنتك ان تستنتج من كل هذا اشياء عدة فى منتهى الاهمية. قارن بين ما كان يفقده الناس فى الماضى ، وما يفقدونه الآن ، وستقودك المقارنة الى نتائج علمية مهمة للغاية . ان ما يعاد الينا اليوم ، اغلى واثمن من كل ماكان يعاد فى الماضى . ولكن نسبة الضياع هبطت ، ولعل مرد ذلك الى ان الحياة باتت اليوم اسهل وافضل من الامس. وباتت مجالات الراحة متاحة لهم ، فهدات أعصابهم ، ولم يعودوا مشردى الفكر مبلبلى الخواطر . وترتفع نسبة الامانة فى كل يوم عن اليوم الذى سبقه. وفى وسعى ان اقول لك ، ان ٩٨٪ فى المائة من الاشياء التى نبلغ بضياعها تعود الى اصحابها ، بعد ان نبعث فى طلبهم . وقد تلقينا الوف الرسائل من الناس يشكروننا فيها على عودة مافقدوه .. قل لى هل فقدت شيئا فى حياتك؟ مع الاسف انك لم تفقد . ارجوك جرب مرة. وستعود الينا بعد يومين وتستعيد ما اضعته . أما صديقك هذا ، فامر آخر . لقد اتلف علينا فى هذين الاسبوعين تلك النسبة العالية . ان شعارنا ... كل ما تفقده ، تجده هنا . ولكن صديقك كذب شعارنا . اذ لم نعثر على اى شىء مما فقده . وقد هبطت نسبة الامانة من ٩٨ الى ٧٠ . كم اتمنى لو اننا عثرنا له على شىء واحد فقط . ولكننا لم نعثر على اى شىء .. وهنا موضع الشك . قد لا يكون فقد كل هذه الاشياء ؟ ماذا تظن ؟ ترى ماالذى فقده وما الذى يرجو العثور عليه؟ هل يستطيع ان يخترع كل هذه الاشياء التى فقدها .. حتى الكلب طرزان ؟.

فقلت للمدير .. لا ادرى ما الذى فقده فى الايام الاخرى ، ولكننى اعرف ان الملازم أضاع حقيبته اليوم .. لقد اضاعها امامى .. انه نسيها فى حافلة الترام .

ومسح المدير على جبينه بيده وقال متأففا ... اكاد أجن ! ان هذا يعنى ان كل ما ادعاه فى الماضى من ضياع صحيح ؟ الحقائب ، الطرود ، المحفظة، المظلات ، والكلب ! اتعرف اننى بدات أفقد ايمانى فى الطبيعة الانسانية . لقد ارتفعت نسبة الامانة سنة بعد سنة ، وشهرا بعد شهر .. وفجاة.. يقع هذا ! !لا استطيع ان اصدق ؟لابد من وجود شىء فى الموضوع ... ارجو ان تستدعى صديقك ، وان تظل معه هنا .

وخرجت الى المكتب الخارجى ، فرأيت فيكتور يجلس الى جانب نيفا. كانا يبدوان كالمذنبين عندما ابصرانى ادخل عليهما. وهب فيكتور من مقعده. وقلت له : ان المدير يود ان يراك .

وقالت نيفا ... أدخل اليه ... لا تخش شيئا .. انه لطيف جدا .. والتفتت الى وهى تقول .. الآن فقط،

حدثنى فيكتور بكل شيء .. كان يريد ان يحدثنى ، فى كل مرة ، ولكن المدير، كان يدخل علينا ، فيقطع عليه حديثه.

وقلت لها .. ولكنه لم يوضح لى شيئا .. ولا استطيع ان افهم ماذا حدث ..

فضحكت نيفا وهى تقول .. المسألة فى منتهى البساطة ..

وقطع عليها كلامها ، رجل وقف الى النافذة ، وقد تدلت لحيته السوداءعلى ذقنه ، رفع اليها يده يحييها ثم اختفى

وسرعان ما بدا الانشغال على نيفا .. اخذت تنظر فيما امامهامن طرود، وتقرأ ما كتب عليها ، وتنحى بعض الطرود التى تعثر عليها جانبا .. ثم قالت .. ارايت هذا الرجل العجوز . انه انسان ذكى .. بل انه رمز نجاح هذا المكتب . انه ينسى كل شيء . ستة أو سبعة طرود فى كل يوم. انه ينساها عامدا متعمدا ، ويضع على كل طرد منها، علامة خاصة .. انها احرف : « ال. او. بى » .. أى .. «اضعتها قصدا» انه يعمل فى مزرعة تعاونية . وهو يقيم مع ولده الذى يعيش على مقربة منا هنا . والعجوز مولع بالتجوال ... فهو يمضى الى هنا والى هناك ، مبتاعا كل ما يراه ضروريا لاسرته ومزرعته. وله ثمانية عشر حفيدا .. انهم يؤلفون فرقة كاملة .. »

فقلت لنيفا .. ولكن ما شأن مكتب الاشياء المفقودة بكل هذا ؟

ــ انه يجعل منا مكتبا لنقل كل ما يشتريه . فهو لا يريد ان يحمل بنفسه الى منزله كل ما يبتاعه ... افهمت ؟ هناك حوانيت ليست لديها اجهزة خاصة بنقل المبيعات الى البيوت، وقد ابتكر الرجل طريقته . فهو يبتاع ما يريد ثم يذهب الى محطة الترام او الباص ويسأل القائمين عليها .. اهناك من فقد شيئا ؟ فيرد عليه هؤلاء بالنفى. ويسلم ما يحمله الى المحطة بعد ان يدون اوصافها فى دفتره ، واين سلمها ، ولمن سلمها ، وتصل مشترواته الينا بعد وقت قصير . ولما كان يعيش على مقربة منا ، فانه يأتى بزمرة من احفاده ، فيحملهم هذه المشتروات ، ويعود الى منزله ،سعيدا مطمئنا . وفى كل مرة. يأتى الى معتذرا ويقول .. « لن انسى شيئا آخر ، مرة اخرى . اغفر لى ارجوك » .. هل رأيته قبل قليل وهو يشير الى .. انه فى طريقه الى منزله .. وسيأتى مع مجموعة من احفاده بعد قليل .

واتمت نيفا فرز طرود الرجل .. وعادت الى مكانها . وارهفت سمعها، تود لو سمعت ما يدور من حديث فى غرفة المدير . لكن الحديث كان هادئا، وكان من المتعذر عليها أن تسمع شيئا منه .

ورحت اسألها.. « ولكن كيف فسر لك صديقى الضابط، موضوع ما اضاعه طيلة هذه الايام ؟

وابتسمت نيفا وهى تقول ..«انه لم يضيع شيئا على الاطلاق . رآنى صدفة وتبعنى الى هنا .. وجاء المدير .. واعمل فيكتور فكره بسرعة ، لعله يعثر على سبب يبرر وجوده ، فادعى انه اضاع مظلة . وتكرر المنظر فى اليوم

التالى . جاء يريد أن يرانى ، فوجد المدير معى ، وتظاهر بأنه فقد شيئا آخر . ولم اكن اعرف شيئا عن سبب مجيئه . حقا لقد شعرت بأن هناك شيئا من الغرابة ، ولكننى لم استطع أن أخمنه لو اننى عرفت لطلبت اليه الا يخترع مفقودات جديدة ، وان يكتفى بالسؤال عن الاشياء السابقة .. ولو حدث هذا ، لسارت الامور سيرا طبيعيا . أما اليوم . فنحن مدينان لك . لقد شغلت المدير برهة من الوقت ، استغلها فيكتور فى ان يحدثنى بما يريد ..

واحمر وجه نيفا خجلا .. وفهمت بالطبع ما حدثها صديقى به .

وسرعان مادلف الينا فيكتور والمدير فى المكتب ، وقد بانت على محياهما علامات الارتياح .

وقال الرجل البدين .. « لقدعادت نسبة الامانة الى وضعها الصحيح .. أضع ما شئت ، وستعثر عليه هنا ! »

ومضى فيكتور الى نيفا ، وهمس فى اذنها شيئا لم اسمعه . وفى تلك اللحظة ، ظهر الرجل العجوز ذو اللحية السوداء فى باب المكتب ، ومعه نفر من الغلمان والفتيات من مختلف الاعمار . انه الجد الذكى مع احفاده . وخرجت مع فيكتور .

وبادرنى صديقى قائلا ، ونحن نسير فى الشارع .. ما رأيك فى نيفا ؟ هل اعجبتك ؟ انها فتاة رائعة ... انها الشىء الذى كنت احلم به دائما .. أما وقد استقامت الأمور الآن ، فقد بات فى وسعى ان امضى الى هناك فى أى وقت ، دون أن أحس بأى ضيق أو خجل » .

ولم ار فيكتور طيلة الاسابيع الثلاثة التالية ، فقد كان مشغولا عنى فى كليته الحربية . ولكن حدث فى أمسية ليلة دافئة من شهر مايو ، ان التقيت صدفة فى الشارع بمدير المكتب .. ورأيت فى ملامحه علائم الاسى والحزن .

وقلت لصديقى .. وماذا حدث بالحقيبة التى اضعتها اليوم؟ هل ملأت قسيمة بأوصافها ؟.

ــ ماذا ؟ ماذا تقول ؟.. آه حقيبة



اليوم .. طبعا .. حسنا . لا باس ، سارى نيفا هذا المساء ، وساحدثها عنها » .

وقلت له .. ماذا دهاك .. هل عادت الارقام الى الهبوط ؟ او هل طرا شيء على نسبة الامانة ؟

ـ لا . كل شيء على ما يرام فى موضوع النزاهة . وكيف حال صديقك الملازم ، بطل الضياع ؟ انه بارد ... ولكن ما يضايقنى اليوم أمر آخر .. مازال هناك اناس لا يؤمنون بامانة الآخرين .. انهم لا يحاولون استعادة الاشياء التى يضيعونها .. انهم مازالوا بتفكيرهم ، يعيشون فى الماضى السحيق .. اسمع منى هذه القصة. لقد انقضى اكثر من شهر كامل ، وعندنا حقيبة تحمل حرفين « فى . اس » . لقدعثر عليها فى حافلة ترام . والغريب ان صاحبها لا يأتى ليسأل عنها . لا ريب فى انه انسان عجوز ، من طراز «توماس الكثير الشكوك » .. ما الذى يضحكك؟

ـ اظن اننى اعرف صاحب هذه الحقيبة ؟.. انها بنية اللون اليس كذلك ، وعليها حرفان من الفضة ؟

ـ اجل ... انها كما تقول ... ولكن ..

ـ لا باس ، سابعث اليك بصاحبها فى الغد ..

ورمانى الرجل بنظرة لا تخلو من العطف ، وهو يقول .. « حقا ان لك اصدقاء فى منتهى الغرابة . احدهم يأتينا يوميا طيلة اسبوعين ، وفى كل يوم اكذوبة جديدة .. وآخر ، اسوأ من ذلك .. كثير النسيان والشكوك ... ولكن لا تستأمن قولى .. فانا اكن لك كل تقدير .. حقا اننى اميل اليك .. اضع ما شئت ، وتعال الى فستجد كل ما اضعته . سيسعدنى ان اراك دائما.

وتحدثت هاتفا الى فيكتور ، وذكرته بحقيبته الضائعة .

والتقيت بنيفا فى اليوم التالى . كانت تعود الى بيتها من عملها ، وقد حملت حقيبة عليها حرفا « فى .اس.» لقد وقعت على وصل الاستلام فى سجل الاشياء الضائعة والمسلمة الى اصحابها.

وكان لها كل الحق فى توقيع هذا الوصل .. اذ انها اعادت الحقيبة... الى زوجها .. فيكتور .

قرية طيبة

بقلم : جمال ربيع

فى تمام الثامنة صباحا استقل القطار من (طنطا) الى القاهرة ..

وفى تمام التاسعة والثلث استقل عربة راحت تجرى به وتتلوى فى شوارع كثيرة متقاطعة تغص بالناس وبالحركة .. وأخيرا استقرت به أمام مبنى كبير .. كبير جدا ... وقال له السائق .. « وصلنا » وصعد الى المبنى .. الى الطابق العاشر ثم نزل .

وبعد خمس دقائق عاد يستقل عربة اخرى انطلقت به فى سرعة جنونية الى المكان الذى يقصده بضاحية الهرم وتوقف أمام المكان المنشود ونزل وعلى وجهه ابتسامة رضا طافت على شفتيه صاعدة من أغوار نفسه ..

ولكن.. بعد عشر دقائق عاد مسرعا يكاد يعدو ليشير الى عربة ثالثة حملته فى بطء ضايقه كثيرا الى محطة مصر.. وهناك انتظر ساعة ونصف .. حتى حان موعد القطار المسافر الى.. طنطا..

واستقله ولأول مرة فى يومه هذا منذ بدأ صباحه وبدأت معه هذه الرحلة السريعة المتقطعة المملة يحس نفسه تهدأ وتستريح .. ومط شفتيه .. وفرك يديه .. وتأوه ..

وانطلق القطار .. ونزل بسمعه الى عجلاته وراح يصغى لصوت احتكاكها بالقضبان .. واحس أنه يستعذب هذا الصوت .. وأخيرا رفع سمعه عن القضبان عندما لاحقت عيناه منظر الحقول الخضراء فى اتجاه يعاكس اتجاه القاطرة .. ووجد نفسه يبتسم .. الأمل الذى قتلته الحقيقة ، والساعات التى ضاعت من عمره ولم تخلف غير الخيبة والندم .. والنقود التى تسلمها منه سائقو العربات وغيرهم ..

والفشل الذى لف شعوره .. بعد كل هذا تبتسم ؟؟ وطوت نفسه ابتسامتها حتى لا تثيره وتتركه يواجه كل ما جرى له فى يومه الكئيب . . .

وعض على شفتيه يعتصر الالم فوقهما . وتمتم . . « لا حول ولا قوة الا بالله » .. لماذا فعل أبوه كل هذا ؟ لماذا حرم نفسه وأذاقهم الحرمان ؟

ليته لم يفعل .. من قال بان الموت أمر يؤسف له . حمدا لله أن أمر بقبض روحه ولم يمد له حبال العمر فربما كانت أوصلته الى القاهرة ليرى ما رأى ليرى نتيجة كفاحه وحرمانه نفسه من كل شىء .. وحرمان أحبائه الآخرين.. حمدا لله أنه مات ، ألف حمد .. ألف

ألف حمد ٠٠ عدد حصى الارض ونجوم السماء ٠

واشعل سيجارته بعناية ، وجذب منها نفسا عميقا ٠٠ ثم أطلق الدخان من فمه ، وراح يغمس نظره فى حلقاته وهى تدور حول بعضها تلتف وتتقارب وتتباعد ٠٠ ثم تتلاشى ٠وعاد يتبادل الهمس مع نفسه ٠٠

المتعلم الوحيد فى عائلتنا يحيا هذه الحياة ؟ يالسخرية القدر ٠ ٠ وأمه ٠ ٠ ماذا سيقول لها ؟ بعد ساعات سيدخل عليها ليواجه نظراتها المتسائلة عن سر عودته فى نفس اليوم وهو الذى ازمع الاقامة بالقاهرة مدة يومين كاملين ٠ ٠ اه ٠٠سيقول لها انه لم يجده ، سافر الى أسوان فى عمل من اعمال الشركة ٠ وتكور المرارة على شفتيه فى ذلة قاسية ٠٠ أنه يذكر جيدا حديث أمه معه ٠٠ يذكره بالحرف الواحد ٠٠ يذكر أمنيتها ٠٠عشرة أبناء على شاكلة حمدى لتباهى بهم القرية ٠٠

ويذكر حديثها٠٠ ويذكر انه آلمه كثيرا ولكنه طوى آلامه فى رضى وهو يرى الغبطة تكسو وجهها الاسمر اشراقا وهى تتحدث عن ابنها حمدى ٠٠ عن اخيه المهندس الكبير ٠٠

ودارت صورة أخيه أمام عينيه اكثر من دورة ٠٠ تترنح كما رآه من ساعة ٠٠ واوقفها عن الدوران وثبت وضعها امام عينيه ورشقها بسؤال دار فى رأسه وتركز فى عينيه ٠

ماذا قدمت لامك ؟ .. لآمالها ؟ .. لحبها ؟ لحياتها ؟ النسيان الاهمال عدم المبالاة بها ؟ ٠٠ ورمى الصورة التى عادت تترنح من جديد بنظرة يائسة حزينة فيها الكثير من الاحتقار ٠٠ وأطرق ٠٠ وهز رأسه يطرد منه صورة أخيه ٠٠ كانت نفسه تحدثه لحظتها بحقيقة شعور أخيه نحوهم ٠ انهم عبء معنوى يرهق مركزه الادبى ٠٠ ليتهم لم يكونوا لــه أهلا ٠ لابد وان نفس اخيه تحدثه بهذه الامنية وهى ترى صاحبها مرموقا ٠ ٠ مهابا ٠٠ ينادى بالقاب التفخيم ٠٠ نعم ٠٠ هذا حق كما راه اليوم بعينيه مستسلما لهذا الشعور عندما دخل عليه داره ٠٠ والفرحة تنفخ صدره ٠٠ ينتظر ساعة يلقى أخاه ، ويحتضنه ويقبله ، وينسى فى ترحابه كل مابنفسه من أحاسيس صنعتها ظروفه ٠٠ ولكن اخاه لم يفعل ٠ كان ، كمن يلقى غريبا يقصده فى حاجة تضيق بها نفســه ويضطر الى مجاملته ٠ وذهب ما بصدره من انتفاخ ، واحسه ينكمش ، وينكمش حتى ظنه سيخرج من ظهره ٠ احس هذا ساعة ان نادى اخاه المهندس خادمه النوبى وقال له ٠٠

« قـدم كوبا من عصـير الليمون لسعيد ٠٠

لم يقل أخى !٠٠

وجذب ناظريه من دوامة الخيالات الباهتة الى ملابسه ٠٠ لم تكن ملابسه حقيرة لهــذه الدرجة ٠٠ انه يرتدى قميصا رخيصا حقا ولكنه نظيف ٠٠ وسرواله لم يمض على استعماله أكثر من عام ونصف ولا يعتقد أن الخــادم لاحظ ذهاب لونه عند الركبتين فلا يبدو ذهاب اللون واضحا تماما ليراه الخادم ويلحظه ولكن لابد أن أخاه رآه ولهــذا أنكر أخــوته ولاقاه ببرود وخجل من

تقديمه الى خادمه ·· وعاد بناظريه الى دوامة الخيالات ·· وجذب منها صورا مختلطة لطفولة أخيه ·· كان انطوائيا لا يرضى عن شيء ·· وكان له ركن خاص ينزوى فيه لا يكلم أحدا ·· وكان ينظر الى الأشـــياء نظرات طويلة أدهشـــت والده ·· وأقلقت أمه ·· حتى أنه كان لا يقبل فى صباه فى كتاب القـرية أن يتفوق عليه أحد وان حدث وأخطأ فى شيء من دروسه يعـــود باكيا الى بيته يعض على شفتيه ولا يبوح لأحد بمـــا يبكيه ··

وعندما أرسله والده الى المدرسة ·· ثقلت قدماه من يومها فكان يســير فى بطء ينظر عن يمينه وعن شـــماله فى كبرياء وغطرسة ·· لا ينظر أمامه أبدا ·· كان دائما رافع الرأس ·

وعندما أظهر تقـــدمه فى الدراسة وتفوقه على أقرانه ، قرر أبوه الانفاق عليه حتى يتم دراسته الجامعية ، وفى قلبه حلم جميـــل ·· حلم لكى يحققه حرمه هو من اتمـــام دراســـته مكتفيا بحصوله على الابتدائية ووظفه كاتبـــا بمصلحة المســـاحة بطنطا مع أنه كان لا بأس فى دراسته ·

والآن أصبح حمدى مهندسا ·· بين يديه المـــال ·· والمركز ·· يحيط به احترام واعجاب الجميع ·· كل هـــذا أنساه أمه ·· نعم نسيها ·· ثلاثة أشهر كاملة لم يرســـل اليهـــا كلمة مكتوبة يسأل فيها عن أحوالها ·· وهى طوال الثلاثة أشهر هذه ·· طوال ســـاعاتها تسأل عن سبب انقطاع مراسلاته القليلة مرة بلســـانها ·· ومرة بعينيهـــا ·· وثالثة بقلقها البادى فى كل تصرفاتها ·· وتهيب به أن يكتب الى أخيه ·· وكتب له ·· خمسة عشر خطابا ·· ولم يأته الرد ·· وأخيرا من أحد معارفهم علم أن أخـــاه نقـــل الى ادارة الشركة بالقاهرة ·· فأسرع يطفىء قلق أمـــه بزيارته لاخيه · · وكان ما كان · · الكأس فى يده والنظرة المتعـــالية فى عينيه ·· وضيقه الواضح على قسمات نفسه ·

كان شـــخصا آخر ·· لا يمكن أن يكون نشأ فى بيتهم وشب فى بيتهم·· انه شيء آخر ·· شيء كبير غريب ، شيء من القاهرة وليس من قريتهم ··

وزفر آلامه من صدره دفعة واحدة ·· وتمتم ··

« لم يقدمنى الى الخادم ·· الحمد لله أن أحدا من أصدقائه لم يكن موجودا»

وتهـــادى القطـــار فى سيره ·· ثم توقف ومازال « ســـــعيد » فى اطراقته وشروده ·· ولكن نداء أيقظه وأعاد اليه انتباهه ·

« سمسمية ·· حمصية ·· حـــلاوة السيد » ··

وانتفض متنـــاولا حقيبته ، وترك العربة الى طوار المحطة ونفسه تهمس اليه بأنها احدى كرامات السيد البدوى ·· فلولا أن سمع نداءات الباعة لظل فى شروده ، وقام به القطار وسار به الى نهايته الى الاسكندرية ·· وهو لايعرف بالاســـــكندرية أحدا ·· والجنيه الذى يعمر جيبه ماكان ليكفيه مبيتا واقـــامة بالاســـكندرية وعـــودة الى طنطا فى الصباح ·· وعاد يتمتم ·· « الحمد لله

.. كراماتك يا بدوى ، ورفع يده يقبلها شاكرا حامدا .. وانطلق يعدو الى ميدان المحطة فاجتازه ، ثم الى خارجها حيث تقف عربات الأجرة .. ولحق بآخر عربة تقوم الى خط سيرها مارة بقريتهم « كتامة » وحمد الله .. وعاد يذكر كرامات السيد .. وتوجه بعينيه الى مئذنته وهمس .

ـ سأزورك يا بدوى .. سأزورك لأشكرك .

وسارت العربة تتلوى على الطريق الزراعى تقفز فوق الحفر وكتل الطمى الجافة الصلبة .. وعاد خياله يسبقه الى أمه .. وحاول أن ينفض عن نفسه آثار زيارته لأخيه حتى يلقاها وليس على وجهه ما ينم عن ضيقه .. لو أنه فشل فى تظاهره لامتلأ قلبها كمدا يهدد حضرة المهندس الغالى الذى تفاخر به أهل القرية جميعا وتتمنى لو كان لها مثله عشرة .

وابتسم فى حسرة ومرارة .. وهز رأسه ينفض آلامه وهمس لطيفها الذى تراءى له .

(مهندس واحد فيه الكفاية « يا أمى ») .

وغرق فى آلامه .

وصاح السائق :

ـ كتامة .

وتناول حقيبته من بين ساقيه .. وفتح الباب ، وغادر العربة ثم دار حولها وقدم الى السائق أجره ، ثم انطلق فى خطوات بطيئة يشق الطريق المظلم الى قريته التى ذاب سواد منازلها فى سواد الليل فلم تعد يرى منها غير المشاعل الحمراء الباهتة التى تتراقص تحاول أن تحدد ملامحها الهزيلة .

والتقى به ابن عمه مصطفى عائدا من عمله بالحقل، فسأله مستغربا عودته .

ـ قالت عمتى انك ستبقى بالقاهرة يومين أو ثلاثة .

ورد عليه فى اقتضاب :

ـ اكتفيت بنهار بطوله .

وسأله ابن عمه وقد برقت فى عينيه التماعة اعجاب .

ـ وكيف وجدت الباشمهندس ؟

وأجابه فى هدوء يجرب صوته قبل أن يلقى أمه .

ـ بخير .. لقد استدعى فى مهمة بأسوان ورافقته حتى ركب القطار .. مسكين أخى حمدى كل وقته لعمله .

وحدق النظر فى وجه ابن عمه ليرى ان كانت نبراته كشفت شيئا من ضيقه وألمه ، واطمأن عندما سمع ابن عمه يقول وهو يجذب جاموسته الى جانب الطريق .

ـ من زمن لم نر الباشمهندس .. ربما نسى بلده وأهله ؟ .

فأجابه « سعيد » بنفس الصوت الهادىء .

ـ مسئولياته كبيرة يا مصطفى .. كان الله فى عونه .

وانطلق الى داره وهو يهمس لنفسه .

« كان الله فى عونه » ..

ولقيه بعض شباب القرية ورجالها

جالسون كعادتهم أمام حانوت القرية يتسامرون ، وسألوه عن الباشمهندس .. وطمأنهم على الباشمهندس وسمع قريبه مختار رضوان يقول بعدان جاوزهم بخطوات ..

« والله يا أولاد وطلع من بيت الصعيدى مهندس ياولاد

وتمتم .. وأطرق برأسه أسى .. وهمس للظلام ..

« صدقت .. طلع من بيتنا مهندس .. طلع ومارجعش » .

ووجد بوابة منزلهم مفتوحة على مصراعيها كالعادة والظلام مستحوذ على أغلب أرجائها ماعدا الدائرة الضيقة التى يترنح فى محيطها ضوء سراجهم وفيها رأى خالته « أم على » جالسة .. ولم ير أمه فسأل خالته عنها فهبت فى اضطراب لعودته السريعة وقالت له :

ــ لماذا عدت فى نفس اليوم ؟ خيرا يا « سعيد » ..

فقاطعها قائلا ..

ــ أين أمى ؟

فأجابته :

ــ نامت من ساعة .. كيف حال الباشمهندس ؟

فقال فى ضيق ..

ــ بخير .. سافر الى أسوان ..

ووضع الحقيبة فوق المصطبة وسألها فى دهشة ..

ــ ولماذا تنام فى مثل هذه الساعة ؟ اننا مازلنا فى أول الليل .

واقتربت الخالة وهمست له :

ــ فاجأتها الحمى بعد سفرك بساعة .. ولم تستطع الوقوف على قدميها ، وسقطت فى صحن الدار وأمسك بخالته من كتفيها وسألها :

ــ كيف حدث هذا ؟

وأطرقت السيدة وقالت .

ــ اطمئن .. لقد دهنت جسدها بالخل والملح وأحكمت الغطاء حولها والليلة ستعرق وتصبح على خير حال..

ونظرت فى وجهه وسألته .

ــ مالك مصفر الوجه هكذا ؟ ليست أول مرة تمرض فيها والدتك ..

وجاءه صوت أمه يناديه .. فأسرع الى حجرتها يحمل السراج فى يده .. ونظر اليها ممدودة والأغطية تلفها حتى رقبتها فاقترب منها وقال فى لهفة ..

ــ سلامتك يا أمى ..

وراحت تنظر خلفه فاستدار ينظر الى حيث ركزت عينيها ولم ير غير الظلام .

وأدرك أنها تتوقع أن يدخل عليها الباشمهندس .. وأن يكون قد جاء معه ليراها ولم يطق المبيت فى القاهرة الى الصباح ..

وأعاد اليأس نظرة أمه الى وجهه وابتسمت له فى اعياء وسألته .

ــ أين حمدى ؟ ولماذا عدت فى نفس اليوم ؟

واقتلع ابتسامة من قلبه وضعها على شفتيه ومال عليها يقبلها قائلا ..

ـ كأنك وليس لك غير حمدى ·· لقد سافر الى أسوان فى مأمورية خاصة بالشركة وكان فى غاية الضيق من عدم تمكنه الحضور معى ·· كاد يبكى وهو يستقل القطار مضطرا ·· ولكنه فى صحة جيدة جدا وأوصانى أن أقبلك··

ومال عليها يقبلهــا فتناولت يده تقبلها ·· وتدعو لهما بالسعادة وجرت دموع الحنان فوق وجهها الشاحب فمد يده يمسح دموعها فضغطتهـــا تسأله ··

ـ أحقا وجدته فى صحة جيدة ؟

فابتسم فى وجهها وقال :

ـ على خير حال ، صحة من حديد ·

وعادت تسأله فى لهفة :

ـ وماذا قال لك عنى ؟

وتضاحك قائلا لخالته ··

ـ تصــورى الى أى حد تغرم أختك بابنها المدلل ·· ماذا قال لك عنى ؟

وابتسمت الأم وأغمضت عينيها ·· فجذب الغطاء فوق صدرها وقبل جبينها وانسحب فى هدوء ···

وتقدمته خالته تحمل السراج فوق رأسها وضوؤه يرقص حولهما رقصاته الباهتة الحزينة ·· وعليه مر الليــل بطوله وثقله وعيناه لم تحتضنهما سنة من النوم · وجاءه صــوت الشـــيخ « أبو الجدايل » يعلنه باقتراب الفجر فقام ينتعل خفيه ، ويمم وجهـــه الى مسجد القرية ، وقد هدأت نفسه بعض الشىء ، وتوضأ ، ودخل المسجد يهمهم بالدعوات والتوسلات ·· وأدرك أنه أول من دخله لصلاة الفجر ·

ونظــر فى الأركان فرأى أشــــباحا ســــوداء نائمة فتقـــدم منهم وأيقظهم جميعـــا ·· واستقبل القبلة ، وبدأ تسبيحاته ، وتراجعت أوهــامه وأحلام الأمس الســـوداء أمام صوته المرتفع بالتسبيح والحمـــد ·· وبــدأ الناس يتوافدون الى المسجد تسبقهم همهماتهم الخاشعة ·· وبكى ·· بكى ما شــاءت له دموعه المخزونة واحلامه المخدوعة ·· وحمد للظلام ستر دموعه حتى انتهى من صلاته ، فمد كفيه يمسح وجهه وعاد الى بيته وقد هدأت نفسه ، وسكنت لدغات آلامه ··

وبالقرب من داره سمع خالته تسأل عنه أحد الذين سبقوه فى الخروج من المسجد وسمع الرجل يجيبها بأنه قادم خلفه فأسرع الى خالته عــدوا ، وقد استيقظت فى نفسه أحاسيس الرهبــة والخوف من المجهول وسألها :

ـ خيرا يا خالة ·

فقالت وهى تتقدمه الى غرفة أمه··

ـ لا أدرى ·· حاولت أن أوقظهـــا ولكنها لم تجب مع أن أنفاسها تتردد ·

وأسرع الى أمه وأشار الى خالته أن تفتح النافذة · ونظر اليها :كان العرق يكسو جســـدها كله الشحوب يقبض بيده الصفراء على وجهها ، ومد يده الى رسغها يتحسسه فاذا بنبضات القلب لا تكاد تحس واعترته قشعريرة هزت كيانه وعقدت لسانه ·· ولكنه وجــد نفسه يتحــرك · وانطلق يعـــدو ·· وأمام باب طبيب الوحدة المجمعة وقف يطرقه فى عنف ·· وأخيرا ظهرالطبيب أمامه وكان يعرفه فاندفع اليه قائلا :

ـ أمى يا دكتور .. الحالة غاية فى السوء .

وأشار اليه الطبيب بالدخول حتى يرتدى ملابسه .. ووقف يساعده حتى اذا ما انتهيا من ذلك انطلقـــا الى المريضـــة .. وقال له الطبيب وهمـا يجدان السير ..

ـ طالما نصحتك بعرضها على أخصائى بالقاهرة .. ولكنك ..

فقاطعه « سعيد »

ـ العين بصيرة واليد قصيرة ..

فالتفت اليـــه الطبيب وقال له فى دهشة ..

ـ الباشمهندس ؟

فعض على شفتيه وأشـــاح بوجهـــه وقال :

ـ فى أسوان ..

وعاد الطبيب يساله :

ـ ولماذا لم يرســل اليـــك نفقات علاجها ؟

وعاد يعض على شـــفتيه من جديد وقال :

ـ هذه غلطتى .. لم أشأ أن أزعجه وانتظرت حتى ينتهى من عمله هنـاك ويعود ..

وهز الطبيب رأسه وقال :

ـ الحقيقة انك أخطأت .. انهـــا مريضة «بالبولينا» يا أستاذ سعيد .. مرض مميت .. وعلى أى حـــال ربنـا موجود ...

وكانا قـــد اقتربا من المنزل فلفهما الصمت .. ودخل الطبيب عليها وبدأ يفحصها وعلى وجهه قرأ سعيد نتيجة الفحص .. لم يفعل الطبيب شيئا أكثر من أنه حقنها بمصل أخرجه من حقيبته .. وقام يغادر الغرفة بعد أن أشار الى سعيد بأن يتبعه .. وفى صحن دارهم وقف يواجه حكم القـــدر على لســـان الطبيب ...

ـ الحـــالة ســـيئة جدا ... بل ميئسة ..

قالها الطبيب فى هدوء ..

وعندما وجد سعيد لسانه ســـال الطبيب :

ـ وما العمل ؟

فأشاح الطبيب قائلا :

ـ الله موجود ..

فامسك سعيد بذراعه ، وقال له متوسلا وكأنما حيـــاتها بين يدى هذا الطبيب ..

ـ ألا تستطيع أن تقدم اليها شيئا ؟.. أى دواء .. أى شىء ..

وفى اشـــفاق أخرج الطبيب دفتره وخط بضع كلمات عليه وقدم الورقة الى ســـعيد وقال له وهو يحـــكم غلق حقيبته ...

ـ هذا الدواء قد يســـاعدها لأيام قليـــلة .. أنت رجل ومتعلم ولهـذا صارحتك بالحقيقة .

فساله سعيد فى حمـاس كمن رأى بريق الأمل وسط ظلمة اليأس ...

ـ وهل أجده بطنطا ؟

فربت الطبيب على كتفه وقال :

ـ اختصارا للوقت عليك أن تسافر الى القاهرة لتحضر الدواء .. ثمنه جنيهان فقط .

ونظر الطبيب في ساعة يده واردف قائلا ..

ـ يمكنك أن تستقل قاطرة السادسة والنصف .. انه موعد مناسب والله معك ..

شد على يده وانصرف مطرقا ...
ووقف سعيد وحده فى صحن الدار يواجه المرض .. والموت .. وآلام نفسه .. ثم انتفض وأسرع يرتدى قميصه وسرواله ونادى على خالته وعندما خرجت اليه قال لها ..

ـ لابد من السفر الى القاهرة للحصول على الدواء وليست معى نقود ..

وفى هدوء مدت السيدة يدها الى صدرها ، وأخرجت لفافة حلت عقدها الأربعة ، وسلمته خمسة جنيهات كاملة فتناولها وانطلق ينهب الارض بقدميه الى الطريق الزراعى ليستقل احدى عربات النقل الى طنطا .. ومنها الى القاهرة ..

ودخل على أخيه وبيده الدواء ورآه ممددا فوق اريكة فى حجرة الاستقبال الأنيقة ، وقد أسند رأسه الى وسادة حريرية حمراء ودلى ذراعه يداعب شيئا ممددا فوق أرض الحجرة ، ويضحك من ملء قلبه الخالى .. واعتدل أخوه عندما رآه يملأ الباب امامه وكذلك جمعت الفتاة غلالتها حول جسدها وقامت حائرة تتصنع الخجل .. وقال له أخوه فى برود ..

ـ أهلا سعيد .. لقد عدت ثانية ..
وتقدم منه وقد زم شفتيه .. ووجدتها فتاة الليل فرصة فانسلت كالفراشة تغادر المكان . وواجه أخوه وقد انقلبت المرارة التى ملأته الى رعشة راحت تعبث بيديه وقال له ...

ـ أمك تموت ..

وضحك حمدى ..

ضحك عاليا وهز رأسه وقال ...

ـ طريقة ساذجة تحملنى بها على السفر .. سذاجة أهل القرية ..

ومال على أخيه يهزه .. ثم ابتعد عنه وتمتم ...

ـ مخمور ...

ونظر اليه حمدى فى سخرية وقال ...

ـ احقا لم تذق الخمر فى حياتك ياسعيد ؟ تذوقها مرة .. مرة واحدة وبعدها لن تسلوها .. انها منعشة .. منعشة جدا ..

وصاح سعيد فى وجهه ...

ـ أمك تموت .. أتسمعنى .. أفق .. وبعدها عد لسكرك كما تشاء فلن يعوقك احد .. أسرع وارتد ثيابك فربما رآتك وماتت راضية .. خدعتها الايام فيك .. ولا بأس من أن تموت بخدعتها ما دام هذا يحقق لنفسها الاطمئنان .. قم ...

ومد يده يجذبه فى خشونة .

وحمدى يحملق فيه بين اليقظة والسكر لا يصدق ولا يكذب ولا يستطيع ٠٠ وجره الى دورة المياه جرا ٠٠ وهناك أحنى رأسه تحت الصنبور وأطلق المياه قوية فوقه وهو يقول فى غيظ ٠٠

ـ سمعتهم يقولون أن هذا يفيد ٠٠

ومن تحت الماء المتدفق جاءه صوت حمدى يسأله ٠٠٠

ـ من قال هذا ؟ حمار من قال هذا ٠٠

وأخيرا رفع سعيد رأس أخيه وراح يجففه ويمسح عن وجهه ٠٠ وهمس له فى ضراعة ٠٠

ـ أرجوك أن تسرع ٠

وفى بطء قاتل راح حمدى يرتدى ثيابه ولا يتكلم ولا يرفع عينيه الى أخيه ٠٠

وفى طريق خروجهما توقف حمدى يسأل خادمه عن الفتاة فجذبه أخوه من ذراعه وقال للخادم ٠

ـ لاحاجة بك الى ارشادها للطريق ٠

واستوقف عربة ٠ وصاح سعيد بالسائق :

ـ انطلق بكل سرعة الى طنطا ٠ الاجر معروف واسرع ٠٠

وانطلقت العربة ٠٠ وخيم عليهما صمت أسود ٠٠ كانا يستقبلان الموت وكان الطريق طويلا ٠٠ لم يوجه الى أخيه كلمة ٠٠ ولم يحدثه أخوه فى شىء ٠٠ كانت نظراتهما تصطدم ثم تشيح ٠٠ وتطرق ٠٠ وأخيرا أشرفا على مدخل القرية ٠٠

وترقرقت الدموع فى عينى سعيد ٠٠ واضطرب حمدى وأشاح ثم سأله ٠٠

هل الحالة خطيرة الى هذا الحد ؟

لم يجب سعيد ٠٠ كانت الدموع تملأ عينيه وكان يجتهد ليحبسها ٠ ٠ ولم يكرر حمدى سؤاله وأطرق ينظر تحت قدميه ٠٠٠

وفجاة صاح سعيد بالسائق وهو يشير اليه ٠٠ يمينك عند هؤلاء القوم ٠

ونظر حمدى ٠٠ كانت المقابر على يمينهم وكان هناك جمع كبير من الناس وتمتم حمدى :

ـ أتكون هى ؟

وفتح سعيد باب العربة قبل أن تقف يتعجل النزول ٠٠ ونزلا ٠٠ واستقبلهما المشيعون وعلى وجوههم أبلغ تعبير لحزن الانسان على مصيره ٠٠

وكان أول القادمين اليهم عمدة القرية ٠٠ لم يبدأ بسعيد ٠٠ لم يبدأ بالابن الاكبر ٠٠ ولكنه احتضن «الباشمهندس» يمطره بعبارات التعزية ٠٠ ويطلب له من الله السلوى والصبر الجميل ٠٠ وكذلك فعل الجميع ٠٠ الجميع بلا استثناء حتى أقاربه ٠٠ تركوه واندفعوا الى أخيه ٠٠ الى حمدى يعزونه فى أمه ٠

ووقف سعيد جانبا ثم تقدم الى القبر ٠٠ تقدم اليه وحده ٠٠ وتبعه ابن عمه ٠ وقف الى جانبه يتمتم بكلمات غير واضحة ٠٠ ونظر خلفه فاذا بالناس وقد التفوا حول أخيه ٠٠٠ وهو واقف بينهم عالى الرأس ينظر ناحية القبور ٠٠

كان كل شىء قد انتهى بالنسبة لأمه ٠٠ سكنت قبرها ٠٠ وقام أهله بما يجب وأسرعوا بها خوفا على جثمانها من شرور هذا اليوم الحار ٠٠٠

وقال له ابن عمه ٠٠٠

ـ ماتت بعد ركوبك القطار بدقائق ٠٠

وهز رأسه ومد يده يمسح دموعه ٠٠

ثم تقدم خلف جمع المشيعين وساروا جميعا يتقدمهم أخوه الى القرية ·· واخترقوا طرقاتها·· وأقبل أهلها نساء ورجالا وصغارا على أخيه يعزونه بدموعهم ويترحمون على أم الباشمهندس ·· كانت القرية كلها حزينة على الفقيدة ··

وهناك أمام دارهم وجد كل شيء معد ·· قام أهل القرية من أهله ومن غيرهم بالواجب ·· وتقدم اليه الحاج متولى شيخ البلد وانتحى به جانبا وهمس له :

ـ أرجو أن تكون راضيا ·· لقد أعددنا كل شيء ليناسب مقام « الباشمهندس » فسيحضر المأمور والاعيان ليقدموا له العزاء ·

وانتفض غضبه فى صدره ·· ولكنه تماسك وسأل الرجل :

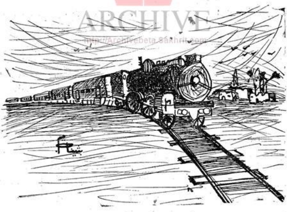
ـ وكم تكلف كل هذا ؟

وربت الرجل على كتفه وقال :

ـ خمسة عشر جنيها ·· البركه فى الباشمهندس ·· كلنا لها يا سعيد ··

فاطرق قائلا :

ـ نعم·· البركة فى الباشمهندس· البركة كلها فيه ياحاج !!



من الأدب الأمريكي المعاصر

رحلة يوم

للكاتب الأمريكي هاملين جارلاند

ترجمة : مرتضى عبد الغفار

عاد السيد سام ماركهام الى بيته بعد ان نقل آخر حمل من الحنطة الى المعلف فوجد زوجته قد أرقدت اطفالها فى السرير وبدأت تعجن قدرا من الدقيق وهى تتحامل على نفسها تحامل متعب مكدود ٠

نزع سام حذاءه المبتل من قدميه ، وبعد أن وضع فلقة من الخشب فوق المدفأة ألقى بقدميه عليها باسترخاء استمع الى صرير كرسيه عندما اتكأ فيه الى وراء فلم يعر ذلك اهتماما اذ ألف ذلك كما ألف زوجته الريفية العرجاء ٠

ومجهوده الموصول، بادر سام زوجته قائلا : ان هذا آخر ما عندى من القمح وربما قصدت البلدة غدا لتركيب حدوة لجيادى ٠ فردت زوجته وهى تحاول فى يأس أن تؤثر فى زوجها بنغمة فيها ثقة وحزم: «قد استعد للذهاب معك» فأجاب وهو يبرطم :

ـ لماذا تريدين الذهاب الى المدينة ؟ فانفجرت فى وجهه قائلة : لماذا يذهب أى انسان الى هناك ٠ انى لم أترك البيت قرابة ستة أشهر على حين أنك تذهب وتذهب ٠

لم يمض بعد ستة أشهر فقد كنت هناك يوم اشترينا منجل الحشائش ٠

ـ متى كان ذلك ؟ فى العاشر من يوليه وانت تعلم ٠

ـ لم يخطر ببالى أنه قد مضى هذا الزمن البعيد ، لااعتراض لى على ذهابك وسأنقل زنة حمل من أكياس القمح ٠

اترك كيسا يعادل وزنى أنا والطفل٠

ـ لا بأس لكن ينبغى تجهيز القمح الليلة اذا اردت أن تصحبينى فى الصباح فلن يتسع وقتك اذ ذاك لمساعدتى فى حمل الزكائب واعداد الاطفال للذهاب الى المدرسة ٠

ـ دعنا نذهب للعمل الآن ٠

ـ لامفر من ذلك وان كنت أكره الخروج ثانية ٠

تثاءب الزوج بألم وبدأ يدخل قدميه المتورمتين فى حذائه الطويل ، كما ارتدت هى معطف الزوج ووضعت على رأسها قلنسوة الطفل ويمما معا الى



مخزن الغلال والليل بارد والسماء صافية .

وقال سام بارتياح :

ـ الليلة دافئة وقد لايسقط فيها الصقيع كما حدث فى الليلة الماضية .

فرز الزوجان السليم من أكياس القمح الفارغة على ضوء المصباح ، ثم تسلق سام الصومعة وفى يده دلو من صفيح وبدأ العمل .

كان سام رجلا قويا فاستمات لينجز عمله بسرعة . فكانت الدلو اللامعة تغوص فى أعماق القمح البارد ، ثم يرفعها بقوة الى فم الكيس حيث تلقى بثقلها على يدى زوجته المجهدتين فترتعد أوصالها ، لكنها على الرغم من ذلك ، أخذت تجر الزكيبة بعيدا عقب ملئها لتحضر غيرها ، وأخيرا خرج سام من الصومعة وقد تفصد وجهه بالعرق ، وانبهرت انفاسه ليقوم بغلق الزكائب ثم قال لزوجته :

ـ يحسن ارجاء نقلها الى العربة حتى الصباح ولن تكون بى حاجة الى انتظارك فساحزمها ساعتئذ وحدى .

وافقت الزوجة وأحست بالارتياح اذ لم تتوقع أن تعود الى المنزل بهذه السرعة ، وشعرت بالسعادة لطلوع القمر فى طريق عودتهما الى البيت .

تسللت شعاعات الفجر الى حجرة نومهما خلال النافذة المفتوحة وأيقظتهما أصوات الطيور أسرابا ، فتقلب الرجل فى فراشه بصعوبة وأخذ يتحسس طريقه الى المدفأة فى المطبخ المظلم البارد واستيقظت زوجته وهى تحس بآلام فى قدمها وتوتر فى أعصابها من ارهاق الليلة الماضية وبدأت تعقص شعرها النحيل لتجعل منه عقدة .

لم يتوقف سام ليغسل وجهه ، بل انطلق على الفور الى مخزن الحبوب .. ونهضت زوجته على عجل وغمست وجهها فى حوض الماء ، ثم وضعت الغلاية على النار ، وشرعت تجهز الفطور وأيقظت أطفالها مع علمها بأن الوقت مبكر ، بينما ترتب فى ذهنها ما تريد شراءه : بكرتى خيط ، وست ياردات من نسيج قطنى ، وعلبة بن ، وجوارب للاطفال .. هذه الاشياء لابد من شرائها من بين مالايحصى عده مما تحتاج اليه .

وسرعان ما اندفع الاطفال ، فى اضطراب ، من ظلام الدور العلوى لارتداء ملابسهم قرب مدفأة المطبخ ، ارتعدت أطرافهم وقد رفعوا أقدامهم العارية عن الارض الباردة وكأنهم أفراخ وسط الجليد المتساقط ، تشيع بينهم هيجة وزمجرة ويغشاهم انكسار .

تحملت الام ذلك لحظة باصدار الاوامر لهم بالتزام الصمت .

ولما نفد صبرها حملت على تلك الطغمة المتنازعة تلطمهم ذات اليمين وذات الشمال .

تناول الاطفال طعامهم على ضوء مصباح النفط ، وعاد سام عند الفجر الى عمله فى فناء المزرعة ، وما انفرد الاطفال بأمهم حتى أخذوا يعاكسونها لتسمح لهم بالذهاب معها الى المدينة ، غير أنها أخبرتهم بأنه لن يذهب معها الا الطفل الرضيع على حين يتولى أبوهم حمل القمح فى العربة .

أعدت الام أطفالهـــا للذهـــاب الى المدرســـة وأتمت عملهـــا فى المطبخ ، فشعرت بالضعف بعد هذا الجهد فدلفت الى حجرة النوم الباردة القريبـــة من حجرة الجلوس وارتديت أحسن ملابسها ولم يكن بالثوب اللائق بعـــد أن ضوى جسدها وبدأ الذبول حول كتفيهـــا وخصرها • رقدت على فراشها لحظـــة لتسرى عن نفسها ما تحسه فى ظهرها من ألم سمج • وفى لحظة كرهت انبعاثها الى المدينة على الاطلاق ، فالـكرى كان يداعب جفنيها ، ولكن شبح يومهـــا المتطاول المملول الذىينتظرها فىالقرية محا كل ماتجده من رهق ، فنهضت تعد طفلها الرضيع لهذه الرحلة •

وبعد شروق الشمس بقليل بدأ سام سيره عبر الطريق الى المدينة متوجها الى بلبلين وامرأته وراءه منكفئة على أكياس القمح وبحضنها يتشبث الطفل ، وعلى ركبتيها غطاء من قطن •

حاول سام أن يكون دمث الاخلاق ، فاخذ يتحدث اليها فى الفينة بعد الفينة وان كانت لاتفهمه الا اذا استدار نحوها تطلع الطفل الى الأعواد التى يتكون منها سياج المزارع وحرك يديه من قفازهما فى كل فرصة تعبيرا عن مرحه • وكان الجو يزداد دفئـــا على مد الطريق ، وهبت ريح من الجنوب واستقر التراب على شال المرأة وقبعتها وانحل شعرها وتناثر حول وجهها دون انتظام ، امتاز الطريق المتجه عبر البرارى المرتفعـــة بالملامسة والجفاف بيد انه لم يخل من مواقع هزتها فزاد هذا من آلام ظهرها ، ولم يكن لديها ماتتكىء عليه وازداد ثقل الطفلحتى اضطرتأن تضعه علىالزكائب التى تقع الى جوارها مع انها لم تستطع لحظة أن تخفف من قبضتها عليه •

تبدت البلدة على مدى النظر مجموعة من المنازل موحدة الطراز ومن المخـــازن الصغيرة المطلة على الشرارى الجـــافة الى جوار محطة السكة الحديد ، ولميصادفوا بعد فى رحلتهم أشجارا مظلة ، فغطت أشعة الشمس القـــاسية كل شىء دون هوادة على أنهم شـــهدوا بعض الدواب مربوطة فى أماكن شتى ، وقليـــلا من الرجال السمر ، وجوههم فى ســـمرة الجلد، يجلسون فىاطمئنان تحت المخازن وحواشى قبعاتهم تبرز الى أعلى وتتدلى الى أسفل •

أنزل ماركهام زوجته من العربـــة ، وتركها فى أحد متاجر البقالة واتجـــه الى السوق ليبيع حنطته ، تكلف البقال فى تحيته لزوجة السيد ماركهام دون اكتراث ، وقدم لها مقعدا فتلقته من يده وجلست ربع ساعة دون أن تتحرك وهى متكئة على ظهر المقعد المرتفع ، وأخيرا بدأ القلق والاضطراب يظهر على الطفل فقضت الام زهاء نصف ساعة ، وهى تساعده على أن يسلى نفسه •

وأخيرا نهضت وخرجت الى الممشى وهى تحمل طفلهـــا ويممت الى مخزن الاطعمة الجافة وجلست على أحد المقاعد الصغيرة المتحركة • فالفت امرأة تشترى بعض الاقمشة الصوفية لتصنع منهـــا ثوبا ثمن الياردة منها سبع وعشر سنتا وعدها البائع بتخفيض سنتين منها اذا اشترت عشر ياردات، وتمنت الام لو أن معها مايكفىمنالمال لتشترىلطفلتهامارى حلة من هذا الصوف، وقدمت على المتجر صبية صغيرة مرحة ، هىابنة البقال ،

ثم تحدثت الى البائع واشترت قفازين وحزنت الام للسعادة التى تحظى بها أمثال هذه البنت ، ولما عاد زوجها سام سالته بعض النقود :

ـ ماذا تريدين أن تفعلي بها ؟
ـ أن انفقها .

ولما رأىأنه لايستطيع اسكاتها اعطاها دولارا واحدا فطلبت منه ثانيا .

ـ حسنا . ينبغىأن أذهب الىالمصرف فليس معى عملة صغيرة .

ـ ان الاطفال فى أمس حاجةالى بعض الملابس الداخلية الجديدة فأعطاها صكا بدولارين فاشترت نسيجاقطنيا وجوارب للاطفال وخيطا ، ثم جلست مستندة الى منضدة صراف المتجر .

انتصف النهار فأحست بالجوع وذهبت الى العربةوأحضرتطعامها الذى أعدته وقصدت متجرا لتأكل حيثيسعها ان تجد شربة ماء ! أعطى البقالقطعةمن الحلوى الرخيصة وأعطى امها تفاحة ونصحها أن تتناول طعامها ففعلت ثم انصرفت اذ شعرت بالخجل من جلوسها هناك مدة أطول . ودلفت الى مخزن لبيع الأطعمة الجافة مما يجلب من الريف . سالها كاتب المتجر وقد اتجه نحوها ان كان لديها ماتبيعه فردت بالنفى وانصرف الرجل فى غير مبالاة .

أخذت تذرع الشارع جيئة وذهابا على غير هدى ودون أن تجد مكانا تستريح فيه . لم تعرف ماذا تصنع فهى لاتعرف أحدا هنا الا البقال . وامتلأت بالمرارة عند رؤيتها سيدتين تمران بها وقد تزيت كل منهما بثوب من آخر طراز ، ومرت بها سيدة أخرى تدفع أمامها عربة أطفال يجلس فيها ولد ، فى مثل عمر ابنها ، وهو يتقافز ، ضاحكا صائحا ، الى أعلى والى أسفل على الحشية المطاطة للعربة ، وقد تألق وجهه المستدير النظيف تحت قلنسوته الأنيقة التى زركشت حواشيها ، فصعدت الأم النظر فى طفلها الهزيل بملابسه المغبرة ووجهه القذر واندفعت فى سيرها بقسوة الى الامام .

أقبلت علىحانوت لبيع الأشربة الفوارة فأحست بالظما يشتد بها ، فارتدت الى الشارع من جديد ، سيطر عليها القلق وهى لا تعرف سبب ماتعانيه من ضيق ... أجل انها تفتقد زوجها اذا فلتنتظر أوبته . وما هى الا لحظة حتى ترامت الى اذنها ضحكات سام زوجها فلوت رأسها فرأته فى ثلة من اصدقائه قربحانوت الحداد . انه يقضى وقتا طيبا وقد نسى كل شىء عنها ...

دب الالم فى ظهرها وزاد الى حد يفوق احتمالها فقررت أن تعود ثانية الى حانوت البقال لتجد شيئا من الراحة فى الجلوس على المقعد الذى يقدمه لها . ازداد غضب الطفل وتبرمه فاشترت قطعا من الحلوى بخمسة سنتات لاطفالها فى البيت ، وأعطت الطفل نتفه صغيرة منها حتى يسكت . وتمنت حضور سام بعد أن تأخر الوقت فقد جاوزت الساعة الواحدة بتثاقل . مرت اللحظات وئيدة متثاقلة الخطى وشعرت انه لابد أن تؤدى شيئا وهى فى البلدة . تصفحت فى ذهنها ما تريد أن تشتريه ... لم هذا فقليم ... ان ما تحتاجه يزيد ثمنه على عشرين أو ثلاثين دولارا على الاقل ، وهى وزوجها يحتاجان الى ملابس داخلية للشتاء البارد غير أنه لا مهرب لهما من

اتخاذ الملابس القديمة مع تهلهل نسيجها ونصول لونها ، فكرت بمرارة فى أنها لا تحتاج الى ثوب لأنها لا تذهب قط الى مكان آخر غير بيتها والسوق ... لكنها نهضت ثانية الى الشارع وأخذت تخطو من مكان لآخر متطلعة يمنة ويسرة الى كل شىء عسى أن تجد بعض المتعة ...

الى جانب الطريق وقف رجل ، من بلدة بون جريك ، يسند حملا من التفاح حتى يعـود البقال . ولاحـظ الرجل الغريب السيدة ماركهام وطفلها فأعطى الطفل تفاحة . وتهـلل وجه الرجل بالبشر والارتياح لما فعل اذ رأى أمامه زوجة فلاح عادى فى ثوب أغبر وشعر أشعث ووجه متعب . لم يعرف بالضبط لماذا استشعر الرأفة بها ، غير أنه حاول اضفاء السرور عليها .

اعتاد البقال رؤية هـؤلاء القرويات التاعســات اللائى تعـوزهن النظافة والراحة وألف جلوســهن ساعات فى مقعـده الخشبـى وهن يرعين أطفالهن المكدودين البائسين وألف أيضا تجوالهن فى الشــارع ، على غير هدى ودون ما هــدف ، فى خذلان وذلة وحـزن واستسلام ... وكل هذا لم يحرك فى البقال ساكنا ولم يحمل اليه معنى .

وعلى مسيرة دقيقتين من مخزن البقالة يقع منزل صغير جلس فى احدى حجراته رجلان وسيدة ، على وشك الانتهاء من غداء أنيق ، وقد ارتدت السيدة ملابس بيضاء بسيطة أضفت على المكان جوا من الوداعة والراحة الكاملة ولم يكن هـذا المنزل الذى يقطنه الســيد هول أفخم منازل البلدة لكن زوجته جعلته أكثرها اناقة وجاذبية . والسيد هول من أشهر المحامين فى هذا الاقليم ، كما أنه رجل ذو ثقــافة عالية وآراء متحـررة ، وقد استضاف فى هذا اليوم صديقا له ألقى محاضرة فى الليلة السابقة فى كنيسة البلدة

لم تكن المناقشة بين الحاضرين جدية ، فقد كان الحديث خفيفا بعض الشىء . وللسيد هول قدرة على تقليد بعض الرجال باداء بعض مواقفهم وما يبدون من حركة أو اشارة . وكان يصف لصديقه الذى حضر من شرق الولايات المتحدة بعض المحامين القدماء الذين عرفهم أثناء مزاولته المهنة فى الغرب بطريقة مســلية ، وضحك الضيف من كل قلبه لهذه الطرائف .

وبعد قليل تحقق السيد هول أن السيد أوتيس لا يصغى اليه ورأى أنه يتطلع من النافذة الى شخص ما وقرأ على وجهه مسحة من الكآبة والضيق .

ــ ماذا ترى يا سيد أوتيس ؟

ــ أرى امرأة متعبة مكدودة .

واذ ذاك نهضت السيدة هول وتوجهت الى النافذة فرأت السيدة ماركهام وهى تســير الى جوار المنزل ، وطفلها بين ذراعيها ، الحزن مرتسم على وجههــا وشفتيها ، والدموع تترقرق فى عينيها وفى ظهرها ضعف وفى مشيتها تعثر . وبعـد فتـرة من استئناف السيد أوتيس يقول: رأيت هذه المغلوقة الفقيرة البائسة مرتين هذا الصباح ولن أنساها . وسألت السيدة هول بكل رقة : من تعنى ؟ .

ــ ان اسمها ماركهام هى زوجة سام ماركهام تقدمت السيدة الصغيرة الجميع الى حجرة الجلوس واتخذ الرجال مقاعدهم ، واشعلوا لفائف التبغ وفكر السيد هول

فى تحويل مجرى الحديث حين استأنف السيد اوتيس الكلام فجأة قائلا :

- قدمت هذه المرأة إلى البلدة للترويح عن نفسها ، وهى تجوس هذا الشارع كقط جائع أضناه التعب ، فهل يوجد فى هذه البلدة سيدة لديها من الشفقة والشجاعة ما يدفعها للخروج لمساعدة هذه المرأة،ان الأندية ومجامع السياسيين وحوانيت البقالة زودت زوجها بالتسلية حتى انه نسى زوجته وتركها دون كلمة.

وهنا سقطت من يد السيدة الخيوط التى كانت تنسجها وارتسم الألم على وجهها الجميل ، وكان كلمات الرجل قد جرحت كبرياءها ومست شغاف قلبها فاخذت قبعتها واسرعت الى الطريق فنظر الرجلان بعضهما الى بعض ثم قال الزوج : يبدوان الهواء يحتبس والرطوبة تزداد فى هذا المكان ، واقترح أن نخرج للنزهة مترجلين .

شعرت دليا ، السيدة ماركهام ، بيد تربت زراعها وهى جالسة فى ركن مخزن البقال .

- يبدو عليك الاعياء ياسيدة ماركهام فهل تسمحين بالراحة فى المنزل بعض الوقت ، أنا السيدة هول

استدارت السيدة ماركهام والدهشة على وجهها ، والجواب محتبس على لسانها أن شيئا مافى وجه السيدة هول الصغير الحلو يمنعها من الكلام وأخيرا قالت وقد انبسطت تقطيبة جبينها :

- اشكر عطفك، ان هذا وقت الرجوع الى البيت ، انى أبحث عن زوجى .

- تفضلى بالدخول بعض الوقت ، فالطفل غاضب نهكه التعب .

وهنا أذعنت السيدة ماركهام لهذا الصوت الصديق ودلفت السيدتان من البوابة على حين خرج الرجلان من الجانب الآخر

- دعينى أخفف عنك ياسيدة ماركهام

- ان الطفل تعلوه غبره .

- أه .. ما أكبره ، ليس لدى طفل .

ومرت نظرة بين السيدتين كشرارة كهربية أصبحت بعدها داليا ضيفتها المطيعة دخلت السيدتان فى حجرة الجلوس وهى حجرة أنيقة وجميلة فى نظر زوجة فلاح ، وعندما غاصت فى الكرسى الوثير بدت وسنانة من فرط السرور وترطب حلقها الجاف بشىء بارد ، وانبعثت فى باطنها موجة دافقة من الرضاء ، استسلمت لتمشيط شعرها واسلمت الطفل الى يد فتاة سويدية تعمل فى المنزل فغسلت وجهه ويديه وغنت له لينام ، على حين كانت أمه ترتشف الشاى وقد زال الالم من ظهرها وتوقف رأسها الساخن المتورم عن الدق .

رات السيدة ماركهام كل شىء ، المعزف واللوحات والستائر وورق الحائط وحمالة الشاى ، وكان كل هذه الادوات قد اغتبطت بحضورها مثلها فى ذلك مثل الطعام والشاى العاطر ، وهى لم تر أبدا ادارة للمنزل كهذه الادارة ، فأمها طول حياتها ، أبلت بخدمتها فى المنزل أرضية المطبخ فى بيوت أكثر اتساعا وفخامة غير أن سحر مضيفتها ينحصر فى تنظيم زهرياتها ومقاعدها ولوحاتها مما يشهد لها بالذوق الجميل .

لم تسالها السيدة هول عن شئونها بل تحدثت اليها عن الطفل الصغير القوى

وعما وقعت عليه أنظارها فى هذه الزيارة واذا بدا اهتمامها بزهرية مثلا شرعت تحدثها عنها حديثا يناسبها ، كما رأت داليا كل اللوحات والكتب وكان السيدة هول قرأت أفكارها فابتعدت فى الحديث معها عن مزرعتها وشئونها الخاصة جهد امكانها ، وأخيرا رفعت غطاء البيان ، وغنت لها لا الالحان الدينية البطيئة ، ولكن أغانى الحب العامرة بالعاطفة ٠٠ أدركت سيدة المنزل أن زوجة الفلاح كانت تتفحص يديها وقرطيها وومضات أصابعها على مفاتيح البيان ، ورأت أكثر مما سمعت وخلال هذا كله ظهر انها هى أيضا قضت وقتا طيبا ٠

انتبه الجميع فجأة على ضوضاء عربة فى الخارج وكان الزوج سام ينتظر على البوابة ، فنهضت السيدة ماركهام بسرعة وهى تلتقط انفاسها من الدهشة وتنظر خارج النافذة

ـ أوه ٠٠ كادت الشمس أن تغيب ٠

ـ أجل ٠٠ أن هذا لايضير أحدا ٠ ٠ لاتسرعى ٠٠ خذى الطفلة ياكارى الى العربة ، أما انا فأساعدها فى بعض شئونها ٠

ـ لقد قضيت وقتا طيبا ٠

وأمنت السيدة هول على كلامها ، ثم حملت الطفل لحظة عند صعود السيدة ماركهام الى العربة وصاحت عندما ضمته اليها ٠

ـ أوه ٠ أيها الشاب الكبير السمين مستر ماركهام يجب أن تحضر زوجتك هنا كثيرا ٠

ـ شكرا لك ٠ سوف أحضرها ٠

ـ وداعا ياعزيزتى ٠

أما الشفقة والحنان الباديان فى صوت المضيفة فقد جعل دموع الفرح تترقرق فى عينى داليا ٠٠ دموعا ليست بالساخنة ولا بالمرة بل دموعا طمانت نظرتها وصفت أفكارها ٠

هدأت الريح وهبطت أشعة الشمس الحمراء بين الضباب على عالم الحنطة وبقاياها المتروكة فى الارض بعد الحصاد وكان الصرصور يزقزق والماشية تتحرك صوب المزارع ، لقد جعلت العاطفة الانسانية من هذا اليوم يوما جميلا ٠

بقايا المعركة

قصة مصرية

بقلم : فؤاد القصاص

القاهرة فى ليلة آخر ديسمبر ..

فى قمة جمالها وررونقها .. حتى لتبدو كعروس فاتنة لم تبق غير لحظات وتزف الى فارس الأحلام ..

والشوارع تموج بالناس .. من كل نوع .. يحلمون بلحظات هنيئة يختلسونها من عمر الزمن ! ..

وملك الليلة.. بابا نويل .. بذقنه البيضاء كالثلج وضحكته الصافية قد احتل عرشه خلف الواجهات الزجاجية .. يسبح فى الاضواء الملونة .. وفى عينيه رقة وحنان وحب لا تكون الا فى عيون الملائكة ! ..

ووسط هذه الكتل المتدفقة من البشر كان (عادل) يشق طريقه فى صعوبة حتى وصل الى منتصف شارع سليمان باشا .. فوقف يلتقط انفاسه والزحام يكاد يخنقه .. ونظرات بابا نويل الصافية تتساقط فى قلبه .. كقطرات من السعادة !

ما اعجب بابا نويل هذا ! . انه لا يعيش كل عام غير ليلة واحدة .. هى كل عمره .. ولكنه ـ حتى هذه الليلة اليتيمة ـ يمنحها راضيا سعيدا ليملأ قلوب الناس بالبهجة وحب الحياة ! ..

انه لا يبخل بعمره القصير فيجود به فى سخاء عل الناس ينسوا أحزانهم وجفاف حياتهم .. أو لعلهم يتخففون من لوعة فراق العام القديم ورهبة لقاء العام الجديد ! ..

وتنهد عادل فى اسى . كانما قد حرك المنظر شجونه ! ..

وقال لنفسه وهو يمضى فى طريقه :

ـ كم من الناس يهبون حياتهم من اجل المجموع .. مثل بابا نويل هذا ؟ .

ونظر فى ساعة يده كانما ليهرب من افكاره .. وقالت له الأرقام .. انه بعد ساعة .. يموت عام ويولدعام !..

واسرع من خطاه .. لقد تأخر عن رفاقه ـ مجموعة من اصدقاء الصبا ـ الذين واعدهم على أن يحتفل معهم بلقاء العام الجديد ! .

وبعد قليل كان يدخل عمارة كبيرة

فى ميدان سليمان باشا ولم يلبث ان احتوته شقة انيقة فى الدور السابع..

واستقبله اصدقاؤه بسيل من كلمات العتاب !

ـ لماذا تأخرت ؟

ـ أين كنت ؟

ـ ومع من ؟

ـ لا بد أنها واحدة ..

واسكتهم باشارة من يده وهو يقسم لهم انه كان نائما ولم يستيقظ الا منذ ساعة وبعضها ، ولكنهم مضوا يسخرون منه فى موجة مرحة من التهريج ، وقد بدا عليهم انهم على وشك ان يثملوا لكثرة ما غبوا من الخمر .. فالزجاجات امامهم قد ذهب منها اكثر مما بقى فيها ! ..

ومضت الدقائق فى حديث متصل كثيرا ما تشعب ، ولكنه ظل يدور حول حياتهم وذكرياتهم ايام الدراسة .. وغراميات صباهم يوم كانت القلوب مترعة بحب الحياة خالية من هموم الأيام .. ومسئولية اليوم والغد التى ما أن حملوها حتى سرقت أعمارهم وأحلامهم والقت بهم على أبواب الأربعين .. رجالا مهمومين قد ضاع شبابهم ولم تبق منه غير شعيرات سوداء تجاهد فى صلابة لتبقى بين الجيش الزاحف من الشعر الابيض يعلن فى صرامة أن النهاية على الابواب !..

وبدأت الحسرة تنساب فى زفرات مكتومة من الأفواه فانطلقوا يهربون من الواقع بين أحضان الكاس ! .

وكان الوقت قد اقترب من منتصف الليل حتى لم تبق غير دقائق .. ويذهب عام بكل ما فيه من أحداث وصور .. ويجىء عام .. بكل مافيه من مجهول ؟

وتسلل شعور بالكآبة الى نفوسهم فران عليهم الصمت .. وانطوى كل على نفسه .. والأسى يقطر من نظراتهم !

وفجاة رفع احدهم كاسه وهتف فى مرح مصنوع :

ـ انا اتحدى الغد أن يأتى .. تراهنون ؟

ولم يجبه أحد حتى ولا بابتسامة !

وعاد يقول وكانه يخطب :

ـ مم تخافون يا جبناء ؟ من الموت ؟ لن تموتوا هذه الليلة .. أنا أعدكم بشرفى ..

واطلقت الخمر لسانه فاخذ يهذى بكلمات من أسطورة قديمة تقول: انمن يحب لا يموت .. ثم دعاهم فى النهاية الى البحث عن الحب حتى يضمنوا الخلود ! .

وصفق له الجميع . .وبدأ المرح يعود الى المكان من جديد ..

ونظر عادل الى ساعته .. كان الوقت منتصف الليل ..

وأطفئت الأنوار .. وساد الصمت المكان .. وغرق كل فى أفكاره .. وعندما أضيئت الانوار معلنة مولد العام الجديد ، أخذ الصديق المرح ينقل نظراته بين الجميع فى حيرة .. ثم هتف بهم وقد استبد به الثمل :

ـ لقد كذبت عليكم .. أنا لا أضمن لكم الفرار من عزرائيل .. ولكنى ـ

وأقسم لكم ـ اكتشفت لحظة الضلام اكتشافا خطيرا ! ٠

وسألوه فى صوت واحد وقد علت الابتسامات شفاههم :

ـ ما هو ؟ ..

ـ انكم ـ وأنا معكم ـ ستموتون !

وأغرقوا جميعا فى الضحك ..

ومضى الوقت فى مرح وصخب ، حتى اذا اقتربت الساعة من الثانية صباحا نهض عادل لينصرف .. وقد أصبح الجميع سكارى .. الا هو فقد أبى أن يقرب الخمر فى ليلته .. رغم الحاحهم !

وحاولوا أن يستبقوه معهم ، ولكنه أخبرهم بأنه سيستقل سيارته على الفور الى بور سعيد ..

ـ الى بور سعيد ؟ لماذا ؟

وقال باقتضاب وهو شارد النظرات :

ـ لدى موعد هناك ..

وتصايح الجميع غير مصدقين :

ـ فى الفجر ؟

ـ مع من ؟

وانطلقوا فى تعليقات ساخرة حول الحورية المجهولة التى يلتقى بها عادل فى أول كل عام مع الفجر ..

وحاولوا أن يحملوه على أن يقول لهم من تكون هذه السعيدة ، ولكنه ضن عليهم بسره الكبير حتى لا تلوكه ألسنتهم بسوء .. وهم سكارى ! ..

وعندما أقبل الفجر بأضوائه الوردية، كان عادل يقطع الطـــريق من قلب بور سعيد .. الى المقابر ..

وأمام قبر متواضع لا يميزه شىء عما حوله ســوى قطعة صغيرة من الرخام كتب عليها بمداد أسود : « فتحى كامل .. استشهد فى بور سعيد » .. وقف عادل مطرقا برأســه لحظــات .. وقد جاشت فى صدره الذكريات ؟!

بورسعيد .. وقوات العدوان الثلاثى تطحنها من البحر والبر والجو .. وهى صامدة تقاتل فى بسالة أسطورية .. وعادل واحد من شباب المقاومة الذين وفدوا على المدينة من العاصمة .. فى يده ســلاحه وفى قلبه ايمان لا يهتز الا بالنصر ! ..

وفى اليوم المشهود ، عندما بدأ العدو يلقى بقــوات المظلات على المــدينة التى أبت أن تستسلم ، كان عادل يربض مع رفاقه فى مدخل بور فؤاد من جهة البحر .. عنــدما أقبــل شاب يحمل مدفعا رشاشا وقال لعادل فى صوت أشبــه بالصراخ ، ان مظلات العدو بدأت تهبط فى مطار الجميل ..

وجمع عادل رفاقه وانطلقوا مع الشاب المجهول نحو ميدان المعركة والحمــاس يكاد يطــير بأقدامهم .. بينما عادل يرقب الشاب بنظرات مختلسة فيهــا الكثير من الاعجاب .. فقد كان وجهــه هادئا لا ينم عن أثر للاضطراب أو الخوف، وان كانت نظراته تشع بالتحفز والعزم !!

وهمس الشاب من بين أسنانه دون أن يلتفت نحو عادل :

ـ سنمزقهم .. هؤلاء الكلاب !

كان يتكلم بلهجة أبناء السواحل .. وسأله عادل عما اذا كانت له وحــدة يقاتل معها ..

وهز الشاب رأسه علامة النفى ، ثم قال فى بساطة: ان أهله جميعا قتلوا فى احدى غارات الأمس ·· وانه ذهب الى معسكر المقاومة الشعبية فاعطوه سلاحا. أقسم ألا يتركه حتى يثأر لأهله ، وحتى تنتصر المدينة ! ··

وأنهى الشاب قصته القصيرة بأن اسمه فتحى كامل وبأنه كان طالبا فى مدرسة بور سعيد الثانوية··

وأحس عادل بألفة عجيبة تربطه بفتحى ·· لعلها حداثة سنه ·· ولعلها حماسة المتدفق ·· ولعلها الكارثة التى حلت بأهله ·· أو لعلها المعركة الواحدة التى سيخوضان غمارها بعد لحظات دفاعا عن حرية وطنهما وكرامته ! ··

وبدأت طلقات الرصاص تقترب يصحبها دوى انفجار القنابل وأزيز الطائرات المنقضة ·· وبعد قليل كانت الجماعة الصغيرة قد أصبحت فى خط النار ·

وكانت المعركة فى عنفوانها ·· الشعب على الارض يقاتل فى عناد عدو يفوقه فى كل شىء ·· كما وكيفا ·· والطائرات المغيرة تكتسح المدافعين



برشاشاتها لتمهد مكانا لجنودها الهابطين ..

وبلا تردد ، ألقت الجماعة الصغيرة بنفسها فى معمعة القتال .. يحاولون بنيرانهم تشتيت قوة للعدو تمكنت من الهبوط فى طرف المطار وأخذت تقاتل لتثبت أقدامها .. ولكنهم لم يلبثوا فى دفاعهم عن نقطة ارتكازهم الا قليلا .. فقد استطاعت النيران المصرية المركزة أن تبيدهم عن آخرهم ..

وفجأة ، رأى عادل زميله فتحى يقفز الى الخلف فى سرعة ثم ينطلق يعدو بكل قوته فى اتجاه جماعة من جنود العدو أخذت أهبتها لمفاجأتهم من الخلف ..

وكان فتحى ما يزال يعدو دون حذر وكأنه فى مباراة للجرى ، حتى اذا أصبح جنود العدو فى مرمى نيرانه ، ارتكز على ركبتيه وبدأ يطلق مدفعه فى عنف .. وبينما كان جنود العدو يتساقطون كالفراش ، كان عادل يسرع لنجدته .. ولكن فتحى ما أن رآه حتى صرخ فيه يطلب منه الانسحاب مع رفاقه الى موقف آخر بينما يقوم هو بحمايتهم .. فى تلك اللحظة انقضت احدى طائرات العدو وفتحت نيرانها .. فسقط فتحى يسبح فى بركة من الدم .. وأسرع عادل نحوه ـ تحت وابل من رصاص العدو ـ فحمله بين ذراعيه وانطلق به بعيدا عن أرض المعركة ..

وفى المستشفى ، بدأ الاطباء يعملون فى سرعة لانقاذ حياته ، فبتروا له ساقيه وخاطوا جراحه .. ولكن حالته ازدادت سوءا .. وبدأت حياته توشك على المغيب .. لكثرة ما نزف منه من دماء ..

وتبادل الأطباء النظرات ، وقرأ كل منهم فى عينى الآخر سؤالا واحدا يبحث عن كمية من الدم .. وارتسمت فى عينى كل منهم نظرة يأس مريرة !!

وعندما أدرك عادل المأساة ، مد لهم ذراعه وطلب منهم أن يأخذوا من دمه ما يشاءون .. وأجروا تحليلا سريعا ثبت منه أن دم عادل من نفس الفصيلة التى يريدونها .. وترقرق الامل فى العيون فقد بدا أن القدر يحابى الجريح .. الذى لم يلبث بعد عملية نقل الدم أن بدأ يسترد وعيه ..

ومضت الأيام ، وانتصر الوطن فى معركة حريته .. وخرج العدو يجر أذيال هزيمته .. بينما بور سعيد المثخنة بالجراح قد أخذت تنفض عنها غبار المعركة وتبنى نفسها من جديد !

وكان فتحى ما يزال طريح الفراش بالمستشفى تتأرجح حياته بين الأمل واليأس .. وجسده الضعيف الممزق فريسة لنوبات النزيف التى بدا انها تتآمر على حياته ..

وكان عادل يزوره بين الحين والآخر فيجلس اليه ساعات .. يحاول خلالها أن يملأ قلبه بالأمل وحب الحياة .. حتى ينتصر فى معركته مع الموت ! ..

وفجأة ، وقعت الكارثة !

فى ليلة آخر ديسمبر .. والوقت بعد منتصف الليل .. تلقى عادل حديثا تليفونيا يستدعيه سريعا الى المستشفى ..

وبعد دقائق كان عادل واقفا أمام فراش فتحى والطبيب يخبره بانه أصيب بنزيف شديد منذ ساعات وفشلت جميع المحاولات لانقاذ حياته

.. وانتابته غيبوبة كان لا يفيق منها الا ليردد اسم عادل ..

وحرك فتحى رأسه وفتح عينيه .. وعندما رأى عادل جاهد ليبتسم .. فبدت ابتسامته فى وجهه الشاحب كضوء القمر فى ليلة غائمة ! ..

وهمس فتحى فى صوت خائر :

ـ لقد أزعجتك ما فيه الكفاية .. انى ...

وقاطعه عادل وهو يربت بيده فى حنان :

ـ لا تقل هذا .. ألسنا أصدقاء ؟ .

وهمس فتحى بصوته المرتعش الضعيف وهو يجاهد لتخرج الكلمات واضحة مسموعة :

ـ نعم أصدقاء .. لهذا أوصيك بأن أدفن فى مدينتى .. بور سعيد ..

وهتف عادل وقلبه يتمزق :

ـ لا تتحدث عن الموت .. أرجوك .. انك ستعيش .. ستعيش ..

وابتسم فتحى فى مرارة ثم همس وقد ازداد صوته ضعفا :

ـ هل تزورنى .. ولو مرة كل عام ؟ .

وصرخ عادل فى انفعال :

ـ لن تموت ! . لن تموت ! .

وهمس فتحى فى سخرية :

ـ هل خدعك الطبيب ؟ يا صديقى .. لن يجىء الفجر .. الا وأكون قد انتهيت ..

وقال عادل فى رقة وهو يجاهد ليحبس دموعه :

ـ من قال هذا ؟

وأوقفه فتحى باشارة من يده ثم مضى يقول :

ـ أنا أعرف نفسى .. عدنى .. أن تزورنى ..

وبدأ صوته يخفت .. وازداد شحوب وجهه .. وانطفأ ما تبقى من بريق عينيه .. ولكنه استطرد فى صعوبة :

ـ انى أرى الفجر .. الفجر .. الفجر ..

وسقط فى غيبوبة ...

وانفجر عادل باكيا ...

ومضت ساعات جاهد خلالها الأطباء بكل ما يملكون من علم ومعرفة لانقاذ حياته .. ولكنه ظل فى غيبوبته ..

ومع الخيوط الأولى للفجر .. أسلم فتحى الروح ..

مع مشرق الصباح الجديد ، كان عادل يدلف بسيارته الى قلب القاهرة .. التى كانت ما تزال نائمة اثر سهرة الأمس الصاخبة .. فبدت لعينيه كعروس أرهقها عبث الليلة الاولى !

وغادر السيارة ، ومشى فى بطء يتطلع الى الحوانيت المغلقة .. فرأى بابا نويل بذقنه البيضاء كالثلج مايزال واقفا خلف الواجهات الزجاجية .. انه مثله لم يعرف النوم فى ليلته .. ولعله أيضا مثله يعيش هذه الليلة من كل عام .. من أجل ذكرى تملأ قلبه ولا يعرفها غيره !.

وتثاءب وأحس برغبة عاصفة الى النوم .. وتذكر أصدقاءه .. لا شك أنهم يغطون الآن فى نوم عميق .. بعد أن طال انتظارهم لعودته .. فلا ريب أنهم كانوا يتقاسمون فضولا ملحا الى سماع ما حدث فى ليلته .. مع حبيبته المجهولة التى سرقته من صحبتهم !!

اتجاهات جديدة في الرواية الأوروبية

بقلم : د. سهير القلماوى

ولكن يخفف نوعاما من طغيان الأشياء على الانسان فى الرواية الحديثة ، بل من امتيازها بشخصية خاصة تناطح الشخصية الانسانية وتنازعها مجالها وأهميتها ، اعتراف الروائيين الجدد بأن كل هذه الأشياء انما تحمل مبررات دخولها الرواية من كونها من مقتنيات الانسان • انه الانسان هو الذى يضفى عليها حبه واهتمامه عندما يتنقاها بمختلف الحواس فى مختلف الظروف • ولذلك نجد روائية مثل « مرجريت دوراس » فى روايتها « بعد ظهر السيد آندسماس » تصف هذه الأشياء فى غناء شعرى موسيقى فاذا بهـــا تكتسى من هذا الاسلوب المتغنى فى الوصف حلة ملائكية أثيرية منسوجة من ظلال خطر الموت والفناء الزاحف عليها •

وفى هذا الجو نرى ان موضــوعات السياسة والعلاقات الدولية والتجارة والصناعة كلها تأخذ أبعادها الحقيقية فتتضاءل أهميتها أثناء عملية ادراجها ضمن الاهتمامات الشخصية الصــغيرة التى تحفل بها حياتنا اليومية • ان الحدث القصصى نفسه يصبح عاديا غير جذاب ، يصبح أوضح وأصرح من أن نضـــيع فيه الوقت ؛ والموضوعات الجنسية تأخذ أيضا وضعها الحقيقى فتدخل ضمن ما يهتم به الانسان ، وتصبح بعضا من شواغله وان تزعم أحيانا هذا البعض •

وكثيرا ما نرى فى موضوعات الجنس مجال سخرية أو وسيلة اضحاك عندما يبرز الروائى بعض المظاهر العادية المعروفة التى يتعرف عليهـــا القارىء بسرعة لأنها مألوفة عادية ، ولكنها رغم عاديتها لم يلحظها الروائيون القدامى مع انهم قتلوا الموضوع بحثا • ان مجرد تغيير الزاوية التى منها ننظر الى الموضـــوعات ، أو مجرد تغيير سلم ترتيب هذه الموضوعات أو مجرد تحوير العلاقات بين هذه الموضوعات بعضها البعض ، ان مجرد هذا يفجر أمامنا مواقف جديدة فريدة ، بل انه يفجر عالما آخر يذخر بالغرائب والعجائب • ومن هنا يحس الروائى الجديد بالأمل المنعش الذى يحفزه على مزيد من التجديد •

ان فى الحياة معينا لا ينضب من المواقف : من العواطف والمعانى تتجلى فى كل هذا الخضم المتروك من صغائر الأعمال أو صغير العواطف • ان دقتها وصغرها بل تفاهتها أحيانا لا تمنعها من أن تكون ممتعة رقيقة حرية بالتامل والتصوير • ان هذه الأشياء كلها قد ارتفعت الى نفس المستوى الانسانى أو لقد نزلنا نحن الى مستواها ، وفى الحالين أصبحنا نراها على نفس المستوى ، وانه لمن الممتع حقا ان نراها بعد أن تضخمت قيمتها وكبرت فى هذا الوضع الجديد ، فأصبحت مع الانسان على مستوى واحد •

ويؤكد « ناتالى ساروت » ان مستقبل الرواية ليس فى محاولة التماس أدوات تصوير جديدة أو فى تطوير « تقنية » الفن الروائى نفسه ، وانما مستقبلها الحق فى هذا الانفساح لكل شئ فى فتح أبوابها الى كل شئ والى مالا نهاية •

ان الحيل الجديدة والغرائب والشذوذ لا يمكن أن تجدد شباب الرواية ، وانما الرواية تتجدد حين نؤمن ان تقدمها وتطورها انما هو متداخل فى تطور الانسان متشابك مع تقدم الحياة الانسانية ؛ بل ان تقدمها مؤثر فى هذا التطور مكيف لهذا التقدم ، لا بمجرد القدرة على تعيين الطريق أو الاشارة اليه ، وانما بالمساعدة الايجابية على أن تجتاز الانسانية هذا الطريق • فهى تعين الانسان عن قرب على أن يخطو الى مستقبل أرقى وأكثر تقدما •

لذلك ينظر الروائيون الجدد الى الرواية على أنها أرقى من مجرد وسيلة متعة فنية • انها عمل جاد فنى بل علمى أيضا • ويكتب « ميشال بوتر » مقالا بعنوان « الرواية بحث علمى » فيقول : « ان الرواية تقرير علمى عن شئ أهم من مجرد الادب انها طريقة أساسية لمعرفة الحقيقة » •• اننا نسمع تقريرات عما حدث أو قيل أو فعل فى البيت أو فى الشارع أو فى مكان عملنا نسمعها صباح مساء ونسمعها ممن نقابلهم أو ممن نقرأ لهم ، ولكن الرواية ليست تقريرا من هذه التقريرات اليومية عن الأقوال أو السلوك • انها تختلف اختلافا بينا • ذلك انه ليس من الممكن أبدا أن نحقق فيما اذا كانت هذه الأحداث أو الأقوال قد حدثت أو قد قيلت فعلا • اننا نثق بصدقها من صيغة التعبير عنها نفسها • ومن هنا تأتى أهمية الشكل فى الرواية • ولقد تحجر هذا الشكل فى الرواية التقليدية وأصبحت الرواية التى لا تثير أى نوع من التساؤلات هى الرواية المقبولة الرائجة • ولكن عصرنا يتطور بسرعة مذهلة • ولا يمكن أن يلائمه هذا النوع من الروايات ؛ بعد أن تطور العالم كل هذه التطورات • وكما أن تطور العلم يحتاج دائما أبدا الى الحديث من الآلات ، والجديد فيها اليسير قدما نحو مزيد من المكتشفات والمخترعات فكذلك الرواية تحتاج الى تغيير ضخم فى أدواتها لتصل الى أحدث ما يمكن أن يمدنا به العصر • من

أدواتها أن تكشف عن هذه العلاقات المعقدة والصلات الخفية بين البشر ، ثم تصفهـا بدقة وتقدمها تقديما علميا حديثا ٠

وينزل « بوتر » في هذا المثال باللائمةعلى الروائيين الذين لايريدون أن يكسروا قيود التقاليد القديمة والعادات المتحجرة البالية لانهم لا يريد ون للقارىء الا متعة سهلة بحيث لا يجهد نفسه ٠

بل انه ليأسف لأن الروائي الذى يسـاير التارىء أو يمشى على سنن القديم والعتيق ما يزال يحرز انتصارات سهلة سريعة ٠ مع انه بذلك يساهم مسـاهمة مؤسية في أن تظل الانسانية تتحسس طريقها في الظلام ٠ انه لا يكلف نفسه مؤونة اثارة شكوك التـارىء من حيث نظرته الى الحيـاة أو تفسيره لها ، لأنه يورث القارىء الكسل سعيا وراء متعة سهلة ٠ وليس هذا هو قارىء اليوم أو التارىء الذى نريده أن يكون ٠ ان هذه التجديدات في الرواية ليست انحرافا عن الواقعية أو بعدا عن الحقيقة ، وانما هي الشرط الاساسي للوصول الى واقع أعمق وحقيقة أدق ٠ ذلك ان كل شيء حولنا يسـير بفضـل العلم نحو المعرفة الاعمق والأدق ؛ فلماذا تتخلف الرواية في عصر العلم وتنكر آثار العلم الذى أثر في كل شيء ٠ ان الرواية الحديثة أشرف من أن تكون مجرد متعة ، ان لها دورا رئيسيا في النظام الاجتماعي الجديد ٠ انها تقدم بطريقتها بحثا علميا دقيقا منظما في سبيل فهم حقيقة الانسان وحقيقة الحياة الانسانية ٠

والرواية الجديدة كما يراها النقاد الجدد هي الوسيلة الأفعل لرسـم الدور الذى يجب أن تلعبه « الأنا » من الناحية الانسـانية في حيـاة البشر ٠ ان « الأنا » الانسانية تتجاوب أصداؤها في النفس ذاتها كما تتجاوب أصداؤها مع الغير ؛ هذا الغير الذى نحدثه ويحدثنا ننصت اليه وينصت الينا ٠ هذا الغير الذى نصبح واياه شيئا واحدا حينا وشيئا متميزا عنه حينا آخر ٠٠٠ شيئا متصلا بنا ومنفصلا عنا في آن واحد ٠ ان الانسان هو نفسه وهو غيره في ذات الوقت ٠ فالأحوال العقلية والمواقف الشعورية والسلوك كلها تكون الانسان الفرد ، وكلها في الواقع وعند الدرس الدقيق مجال مشاركة وتشابه بين الناس أجمعين ٠ انها تميز الفرد ولكنها تشركه مع غيره في الوقت نفسه ٠ ولذلك يستطيع الروائي ان يستخرج من ذات نفسه أدوارا كثيرة من مجموع هذه الأدوار التي تكون نفسه ٠ وهذه الأدوار تتجاوب وتتفاعل مع القارىء الذى يجد فيها تسرية لنفسه ٠ انه يجد نفسه يشاركها في الرفعة والخسة في الصعود والهبوط أمام مختلف المؤثرات ٠ ولتكن أسماء هذه الشخصيات ما تكون ، بل ولتكن بلا أسماء بالمرة ٠

لقد وصل الانسان الى مرتبة الانسانية عن طريق الحركة ، وحركة الصـوت خاصة ٠ ويعود الفضل الى مجموعة عصبية والى عقل يستطيع أن يتلقى الصوت أو

المؤثر ، فاذن من الممكن أن يتجاوب الانسان مع غيره ، واذن غيره أيضا من الممكن أن يتجاوب معه • يتبادل مع غيره المؤثرات ثم الانفعال بها • واستطاع الانســان أن يصل الى العلم والى أن يرقى به يوم استطاع أن يهذب هذه الحركات وان يرصدها ويحددها بحيث أصبحت تعنى للفرد ما تعنيه لغيره ، تعنى للمتلقى ما تعنيه بالنسبة لمن تصدر منه • وبذلك استطاع الانسان أن يصـــل الى نوع من التجاوب المركب الدقيق • ولكن الحديث مايزال يدور بين الناس فى غفلة من العلم ، أو فيما يجاوز نطاقه • هذا العلم الذى ما يزال يغير العالم ويعيد صنعه قد لا يعرف شيئا عن أسرار هذا الحديث الذى يدور بين الناس وعن أسرار ما يثير فى الناس حديث بعضهم الى البعض من مؤثرات •

ان التقدم فى وسائل الالتقاء بين الناس هو الذى ارتقى بالانسان • ولكن هذا الالتقاء يتعدد ويتنوع ، والذى يعنينا فى الرواية هو الاتصال أو الالتقاء الذى يثير تجاوبا انسانيا •

واننا دائما نحتاج الى صاحب كلمة ليبلغ الانسان ما يراد له أن يعرف ذلك انه لو صدرت الكلمة عن غير الانســـان معبرة عن دولة أو شركة أو نحو ذلك فان الاتصال عندئذ يفتقد أو لا اذا على درجة دنيا ضعيفة • اننا نريد عالما يتحدث فيه الانسان دائما الى الانسان يتحدث عما يحس وعما يهمه ويهم الآخرين • والتقدم فى الحياة لا يحدث الا نتيجة الاتصال بين الناس ، نتيجة الحديث عن طريق مشاعر الفرد الطبيعية بمثلها التقاء عند الغير • ولقد برعت « ناتالى ساروت » فى هذا الاتجاه ، فهى تصف كل شىء خاص وذاتى ولكن مكتشفاتها هى فى ابراز ما هو عام ويشترك بين الجميع وهو فى ذات الوقت شاذ ومتفرد • انها تستطيع أن ترينا الحب فى الكراهية والبهجة فى الشىء المنفر الغريب •

والانسان اجتماعى بطبعه كما يقول الفلاسفة ؛ والمجتمع يتألف من الذوات أو مجموعات الأنا ؛ ولكن لا يتألف منها كما عدديا • فلكل انسان صوته الخاص وطريقته فى التعبير والحديث ولكنه يستعمل لغة الجماعة • ولقد شهر دستوفسكى الروائى الروسى الأشهر بمهارته فى الكشف عن المتناقضات فى كل ما كنا نظن انه متماسك متناسب ومتسق بل كل ما كنا نظنه خاضعا للمنطق وللعقل فى السلوك الانسانى لقد برع فى تصوير الارتدادات المحيرة بين الكبرياء والذلة فى شـخصية الأب فى رواية « الاخوة كارامازوف » • انها كلها اشعاعات هذه الرغبة الملحة الجامحة المركبة فى طبيعة الانسان التى تدفعه الى أن يتصـــل بأخيه الانســان • وفى ظل العلم تفهم هذه الغريزة فهما دقيقا جيدا • ان جوهر الطبيعة فى النفس البشرية هو النزعة الاتصالية وتطور هذه الطبيعة ونماؤها لا يتم الا بالتأثر وبالتأثير ؛ أى لا يتم الا عن

طريق الاتصال بالغير واتصال الغير بها • وكما انه لابد للجسد من ماء وهواء فكذلك لابد للنفس من احتكاك واتصال • فان لم يكن اتصال بالحب فليكن بالكره ، وان لم يكن بالاحترام فليكن بالازدراء أو بالخوف أو بالشفقة أو بأى شيء ، ولكن النفس تنزع الى الحب والى الاحترام وتتوق اليهما •

ان النفس البشرية دائما عطشى الى من تحدث ، الى من تتعامل معه على أى صعيد وبأى شكل • ان الناس كما تقول « ساروت » يجتمعون على الحاجة الملحة لأن يلفتوا الى ذواتهم الأنظار ، لأن يتصلوا بالغير ، لأن يحس الناس بوجودهم ويدخلوهم فى زمرتهم • وهذه العملية الطبيعية سهلة بالنسبة للبعض ؛ ولكن البعض الآخر يضطر الى المبالغات التاسية ، بل قد يدفع الى الجريمة نفسها ليظفر بهذا الاتصال • وترى ساروت أن أكثر من أثر فى الرواية الأوروبية من هذه الناحية هو الكاتب النمسوى « كافكا » ان بطله يتضاءل حتى ليصبح مجرد حرف « ك » • بل ان مطامعه المشروعة فى أن يحب أو يصادق أو يزامل تتضاءل فتصبح مجرد الرغبة فى أن جهوده كلها توجه نحو ان ينتمى الى أى شيء ان يتصل بأى احد أن يبرىء نفسه من تهمة لا يعرف عنها شيئا • وجهوده كلها تبوء بالفشل • فهو لا يعرف مما يبرىء نفسه ويعجز عن أن يتصل بأحد • انه لا وجود له ولا مكان لوجوده فهو مضطر الى أن يكون لا شيء ؛ لا أحد ، سواء كان بريئا أم غير برىء • وبهذا ومن هذا يطل علينا فجر معسكرات الاعتقال وسجون العذاب الوحشى حيث لا يعرف أحد جريمته ولا يستطيع ان يبرىء نفسه أمام أحد • حيث جماعات لا تتواصل وليس من حقها أن تتصل •

ويأتى « بيكت » ومجموعته من أمثال « هارولد بنتر » ليصور لنا هذا البطل الذى ينتظر من لا يجىء أبدا • أو هذا الذى يحاول انقاذ صلة وهمية من النزع الأخير أو الذى يأسى على صلة لم تكن شيئا أبدا فى أى يوم من الايام ويراها تموت بين يديه رغم ذلك • ويتأثر المسرح بنفس هذا النبأ فى تصوير الشخصية والحدث وكذلك السينما تتأثر هى الأخرى فتخرج فى السنوات الأخيرة فلم « ميرنباد » أو « هيروشيما حبى » • ولكن الرواية تتفوق على المسرح وعلى السينما فى هذا : فى أنها تستطيع أكثر من المسرح والسينما أن تصلف أحوالا عقلية ومواقف نفسية لا يمكن أن نحشرها حشرا فى حوار ينطقه ممثل أو حركة يتحركها فى نطاقها • ان الشخصيات الخيالية يمكن أن تكون شخصيات من مسرح العرائس لا أصل لها ، ولكن الأحوال النفسية والعقلية حقائق ووقائع • وعلى هذا يتجه الروائيون فى جهد رائد متحد صامد الى اكتشاف الحقائق عن النفس حقائق الذات الانسانية التى لا يمكن الا للرواية أن تكتشفها ، والا لوسيلة الرواية الفذة أن تحرز أى نصر فى سبيل الوصول الى أعماقها •

وليس كل ما فى الرواية الجديدة جديدا كله • ان العناية بالعادى لم يبتكرها الروائيون الجدد ، فمنذ قديم كان الروائيون يلاحظون بدقة كيف تسير الحياة وكيف تقود فى بطء ورفق الى مأساة الموت • ولقد حاولوا الكثير فى سبيل تحسين الوسائل والطرق الفنية وكل ما هو جديد فى هذا المضمار بل كل ما هو أحدث ما وصلوا اليه ينذر بأنه أصبح مجرد حيل وألاعيب ، ومن هنا جاء جديد الروائيين الجدد فى أنه ليس اتقان أداة أو تحسين وسيلة ، وانما هو نظرة جديدة من زاوية جديدة وانفساح أمام الرواية كانفساح المجال أمام الحياة نفسها • ولقد يتعلق القارىء بروائيين قدامى لا يمكن أن يتفوق عليهم أحد فيما أتقنوه من جوانب فى الفن الروائى ، أو قد يحبونهم على ما هم عليه كما نحب أحيانا صديقا على عيبه بل نحب عيبه •

ان الجهود التى بذلت للتفوق على الروائيين القدامى ترجع أيضا الى عصـــور سابقة و « ميشال بوتر » يرجع الفضل فى طريقته الحديثة الى جراة بلزاك أو صراحته القاسية •

ونذن حماسة الروائيين الجدد ليست من هذا القبيل • انهم يؤمنون ايمانا وثيقا (وحماستهم تتدفق تدفقا فيما يكتبون) بأن امكانيات الرواية لا حدود لها لأن الحياة نفسها لا حدود لها • والرواية تستشرف عالما فسيحا رحبا لا يحده ماض ولا حاضر ولا مستقبل • أما ماذا يخبىء لهم القدر أو الغد ، واما ماذا يمكن أن يفيدوه من الفرص التى ستسنح لهم فان هذا كله لا يمكن أن يحد الا بمقدار ما يمكن أن نحدد حياة الانسان على هذه الأرض بل على الأرض وفى الفضاء • انهم واثقون انهم سيجدون دائما أبدا شيئا قد تركه من سبقوهم ، ولهذا فهم واثقون أن الروائى سيقدم دائما لقارئه مثارات للعجب وللتساؤل وللشك ، بل سيقدم فرصا أوسع لمزيد من العلم ومزيد من الأمل فى علم جديد يكشف كل يوم غطاء جديدا عن سر الحياة • وقول فلوبير الذى مايزال الروائيون الجدد يتمثلون به هو : ان مهمة الرواية الأسمى الأحق والأعمق هى فى أن تكشف دائما عن الجديد • والخطيئة الكبرى التى يمكن أن يقع فيها الروائى هى تكرار ما سبق أن اكتشفه السابقون » •

وهكذا تبهت أمام هؤلاء المحدثين كل المحاولات الســابقة للهجوم على عــالم فسيح ودنيا رحبه وتصوير كل ما شاءوا وكيفما شاءوا جوانب هذا الانســان من خلال نفسه ، ومن خلال ما حوله ، ومن خلال الآخرين ، بل من خلال ما يصدر عنه من مؤثرات فى غيره وما يتلقى فى الوقت نفسه من مؤثرات من الغير •



طبق البيض

بقلم : ماتيلدا حليم

كان مراد شابا وسيما ، طويل القامة اسمر اللون ، بساما ، يجيد ارتداء ملابسه الى حد الاناقة ، وكان معروفا بين اصدقائه فى دنيا الأعمال بطيبة القلب وسرعة التأثر بوجه جميل أو قد ممشوق .

وكان مراد متزوجا من نجلاء التى احبها حبا جما ، وبادلته هى هذا الحب

كان يفرط فى حبها ويغدق عليها المال والحلى ، ولو قيل له يوما على سبيل المزاح — انها تريد الانفصال عنه لهلع فؤاده وطار لبه ، ولكنه كان يعرف انه من السهل خداعها — فكان كثيرا مايفعل ولم يترك ساقا رشيقة الا وتتبعها ولا رنت اليه ناعسة الا واستسلم لسحر عينيها .

وحدث ذات يوم مشرق جميل ان صحا مراد من نومه مليئا بحبه للحياة مغتبطا بكل ماحوله .. بالربيع ونسيمه العليل ... بحمامه الدافىء اللذيذ ... بزوجته التى تزداد فتنة وشبابا يوما من يوم ... ثم رائحة البيض المقلى الشهى الذى وصل اليه اريجه من المطبخ وملأ ارجاء حجرة الطعام — ومن الغريب ان مرادا هذا لم يحاول مرة ان يبرر خداعه لزوجته بتلمس اخطائها أو نقد كل ماتفعل شأن الزوج المذنب — بل كان تفكيره فى هذا الصدد يأخذ اتجاها غير مألوف ، كان يقول فى نفسه كلما عاد من سهرة حمراء او كان على وشك ارتكاب احدى حماقاته المتعددة.

« لقد كانت هيفاء رائعة فى الليلة الماضية — رائعة ! او سامضى الليلة وقتا طيبا مع هذه او تلك ، ولكن عندى هنا فى بيتى امراة تصغر كل هؤلاء سنا وتفوقهن جمالا وفتنة .. تعرف مزاجى وتسهر على راحتى وتحضر بنفسها حمامى وتعنى بملابسى ومأكلى وتهتم بطبق البيض الطازج — احب انواع الطعام الى — انها خير زوجة — تعرف كيف تسعد زوجها ... يا للهناءة .

وجلس الى كرسيه فى حجرة المائدة يقرا صحيفته اليومية فى انتظار زوجته ووجبة الصباح التى ذكره اريجها بشدة حاجته اليها ، وسمع وقع اقدام نجلاء فرفع راسه ورآها قادمة نحوه تتهادى فى مشيتها كاعبا حسناء ، فحياها بقوله « نعمت صباحا يازهرة حياتى ... ما اجملك اليوم وكل يوم»

فابتسمت قائلة — امغازلة قبل الافطار يا مراد ؟ لابد وانك ستتأخر الليلة فى مكتبك ؟ .

— وكيف عرفت ذلك ؟

— لم اعاشرك عشر سنوات عبثا

يا عزيزى ... ولقد علمتنى عشرتك الطويلة كيف أفسر حركاتك وسكناتك

ـ انت مدهشة .

ـ نعم الست مدهشة حقا ..

هل لاحظ فى عينيها تعبيرا لم يألفه أم هو مجرد خياله ؟ ثم عاد فقال :

ـ مرى لنا ببعض الطعام .

ـ انه آت يا عزيزى .

وتصديقا لقولها دخلت الخادم بصينية الشاى التى وضعتها أمام سيدتها ثم خرجت وعادت مرة أخرى تحمل طبقا يتألق فيه البيض الطازج المقلى وقد صعدت رائحة السمن البلدى تهنىء المعدة الخاوية بقرب اللقاء ووضعته أمام سيدتها وخرجت ـ وقدمت نجلاء قدحا من الشاى لزوجها تناوله منها وجلس ينتظر وبدات هى فى اكل نصيبها من البيض وانتظر ان ياتى دوره هو الآخر فلم يات ، وكان من المعتاد ان يقدم له طبقه اولا ـ فسأل فى حياء :

هل سأنتظر طويلا حتى يأتى الإفطار ؟

انه هنا ياعزيزى .. انظر ـ فنظر ولم ير أمامه سوى قطعتين من الخبز الجاف بينما رفعت هى على شوكتها قطعة من البيض الشهى وعضتها بأسنان قوية من اللؤلؤ الخالص .

وسكت برهة نفد بعدها صبره فقال:

ـ ولكن أين طبقى انا ؟

ـ اتقصد نصيبك من البيض ؟ .

ـ طبعا هذا ما أقصد ـ ماذا ظننت اننى اقصد ؟

وكظم غيظه فلم يتعود الخروج عن شعوره أمامها .

ـ ليس لك نصيب من البيض اليوم .. ولكنك ان شئت ـ تستطيع ان تراقبنى بينما أستمتع انا بنصيبى .

ـ ماذا حدث ؟ هل هناك أزمة فى البيض أم ماذا ؟

ـ لا ـ ليست هناك أزمة فى البيض .. وكل مافى الامر هو اننى قلت للخادم بأنك لن تريد طبقا من البيض اليوم .

ـ ومن قال لك ذلك ...

وهم يدق الجرس لاستدعاء الخادم.

فقالت بسرعة قبل ان يضغط على الجرس .

لاتفعل ياعزيزى فلن يجدى ذلك فتيلا .. سأقول للخادم أنك لاتريد البيض وتصر أنت على نصيبك منه فترتبك المسكينة ، وقدتنذرنا بالخروج وانت تعرف أزمة الخدم اليوم ـ كما ان الشجار امام الخادم ليس من الكياسة فى شىء .

ـ هل هذا نوع من المزاح الثقيل ؟ ام هل هناك هدف خفى ؟

ـ انتظر قليلا ريثما أتلذذ بطعامى وهو ساخن ـ فالبيض لايؤكل وهو بارد .

فقام الى الشرفة وهو يتميز غيظا ولكنه لم يستمرىء هو الآخر الشجار على مسمع من الخدم .

واستمرت هى فى ابتلاع طعام لم تعرف له طعما فقد حانت الساعة الحاسمة ..

واخيرا قالت :

ــ مراد .. اريدان أقول لك كلمة.. عد الى مقعدك واستمع لى .

فعاد الى مقعده وهو يزمجر ــ ما السبب فى كل هذا ، وما معنى هذا التصرف ؟

قالت مصطنعةالدهشة ــ الا تعرف السبب ؟ انه انت وفيفى ودودو وميمى وصلوحة وزمرة الصديقات ثم اردفت بعد هنيهة .

هل لك صديقةباسم صلوحة يامراد؟

فقال بحدة ــ كلا ..

ــ الحمد لله .. فقد كنت اخشى أن تكون بينهن صلوحه .. اما الأخريات فلا اعتراض لى على أسمائهن .

ــ انك تهذين فلست أعرف لا فيفى ولا بيبى..

اذن من تعرف .. عدد لى أسماءهن

ــ وما علاقة ذلك بافطارى ؟

ــ كل العلاقة ... اسمع ياعزيزى ــ انا لااشك فى حبك لى وتمسكك بحبى واحترامى وانك لن تفكر فى الانفصال عنى ولكننى صراحة لااطيق أن تتقاسمك معى جمع غفير من النساء وفكرت كثيرا واخيرا اهتديت الى حل موفق وهو أن اشعرك فى كياسة ولباقة بأننى أعرف كل شيء عن صديقاتك فربما ... يكون فى هذا بعض الكبح لنزواتك . الا ترى فى ذلك حلا للمشكل ..

ــ اى مشكل ؟ اننى لاأفهم اطلاقا ماتقصدين .

ــ بل انت تفهم جيدا .

ومع كل ما شأن هذا وافطارى ؟

ــ حاول أن تفهم ياعزيزى ــ لقد تعودنا الكياسة فى جميع معاملاتنا ــ ولن نغير من نهجنا اليوم وصدقنى اننى أخجل من ان أسالك صراحة اين كنت البارحة .. أو متى عدت من سهرتك .. او مع من قضيت ليلتك.. فحيائى يمنعنى ولذا صممت أن أحرمك من شيء تحبه كلما شعرت بانك كنت بصحبة احدى صديقاتك .. فاذا أتاك الشاى باردا يوما أدركت أن صلوحة هى المسئولة ... واذا وجدت ثقبا فى جوربك فقد كنت مع ست أبوها ــ اما الصابون الردىء فهو جزاء ليلة مع زهرة ... وهكذا ..

افهمت الآن ؟

ــ فقال وقد جن جنونه ــ ولم أخفيت علمك بهذا قبل الآن ؟ لم ادعيت البراءة والجهل ؟

ــ ولم لم تحترمى أنت زوجيتى ..؟

وأضافت بعد برهة بابتسامتها الفاتنة .

ــ أشرب مابقى من الشاى وامض الى عملك .. واذا وجدت عند عودتك ان سريرك غير منظم فلا تلم الا أم الخير.

ــ ليتك تكفين عن اختيار هذه الأسماء القبيحة .

ــ ليتك تكف عن اختيار الصديقات

وشرب مابقى من الشاى وأكل الخبز الجاف طائعا ــ وقبل هذا الحرمان الذى فرضته عليه زوجه نجلاء لقاء



حماقته مكرها .. ثم قام يتأهب للخروج الى عمله ــ وكاد يقول جريا على عادته

ــ سأتأخر الليلة لعمل هام ــ ولكنه غير رأيه فقال « الى اللقاء هذا المساء » .

فقالت ... اتمنى لك كل التوفيق وخرج .

ووصل الى مكتبه وهو فى اشد مايكون من الغضب والهياج ولم تخفف معرفته بذنبه من حدة ثورته ضد هذه الزوجة الخبيثة التى اخفت معرفتها بأسراره طوال هذه المدة . ان فعلتها هذه شنعاء نعم ... شنعاء لاتغتفر.. لقد لعبت به ، أليست هذه خيانة زوجية ولكن ... انه هو الذى خان عهده معها وكان تأنيبها والحق يقال مهذبا

لبقا ولكن .. لا .. كان يجب أن تنتظر على الأقل حتى تمضى على صداقته الجديدة مع هيفاء ولو بضعة أسابيع . كيف يستطيع ان يفترق الآن عن هذه الارملة الطروب ذات الحيوية الجارفة والقد المشوق والسهرات الحمراء !. لا .. ان مطلب نجلاء لمطلب ظالم حقا انها لاتفهم الرجال . هل تريد ان تستعبده ياترى .

وتذكر موعده الليلة مع هيفاء . فتناول سماعة التليفون وادار القرص فسمع صوتها مناغيا دافئا ولكنه تجلد .

ـ الو ... هيفاء . عرفت صوتى بهذه السرعة . انك ذكية ياحبيبتى . نعم .. كنت أود .. لابد ان اعتذر بل انا احبك جدا ... الليلة فقط لا .. لا .. بربك لاتتسرعى ..لاتخرجى معه الليلة .. اطلاقاياحبيبتى .. انا محرج صدقينى .. اقسم لك ..

ولكنها وفرت عليه مهمة القسم والتاكيد فقد ارخت السماعة بشدة آلمت أذنه .

وظهرت انعام سكرتيرته الحسناء فجأة وتقدمت نحوه ذات الجوارب الغالية وانفرجت أساريره برهة ثم عاود التقطيب كالطفل الذى تذكر لعبة مفضلة حرم منها دون ذنب جناه .. فربتت على كتفه بعطف تعوده منها وطالما ارتاح اليه وابتسمت فى اغراء فتلطفت فى الحديث وداهنت وتملقت حلو وتجاوب عاطفى زاده أسى ومرارة بغية أن تسرى عنه كآبته فقد فهمت من علامات وجهه مافاتها سماعه على التليفون ، وعلى الرغم من علمها بأنها واحده من كثيرات الا أن هذا لم يثنها عن البقاء الى جانبه وكان هو بدوره يلجأ اليها فى كل محنه العاطفية مسترشدا وقد تعددت محنه فى الايام الاخيرة وهى بفضله خبيرة فى انواع الصداقات المجدية والا فما فائدة الصداقة !

واستجاب اخيرا لحديثها ورقتها فدعاها الى تناول الغداء فى افخر مطعم بالعاصمة وقص عليها كل ما جرى بينه وبين نجلاء ثم حديثه مع هيفاء فخففت عنه الى درجة أنسته ذنبه وألمه فوجد نفسه يعود معها الى مسكنها بعد العمل حاملا الهدايا والزهور ويبالغ فى اكرامها فيصعد الى شقتها ويقبل كاسا وربما كاسين ... فلم يستطع جرح شعورها..

وعاد الى بيته فى موعد العشاء فقابلته نجلاء كعادتها هاشة باشة ولكنه ما ان وصل الى حجرة نومه حتى وجد فراشه كومة من الملاءات والمخدات وبات ليلته فى سرير لم يعرف له راسا من عقب ، وقام فى الصباح التالى يحسب لمقابلة زوجته الف حساب .

ترى هل دفع ثمن اكرامه لانعام بسرير ظل يتخبط فيه طول ليلته ام تبقى عليه جزء من دين الأمس يصعب سداده ؟ لكن حيرته لم تطل ، فقد وجد طبق البيض الشهى على المائدة كما يحب ويشتهى ، وزوجته الى جانبه سريعة فى تلبية اوامره وقبلها مودعا ثم قال .

ـ نجلاء ساحاول جهدى ان استقيم

ـ فقالت بهدوء والابتسامة لم تفارق

شفتيها ـ انني واثقة من ذلك ياعزيزي.
وانقضت الأيام ولم يحدث ما يكدر صفو الزوجين اللهم سوى مذكر طفيف بين آن وآخر كجورب مثقوب أو صورة في غير مكانها .

واستطاع مراد بفضل انعام ان يبتعد نهائيا عن هيفاء وغيرها فلم تكن صداقته تبدأ مع واحدة منهن حتى تتدخل انعام في حكمة وكياسة فتعتذر لهن عن تغيبه او اهماله بلهجة حاسمة لاتقبل التردد لو التعقيب ... فتربعت هي على عرش قلبه في أثناء العمل واحيانا خارجه . وكانت والحق يقال أقل الصديقات مطاردة وعتابا ، وكان مراد يوازن احيانا بين قبلة من انعام وبين طبق شهي من اللحم او الحساء ، وكانت ترجح كفة انعام احيانا فيذهب بدون اللحم والحساء .. ولكن شيئا واحدا ظل يحيره .. وهو كيف استطاعت نجلاء الوقوف على حركاته وسكناته بهذه الدقة ونسي ان المراة ام الرجل .

وهاله يوما ان وصل الى بيته بريئا من كل الهفوات فلم يجد كرسيه المفضل في مكانه المعهود ونظرت نجلاء اليه بوجه اليائس واعادت الكرسي الى مكانه بسرعة بعد أن قالت برفق :

ـ لقد أخطأت التقدير هذه المرة ياعزيزي فمعذرة .

وتكررت الهفوات من جانب نجلاء كان اهملت وضع الصابون في حمامه أو غيرت من موضع كرسيه فشعر بالظلم يحيق به ويكتم انفاسه فقرر الترفيه عن نفسه بسهرة حمراء مع انعام وليكن بعد ذلك مايكون . ولكنه عاد الى بيته بعد سهرته فلم يجد نقصا في أزرار قميصه أو أي مذكر لما اقترف .

وسارت الحياة مطمئنة شطرا من الزمن وتباعدت نوبات الحرمان حتى كادت تنعدم ، وارتاح مراد الى حياته الجديدة وهدأ باله فاتخذ من انعام صديقة وحيدة واكتفى بها . ووجد الحياة سهلة وامراتين خيرا من عشرين لاسيما وان احداهما كاتمة اسراره «انعام» والثانية زوجته «نجلاء» .

ودامت هذه الحياة الناعمة المطمئنة فترة حتى نسي مراد ماضيه ومغامراته الى ان رأى زوجته يوما تأكل خبزا جافا مع الشاي ، بينما يلتهم هو البيض الشهي بشغف وسرور فقال :

ـ ماذا حدث ؟

ـ فلم تحر جوابا .

ثم عاد فقال مداعبا .

ـ لم الحرمان ؟

فاغرورقت عيناها بالدموع وظلت تقضم لقمتها اليابسة وقام هو الى الشرفة وأخذ يجوب ببصره في الأفق البعيد .

كريمة

بقلم : علية رياض

دقت الساعة الحادية عشرة مساء .. حينما رن جرس الباب .

وفتحت سهام بلهفة وقلق .. لترى .. لترى كريمة .. مستندة على الحائط بجوار الباب .. شعرها مشعث وقد تقطعت خيوطه .. ملابسها ملطخة بالوحل والتراب .. صدرها عار وقد تمزقت ثوبها تكاد تظهر ما يجب على الفتاة الكريمة أن تخفيه .. أما وجهها فكان بشعا .. كان متورما .. مغطى بكدمات مخيفة .. مملوء بخدوش تسيل منها دماء اختلطت بالتراب والدموع .. والعرق .. فبدا مرعبا .. منفرا .

وذهلت سهام .. وكادت تميد بها الارض من هول المنظر وصرخت دون أن تتمالك نفسها :

ـ كريمة .. كريمة .. جرى ايه ؟ ماذا أصابك ؟ ..

وكريمة منهارة .. ترتعش شفتاها المشققتان وقد سقط رأسها فوق صدرها . وأشفقت عليها سهام وندمت على هذا السؤال .. فليس له مجال الآن .. وأسندتها وهى لا تكاد تقوى على المسير .. وقادتها الى حجرتها وأرقدتها فى سريرها .

وسالت دموع سهام وهى تمسح لها وجهها بقطعة قماش مبللة .. وتسقيها فنجانا من الشاى .. وتغطيها وهى كالجثة .. الفاقدة لكل معانى الحياة .. عيناها مذهولتان تائهتان فى سقف الحجرة .. فى لاشىء .

وأدركت سهام أن الفتاة فى مأساة .. مأساة مروعة .. ولكنها كانت أرجم من أن تسألها شيئا .

وقضت سهام ليلة مرعبة .. تفكر فى مصير كريمة .. كريمة خادمتها الامينة التى ربت ابنها « أشرف » وسهرت على رعايته منذ ثلاث سنوات .

ـ ترى هل قصرت فى حمايتها ؟ .. أو فى المحافظة عليها ؟ .. أبدا .. كنت أرعاها وأحميها .. انها فتاة عاقلة رزينة .. ثم .. انها مرتبطة بابن عمها بعقد القران .. وتنتظر أن يجهز لها لوازمها ليتم زواجهما ـ وهى تعرف جيدا ما ينتظرها اذا ماتهاونت أو فرطت فى عرضها فهم ريفيون .. والشرف عندهم غال .



وتذكرت سهام يوم أن قابلتهـا فى الطريق ٠٠ تحمل صرة صغيرة وتلبس ملابس الريف السـوداء الطويلة ٠٠ وعرضت كريمة عليها أن تعمل عندها ٠

وتذكرت سهام ٠٠ كيف خدمتهـا كريمة ٠٠ ولم تشك منها يوما ٠٠ ولم تتبرم بأفعال خرقاء أو ممقوته كما كانت ترى من باقى الخادمات ٠٠ فكريمـة دائما مؤدبة جدا تعرف واجبها وتفعله قبل أن يطلب منها ٠

ولكن ! لقد لاحظت عليهـا أخيرا اضطرابا وانشغالا ، كانت سـاهمة شاردة مشتتة الخاطر ٠٠ لاتذكر جيـدا ـ كما عهدتها ـ كلامهـا ٠٠ تنظر من النافذة أو الشرفة كأنها تبحث عن شىء ٠٠ وأصبحت تعنى بشكلها ٠٠وملبسها ٠٠ وتكوى مريلتها البيضاء جيدا قبل أن تخرج لتتنزه الصبى ٠٠ أحيانا تغنى فرحة مرحة وكأنها امتلكت الدنيـا بأسرها ٠٠ أو واتتها السـعادة التى كانت تحلم بها ٠٠ وأحيـانا تسهم وتعيش وتفكر وتعمل دون روح وكان هناك من استولى على شعورها وتفكيرها ووجدانها ٠٠ ولكنها دائما كريمة التى تؤدى واجبها على أتم وجه ٠

وكانت تخرج فى يوم عطلتها مرة كل اسـبوع ٠٠ تتنزه وتذهب الى السينما التى تهواها وحدها أو مع زميلة لها من خادمات الجيران ٠

وقد خرجت اليوم كعادتها ٠٠خرجت فى الساعة الثانية ٠٠ بعد أن قدمت لهم طعام الغداء ٠٠ وكان أحمد زوج سهام مسافرا ٠٠ وانشغلت سـهام فى رعاية

ابنها ·· ودق جرس البـــاب ووجدت أمامها الاسطى فتحى ·· سائق الدكتور عبد الحميد ·· جارهم ·· وجدته أمامها مضطربا يرتعش ويتمتم بكلمات اعتذار ثم يقول : لا تؤاخذينى يا سيدتى ·· ارجوك ·· ارجوك ·· أن تلحقى كريمة ·· لقد قبض عليها ·· قبض عليهـــا بوليس الآداب ! ·· وأجابت سهام : بـــوليس الاداب ؟! ·· لم ؟ ·· ماذا فعلت ؟! ··

ـ لا شىء يا سيدتى ·· أقسم لك ·· لا شىء ·· كنت سائرا معهـــا ·· فى طريقنا الى السينما ·· وفى طريق خال قبض علينا ثلاثة رجال من بوليس الآداب وادعوا أننا ·· أننا نتطارح الغرام فى الطريق العام ·· وقد خشيت عـــلى كريمة وسمعتها اذا ما وصل ذلك الى علم اهلها لا ســـيما وهى ما تزال فى عصمة ابن عمها ·· وهربت منهم لالجأ اليك ·

ـ بوليس الآداب !·· اتتهـــاون كريمة فى نفسها الى هذا الحد ·

ـ لا تظلميها يا سيدتى ·· فهى فى مأزق وليس لها الا انت لتنقذيها ·

فموقفى أمامها غير سليم الآن ولكنى أقسم لك ·· أقسم لك اننى سأخطبها فور أن تتحرر من ارتباطها بابن عمها !

وذهلت سهام ·· ولكنها كانت تعرف أن كريمة قد تغيرت عما قبل وعرفت الآن سر ارتباكها وانشغالها فى الايام الاخيرة ولكن أيصل بها الأمر الى ذلك ؟ الى بـــوليس الآداب ؟ ·· والى قسم البوليس ؟ ··

وشعرت سهام باحتقار واشمئزاز من خادمتها ·· كانت تعتز بها لشرفهـا واعتزازها بكرامتها فكيف ·· كيف !

ـ ولكن كريمة ·· كم خدمتنى ·· وكم سهرت على ابنى ·· يجب أن أهب لنجدتها ·· وانقذها مهما كان الأمر ·

ولم تمض دقائق حتى كانت سهام فى سبيلها الى منزل والدتها ·· لتترك الطفل ·· وانتقلت من قسم الرمل ·· الى قسم فلمنج ·· الى قسم باكوس ·· ثم قسم المنتزه ·· حائرة ·· منزعجة وفى كل مرة ·· تقابل الضابط وتسر اليه بأن خادمتها قد قبض عليها رجال الآداب خطأ ·· فهى فتاة امينة شريفـة ولا يمكن ان تأتى بفعل شائن ·· وهى مسئولة عنها ! ·

ويعدها الضابط خيرا ·· ويصحبها ليعرض عليها فتيات وفتيات ·· يبعث منظرهن الرعب فى قلب ســـهام ·· والقشعريرة فى بدنها ·· وتتفرس فى وجوههن ·· ولكن لا كريمة ·· ثم تسرع سهام الى قسم محرم بك · والمنشـــية ولكن لا فائدة ! ··

وتذكر سهام كيف عادت الى بيتهـا منهوكة يائسة تتـــالم حيرة وقلقا ·· ولكن كريمة لم تعد ·· اذا فقد اصابها مكروه ·· ترى ماذا حل بها ؟ ·· وتمر بها الدقائق بطيئة رقيبة حتى ·· حتى دقت الباب فى الحادية عشرة مساء ·· ورأتها على تلك الحال ولم تكن فى حالة يمكن منها سؤالها عن شىء · ترى ماذا أصابها ؟ ·· وماذا بقى لهـــا من ذلك الجسم الممرغ فى التراب ·· والدموع ·

وهبت ســـهام عدة مرات بالليل ·· لتجد كريمة تهذى وتستغيث وتبكى بكاء مرا يذيب اقسى القلوب وأعطتها حبة

منـــومة ٠٠٠ وحاولـت كريمـه ان تنام ٠٠٠ أن تنسى كـــل شيء ٠٠ أن ترتاح من هذا العذاب وتسمرت عيناها فى سقف الحجرة وراحت ترى امامهـا صورة لحياتها ٠٠ حياتها التى أوصلتها الى هذه الحالة ٠٠ الى هذا الموقف الاليم الى هذا العذاب الذى تشعر به ٠٠ لاليست تلك الآلام الجسمانية الفظيعة ٠٠ ليست ٠٠ تلك الكدمات التى توجعها وتؤلمهـا ٠٠ انه الخزى ٠٠ والخجل الذى يغطيها ٠٠ انه ذلك الجسم المهان ٠٠ انه نظرة سيدتها لهـا ٠٠ انه فتحى الذى تخلى عنها وتركها لهؤلاء الوحوش ٠

وتذكرت ٠٠ تذكرت يوم ان سلمها ابوها وهى ماتزال فى الثامنـة الى أم جمعه المخدماتية ٠٠ نظير جنيه كان فى حاجة اليه ٠٠ تذكرت دموعها وفراقهـا لامها وأختها الصغيرة ولكنها نسيت ذلك الفراق ٠٠ وتحجر قلبها وقسا على ابيها وامها ٠٠ حتى انهـا لم تطلب قط ان تراهم بعد ذلك لقد وجدت حنانا وحبا ورعاية من السيدة التى عملت عنـدها كانت تحميها وتسرح لها شـعرها ٠٠ وتغطيها ليلا وتحميها من ابناء الجـيران اذا ما تعاركت معهم ٠٠ فأحبتها وتعلقت بها ٠٠ لقد بكت عندما اضطرت لفراقها كما لم تبك أمها ٠

ثم تعودت ٠٠ تعـودت على الفراق واللقاء ٠٠ لم تعد هناك دموع تذرفهـا اذا ماتركت بيتا لتذهب لآخر اكثر كرما واوفر مالا ٠

كانت تعمل لترسل لامها وابيهـا جنيها فى الشهر ٠٠ ثم زادت النقـود حتى أصبحت جنيهين ٠٠ ثم ثلاثة ٠٠ واربعة ٠٠ بذكائها وخفه ظلها واجتهادها واخلاصها ٠٠ المؤقت لمن تعمل عندهم ٠

عودتها الحياة على حب من حولها ٠٠ وخدمتهم ٠٠ كان الاطفال دائما يتعلقون بها لانهـا تضحكهم وتسليهم وتسرهم بالنزهات والالعاب والحواديت ٠

لم يكن السادة يعزون عنها شيئا ٠٠ فتعودت على لبس الملابس الجميـلة النظيفة ٠٠ والنزهات المختارة ٠٠ كم قضت الايام على الشـواطىء ٠٠ تلعب وتمرح ٠٠ وتجرى مع الاطفال ٠٠ كم تنزهت على الشواطىء ٠٠ وفى الحدائق تعودت دائما الا تنام الا فى فراش نظيف ٠٠ عليه ملاءات بيضـاء كالفل ٠٠ تغسلها بيـدها ٠٠ لم تلبس أبدا ثوبا دون أن يكون مكويا نظيفا ٠

لقد تمتعت بحياتها ٠٠ ورأت الكثير بالرغم من أنها لم تكن الا ٠٠ خادمة ٠

لا تنسى ذلك اليوم الذى جاءتها فيه أختها ٠٠ مجللة بالسواد ٠٠ تنبئهـا بموت أبيها ٠٠ وحزنت ٠٠ حـزنت للخبر ٠٠ ولكن قلبها هذا ٠٠ الذى لم يلق منه حنانا ٠٠ ولا حدبا ٠٠ سريعـا ما اندمل ٠٠

وصار أبوها مجرد ذكرى عابرة ٠٠ تمر فى خيالها ٠٠ ولم تلبث حين تلقت نبأ موت أمها أن شعرت بنفس الأسـف ٠٠ لقد حزنت أكثر على السـيدة التى ربتها واعتنت بها ٠٠ وعمرها ثمـانى سنوات ٠٠ لقد بكت فراقها ٠٠ كما لم تبك أمها الآن ٠٠

عجبا ٠٠ ما هو الحب ٠٠ وما هى تلك العاطفة ٠٠ عاطفة البنوة ؟ ٠٠ انهـا لا توجـد الا بالعطف ٠٠ بالحنان ٠٠ بالمعاشرة ٠٠ فأحب الناس اليهـا هم أقربهم الى نظرها ٠٠ الى نفسـها ٠٠ ليس الا ٠٠ أما أن أحب أبى وأمى لأنهما

ولدانى فحسب ٠٠ ثم تخليا عنى ٠٠ فهذا لا يكون الا خداعا ٠٠ لم تكن لأبويها الا مصدر رزق ٠٠ يأتيهما منه بعض المال فحسب ٠٠ لكن أين أمها ٠٠ أعطفت عليها عندما مرضت ؟ ٠٠ أو واستها عندما حزنت ٠٠ أغطتها ليلا ؟ لم ألقوا بها وهى ما تزال طفلة الى الغرباء ؟ ٠٠ لقد كان حظها حسنا ووجدت حيثما حلت من الحب والحنان ما أنساها قسوتهما واهمالهما لها ٠٠ ولكنها كانت تدفع ثمن ذلك الحنان ٠٠ كانت تدفعه عملا ٠٠ وكدا ونفاقا ٠٠ فتكتسب الحب ٠٠ والرعاية والعطف الذى فقدته فى أهلها ٠٠

ولولا تلك الجنيهات والملابس التى ترسلها لهم لماتوا جوعا ٠٠ ولكنهم كانوا سببا فى هذا الشعور من عدم المبالاة بشىء وعدم التعلق بأحد ٠٠ أو الحزن على فراق أو لقاء ٠٠ وأتت اليها أختها بعد موت أبيها وأمها ٠٠ وأصبحت مسئولة عنها ٠٠ ومرنتها معها أياما ثم ألحقتها بالخدمة عند احدى السيدات وأصبحت تباشرها وترعاها٠٠وأصبحت تدخر كل ما تكسب بعد موت أبويها٠٠ واشترت شهرا قرطا ذهبيا ثقيلا ٠٠٠

وبعد عدة شهور ، ما شاء الله جميلة مدلاة بسلسلة ذهبية جميلة على صدرها ٠٠ وأخيرا زوجا من الاساور يشخلل فى يديها ٠٠ وتحسدها عليها زميلاتها ٠٠

ثم تذكرت ذلك اليوم ٠٠ حينما جاء عمها ٠٠ ومعه شاب ضئيل الجسم ٠٠ لا يزيد سنه عن العشرين ٠٠ وأخذاها وسارا فى الطريق حتى جلسا فى حديقة ٠٠

وقال لها العم : اسمعى بقى ياكريمة ٠٠ احنا يا بنتى كنا ساكتين على أن تعملى خادمة٠٠ لحاجة والديك للنقود٠٠ ثم لأنك كنت صغيرة ٠٠ أما الآن فقد كبرت ٠٠ وأصبحت مطمعا للناظرين والناس فى البلد يعيروننا بك ، وقد أوصانى والدك برعايتك وصيانةعرضه وقد قررنا أن نزوجك لابن عمك ٠٠٠ وآديك عرفاه جدع طيب وابن حلال وسيصونك ويعزك ٠٠

وفوجئت كريمه ٠٠ لم تشعر أبدا أنها وحيدة ، كانت تندمج فى العائلة التى تعمل عندها حتى انها كانت تحس بل وكانوا يشعرونها أنها واحدة منهم ٠٠ تحزن لحزنهم وتفرح لفرحهم ٠٠٠ ويحافظون عليها كاحدى بناتهم ٠٠ فلم كل هذا الضجيج ؟ ٠٠

ولم ترد ٠٠ ولكنها نظرت الى ابن عمها تتفحصه فابتسم لها الشاب بطيبة وحنان ٠٠ ورق قلبها له ٠٠ وشعرت بحسن نيته ولكن ٠٠ ولكنه فلاح ٠٠ وكم كانت تعجب بهؤلاء الشبان الذين تراهم يتنزهون فى الحدائق وعلى الشاطىء وفى دور السينما شبان بالملابس الاوروبية الانيقة ٠٠ ولكن٠٠ وقطع عليها عمها حبل أفكارها :

ـ يالله ياكريمه يا بنتى اتكلى على الله ٠٠ سنأتى غدا بعد الظهر قبل أن نعود للبلد لنصحبك ونعقد القران ثم

تعودين لعملك حتى يتم الجهاز ويأتى ابن عمك ليأخذك ..

ولم تستطع كريمة أن ترد .. ألجمت لسانها هذه الرهبة .. امام قريب لها كبير ووقور .. لم تكن قد تعودت ذلك الموقف .. وأصبحت كريمة مسيرة .. وأتى فى اليوم التالى عمها وابنه واثنان من أقربائهما .. ولبست ملابس جميلة ولكنها اختارت أقربها الى الحشـــمة والوقار .. وغطت رأســها بمنديل حريرى .. كانت سيدتها قد أهـدته لها عنـدما عادت من الحج ... ولمعت الحلى الذهبية فى أذنيها .. وعلى صدرها .. وفى معصميها . وصحبتها أختها.

وفى منزل قريبهم بالحضرة .. جاء المأذون ، وتم عقد القران .. وزغردت النسوة .. وقدم الشراب على صوان لامعة وهنأها الجميع .. وهى فى ذهول .. هل كل هذا لأجلها ؟.. لقد تعودت أن تعمل للآخرين .. لم تكن هى عاملا أول أبدا فى شيء .. كانت دائما تابعة .. مكملة لكل شيء ..

أما الآن فهى سيدة الموقف .. لأول مرة سيدة .. الكل ينظر اليهـا .. والنساء يبدين اعجابهن بجمالها .. ثم بمصاغها .. والعيون عليها ، والسؤال عنها .. انها لأول مرة شيء .. بل كل شيء وكانت دائما لا شيء ..

.. وأتى لها يوما عمها .. وحده.. وبعد تحيات عابرة قال لها :

ـ يا ابنتى .. اننى قد اتفقت مع النجار ليصنع لك الدولاب والسرير .. وأنا لم أجمع القطن بعد .. وأريد أن أدفع له نقـوده .. فأعطنى عشرين جنيها وسأردهم لك على المحصول ..

ولم تتردد كريمة لحظة واحـدة .. أتت له مما تدخره عند سيدتها بالعشرين جنيها .. فأخذها وانصرف .. وبعد شهر أو بعض شهر عاد ... ومعـه محمود .. الذى حياها بلطف وأخبرها بخجل أنه فى وحشة لها .. وانه ينتظر بفارغ الصبر تشريفها لداره ..

وعند انصرافهما أسر اليها عمها فى خجل فى أذنها أنه فى حاجة الى عشرة جنيهات لشراء سماد وسيردها لها « على القطن » وأسرعت كريمة لتحضر له آخر ما تدخره ..

وتكررت زيارات العم .. وحده حينا .. ومعه ابنه حينا آخر ليأخذ منها كل ما تصل اليه يده .. وكل ما تدخره.. موهما اياها انه قد اشترى قطنـا .. أو قماشا .. أو كسوة .. لجهازها .

وأخيرا أتى لها يوما .. وقال لها . ان النجار سيبيع السرير والدولاب اذا لم يدفع له فورا عشرة جنيهـات .. وذهلت كريمة لم تتعـود أن تمنع عنهم ما لديها .. فانهم يتعبون ليؤثثوا لها بيتا .. ولكنها لم تعد تملك شيئا .

ونظر عمها بخبث الى زوج الاساور الذهبية .

ـ هاتيهم يابنتى نرهنهم ونسنـدد القيمة « على القطن » ونستردهم لك .

وخلعت كريمة فى سكون زوج الاساور وكأنها تخلع قطعة من قلبها.. وساما لشقائها وكدها .. كانت تتحلى به .. وحز فى نفسها .. فستسألها زميلاتها فى الحديقة وعلى الشاطىء عنهما .. فقد كانوا يحسدونها على كل هذا الحلى الذى تملكه ..

ولكن حسنا .. فسيردهم لها عمها عن قريب .. ولكنها .. ولكنها تعودت بعد ذلك على خلع حليها .. فالسلسلة ذات « الماشاء الله » الذهبية الثقيلة .. ثم تلاها الحلق ..

ثم جاءها يوما ليأخذ منها خمسة جنيهات .. وأوهمها أنه قد استرد المصاغ وان « عمتها » أى زوجته تحتفظ لها به لتزينها فى ليلة الدخلة .

وحدد لها موعدا فى بحر شهرين على الاكثر .. وأصبحت كريمة فى حيرة.. فما معها من نقود لا يكفى لتشترى به ماكانت تريد من ملابس جميلة وبياضات ناصعة .. ولكنها بلباقتها وحسن تصرفها استطاعت أن تجعل سيدتها تخيط لها فستانا جميلا من الساتان واشترت ملاءتان وعدة بشاكير وأهدتها سيدتها الصغيرة « أمانى » حينما نظفت لها البيت وغسلت لها الغسيل ثوبا حريريا جميلا .. ثم اشترت مجموعة من الاوانى النحاسية وهكذا.. حصلت على جهاز صغير جميل ... وفى اليوم الموعود .. حضر عمها .. واثنان من الاقارب .. وصحباها ..

وبكت كريمة .. بكت لأول مرة وهى تفارق أسيادها فقد كانت فى كل مرة تغادر دارا تعرف جيدا ما ينتظرها .. سيرحب بها فى دار أكبر وأغنى .. وحياة أسعد..فقد كان لها من الفراسة ما يجعلها لا تغادر دارا الا وهى تعرف أنها ستجد سادة أكرم وأطيب ..

أما الآن ففى حلقها غصة وبقلبها لوعة كبيرة وبنفسها مرارة .. انها لا تعرف ما ينتظرها .. هناك فى القرية ..!!

وعندما نزلوا من السيارة العامة ساروا ساعة أو بعض الساعة فى أرض موحلة .. ونظرت لتجد حذاءها الانيق وجوربها النايلون ثم طرف ثوبها الابيض الناصع الجميل فى حالة يرثى لها .. وعندما وصلوا أدركت كريمة تماما ما ينتظرها هناك ..

دار من الطوب النيىء .. وقد كوم فوقها الحطب أكواما .. تلتصق بها عشائش الدواجن وأكوام من روث البهائم ..

وشعرت بدوار .. وأسرت الى أقرب النسوة اليها أن تصحبها الى حجرتها.. فهى متعبة .. وتعجبت النسوة كيف تتعب وهم فى شوق اليها ؟ وهم يحتفلون بقدومها .. ويرقصون أمامها تحية لها ؟ ..

ودخلت كريمة الدار..دخلت تبحث عن حلمها .. عن المنزل المرتب النظيف .. عن الحجرة المؤثثة الجديدة .. عن السرير والدولاب ، عن نقودها التى أخذت منها بلا حساب لتأثيث منزلها.

ولكن ماذا ؟ ٠٠ قادتها فتاة عرفت من ثرثرتها أنها سلفتها ، قادتها الى قاعة بها حصيرة ومرتبة ومخدتان ، ثم صندوق خشبي كبير ٠٠ وكرسى قصير ذو ثلاث أرجل وطشت نحـاس قديم وأوان ملقاة هنا وهناك ٠٠

ماذا ؟ أين ؟ أين جهـازى ؟ أين منزلى ؟ أين سأعيش ؟ وكادت كريمة تسقط من التعب والدهشة ٠٠

وانفجرت فى بكاء هستيرى أليم ٠٠ وأخذ العم ٠٠ وأخذت زوجته ٠٠ وأقبلت عليها تحتضنها لتزيل ما بها وهى لا تعلم أنها تزيد فى عذابها واشمئزازها من كل ما حولها ٠٠

ولكن كريمة ٠٠ كريمة التى علمتها الحياة مجابهة الواقع والاعتماد دائما على ذكائها وحسن تقديرها للأمور ٠٠ لم تلبث أن هدأت وفكرت ٠٠

فكرت فى مصيرها ٠٠ ماذا يا كريمة؟ لقد عشت حياتك للآخرين ٠٠ عشت على هامش الحياة ٠٠ ليس فيها ٠٠ والآن سيبدأ كيانك بالرغم من كل شىء ٠٠ سـيصبح هناك من يفرح لفرحك ٠٠ ويحزن لحزنك ٠٠ فهيا يا كريمة تحملى واجعلى من هـذه الدار شيئا يجعلك سعيدة ، بالرغم من المرتبة والحصـيرة والمخدتين ٠

ولم تمض أيام حتى طالبـوها بأن تساعدهم فى الخبيز ٠٠ ثم تنظيف الدار والزرائب وعشش الدواجن ٠ ثم عليها أن تحمل الطعام للرجال فى الحقل ٠

وخلعت الحذاء ٠٠ وسارت حافية ٠٠ وأخذت الخشونة تكسو قدميهـا ٠٠ ولبست الثوب الاسمر الطويل وأصبح فى كل يوم عليها ان تقوم بعمل جديد فالكل يعمل ٠٠ ولكن ! ٠٠ ان عملها فى المنازل لم يكن بهذه القسوة ٠٠ اين النزهات فى السيارة مع الاولاد وعلى الشواطىء ٠٠ ودور السينما ٠٠ وسماع الاغانى ٠٠ من الراديو ليس هنـاك شىء من ذلك ٠٠ عمل ٠٠ وكد وارهاق دون اجر ٠٠ ومع التافه من الطعام ٠٠ حتى الكلمة الحلوة ٠٠ لم يلبثوا ان ضنوا عليها بها ٠٠ ولم يكن هناك بوادر خير قريب ٠٠ فعمها دائما يشكو ٠٠ قلة المحصول وكثرة المصاريف ٠٠ وسيطرة المالك ٠٠ وفداحة الايجار ٠٠ وابنـه بجانبه مسلوب الارادة ٠٠ معدوم الحيلة لا يفعل شيئا ولا يطالب بشىء ، ولاحتى بها ٠٠ زوجته التى لم ينعم بها بعد ٠٠!

وفى يوم تعاركت معهـا سلفتها ، وانضمت لها زوجة عمهـا ٠٠ وتعالت عليهم ٠٠ فصرخت فيها قائلة :

ــ ما كل هـذه العنظزة والامارة الفارغة ؟! ٠٠ ماذا تظنين نفسـك ؟ ، ما انت الا خادمة تربت على لعق الصحون ٠٠ فلماذا كل هذه العظمة ؟ ٠٠

وعندما رجع محمود وجد عينيهـا مقرحتين والغضب باديا على وجههـا فسألها بلطف :

ــ مالك يا كريمة ؟ ٠٠ خيرا ؟ ٠٠

ــ لقد بهدلتنى زوجة اخيك ٠٠ وامك

وأنا لا استطيع احتمال هذه الحياة وهذا الهـــوان ·· ولقد تعبت ·· اذا كنت تريدنى حقا ·· فلنعش وحدنا ولتعمل بالاسكندرية أو نعمل معــا لنعيش ·· فقد مللت هذه الحياة ·· !

وكانت تنتظر ان يثور أو يؤذيهم على فعلتهم ·· ان يقف بجانبها ان يدافع عنها ولكنه ·· ولكنه محمود الهـادىء الطيب ·· لا يجرؤ على رفع صوته فى حضرة والديه مهما فعلا ··

فخفض بصره وقال فى همس :

ـ معلهش يا كريمة ·· ودول أهلك برضه ·· دى مصارين البطن بتتعارك ·· استحملى شوية ·· لاجل خاطرى بكره تهون وتتعدل ! ··

ـ متى ؟ ·· متى تهون وتتعدل ؟ ·· متى يحضر لى ابوك حقى ؟ ··

ـ ما باليد حيلة يا كريمة ·· هــل اجعـــله يسرق أو يســتدين ؟ ·· فلننتظر ·

ونظر لها بعينيه الصـــغيرتين نظرة بقيت فى قلبها ·· وكان بهما الكثيرمن الحب ·· والعطف والرجاء ·· وكانت كريمة تعلم أنها له كل شىء ·

ولكنه طيب ·· بار بوالديه ·

وبقيت كريمة الليل ساهرة مسهدة ··· يتنازعهــا خاطران تجذبهــا حينا حيــاة الاسكندرية بما فيها من رفاهية ومرحومكسب وخير ··· وقد مر عليها هنا أربعة شهور ··· تعمــل دون أن تكسب مليمــا ··· لا تحصــل الا على لقمة العيش ··· ويجذبها حينــا آخر ارتباطهــا بمحمــود ذلك الفتى الطيب الذى يعزها ··· وسيكون رجلهــا ·· وزوجها·· ولكنه لم يستطع أن يحميها أن يوفر لها شيئا مما تريد ···

واخيرا حــزمت أمرها ··· وعرفت ما تريد ·· وفى الصباح ··· عنـــدما انصرف كل الى عمـــله تنــاولت صرة ملابسها ··· واتجهت الى الاسكندرية لا تلوى على شىء ·

وأوقعها حسن حظهــا فى الســيدة الشابة سهام ··· فأحبتها ثم أكرمتها لاخلاصها وجدها وتفانيها فى خدمتها ··· وتعلق بها الصبى أشرف ···

وأصبحت معروفة فى العمارة الكل يعمل لها ألف حساب فهى حازمة ··· تعطى الطعام الباقى من المنزل لمن تريد ··· ومن يرضيها بالاكرام والاحترام أما من تخول له نفسه مغازلتها أو التهاون فى حقها فويل له ··· فلسانها سليط قاس لا يرحم ·

ـ من تظننى ··· أتظننى احداهن ··· فلتفتح عينيك جيــدا ··· فأنا كريمة ··· ومرت بهــا الايام ســعيدة وزاد رصيدها عنــد ســيدتها جنيهات وجنيهات ولم يعرف أحد من عائلتهــا مكانها حتى ولا أختها ···

حتى أتى يوم ··· كانت عائدة من السوق ··· تحمل سلة ملأى بالخضر واللحــم والفواكه ·· وتعــود كل من يراها من العاملين فى العمارة ألا يتعرض لها ··· فهى ··· كريمة ···

ولــكن فى ذلك اليوم كان هنــــاك الاسطى فتحى ··· سائق عربة الدكتور عبد الحميــد ورأى كريمــة ··· رأى القوام الممشوق ··· والصدر الناهد ··· والشــعر الاسود ذا الضــفيرتين

الطويلتين ... والعيون الكحيلة ... والسمار الرائق ... والمريلة ذات الاكمام المشمرة .. تكشف عن ذراعين ناعمتين ... رأى كل هذه الفتنة تكاد تتهاوى تحت ثقل السلة الكبيرة المملوءة بالخضر والفاكهة .

وكان يسمع عنها ... ويعرفها .. فقفز من السيارة على عجل وأسرع اليها ... باسما بلطف :

ــ عنك يا كريمة ... أعطنى السلة لأساعدك على السلم ...

ونظرت كريمة ... وبعينيها شر وعلى لسانها ذلك السيل من الشتائم الذى تعودت أن تقذف به فى وجه من يتعرض لها ...

ولكن الكلمات تهاوت قبل أن تصدر من بين شفاهها تبخرت وهى تنظر الى الاسطى فتحى ببذلته الرسمية وشبابه وأدبه ... وصدقه الظاهر فى عينيه ليساعدها ... يساعدها فحسب .. ولم تلبث نظرتها أن وقعت ... وتداعت ذراعاها تناوله السلة ...

وسارت خلفه ساكتة... ولمحها من هم هناك ... من البوابين وبائعى الكازوزة وتعالت الضحكات ... تصفعها صفعا ... والكلمات الساخرة وكأنها سياط تلهب ظهرها وأذنيها .

ــ اشمعنى يعنى ... والله تلتها ... حلال عليك يا عم ...

ولم تلتفت كريمة ...

وأوصلها الاسطى فتحى الى باب الشقة ... وشكرته بنعومة ولطف .. ودخلت لتلمح صورتها فى المرآة هناك ... ووجدت أذنيها محمرتين ..

وفى يوم خرجت تنزه الطفل كعادتها ... فى عربته الصغيرة .. وقاربت الحديقة عندما سمعت صوتا خلفها :

ــ ازيك يا كريمة ... كيف حالك ...؟!

ــ الله يسلمك يا أسطى فتحى .. الحمد لله ..

ــ لقد لمحتك .. وسرت لأحادثك قليلا ... فلم أرك منذ أيام ...

واحمرت أذنا كريمة ... وارتبكت ... ولكنها لم تشعر بنفسها الا وهى تقول فى دلال :

ــ وفيم تريد أن تحادثنى يا أسطى فتحى ..

ــ ألم تشعرى يا كريمة بعد ... ألم تشعرى باهتمامى بك... وتفكيرى فيك ... أنى ... اننى أراك يا كريمة ... فاسعد كما لم أسعد فى حياتى ...

أنت أصبحت لى ... كل شىء ... أصبحت أجمل ما أحلم به ... وأحلى ما أراه ...

ــ ماذا جرى لك يا أسطى فتحى.. هل جننت لتسمعنى هذا الكلام ...؟!

ــ اعذرينى يا كريمة ... أعرف أنك لا تسمحين لأحد بالاقتراب منك أعرف ولكن... أنا لقد حدث كل شىء غصب عنى ... حدث وأنا أراقبك من بعيد ... أراقبك وأنت تنظفين السجاجيد من الشرفة وتلمعين الزجاج ... وتاتين من السوق وتنزهين الصبى ...

تولد شعوري نحوك وأخذ ينمو .. دون أن أدرى وأنا أراك أمامى بجمالك ولطفك كل يوم ... ووجدت اليوم أنه من الافضل أن أخبرك ... أن تعلمي أنني أحترق بنار لا تشعرين أنت بها ... أنك يا كريمة أصبحت في حياتي .. كل شيء ... وأنت .. أنت لا تحسين بى ...

ـ كيف يا أسطى فتحي.. ألا تعرف ... ألا تعرف أنني ... أنني ... أنهم قد عقدوا قراني على ابن عمى .. فما غرضك اذا... اذا كان غرضك العبث ... فابتعد عني... فانا لست منهن ...!!

وكان في لهجة كريمة قسوة وتهديد ... ولكن الاسطى فتحى نظر لها نظرة عتاب حلوة أذابت صلابتها وأعادتها... أعادتها تلك الانثى الوديعة الناعمة ...

ـ كده ... كده برضه ياكريمة.. دا أنا أحافظ عليك زى عيني ... ده أنت أغلى عندى من روحى ... وحياتي ... وأنا عارف كل حاجة عنك ... ويمكن ده اللي جعلني أتعلق بيك أكثر ... عارف اللى عمله فيك عمك وأهله ...

حكت لى البنت فتحية اللي عندنا في البيت ... وأنا حاكون لك ياكريمة كل شيء حاكون لك الأب والأم والأخ.. وابن عمك ده لا يستحقك لو راجل صحيح كان بقى عليك وصانك وجعلك ست في البيت بدل المرمطة ...

وشعرت كريمة برعشة تسرى في كيانها ... رعشة لم تشعر بها من قبل ... لم تشعر بها حتى وهى في نفس المنزل مع ابن عمها ...

شعرت أنها أمام رجل ... رجل يحميها ويكافح لاجلها ... شعرت بالرجل الذى تضعف أمامه وتشعر بأنوثتها وكيانها ... لم ينتابها هذا الشعور أبدا .

كانت أمام ابن عمها المسيطرة الآمرة الناهية لم تحس بهذا الاحساس الطاغي الذى يسيطر عليها ... الذى تشعر به المرأة أمام رجل واحد في حياتها ... أو رجل حياتها ... رجل ... مهما كانت قوتها ... وقسوتها وعظمتها .. تضعف أمامه .. وتتلاشى وتصبح وتصبح لا شيء .

وهانت في نظرها جميع القيم ... وكل ما كان يشغلها من قبل ... وذاقت سحرا جديدا ... لم تكن تعرفه ... وأصبح الاسطى فتحى محور حياتها ...

لا تخرج الا في مواعيد وجوده في أسفل العمارة ... لتحييه برقة ... وتتقوت بابتسامته وتشرب نظرته العميقة التى تسرى في دمها وكانها تهمس بها بكلام وتنقل لها أشواقا... وأشواقا ... يكفيها أن تتزود بتلك النظرة لتقبل على عملها سعيدة تغنى.. وقلبها يزغرد .. وعيناها تشعان بالسعادة والفرح ...فهي راضية عن كل ما حولها ... وكل من حولها .. وكأنها قد امتلكت الحياة بين يديها .. والسعادة في أحضانها ...

وبعد الظهر تقابله عند الحديقة لتستمع ... تستمع لأحلى ما سمعته في حياتها ...

ـ لقد أوحشتني منذ الامس يا كريمة ...

ـ صحيح يا سى فتحى ...

ـ طبعا يا كريمة ... ان الثوانى تمر بعيدا عنك بطيئة رتيبة وتصبح وأنا معك جميلة ... لذيذة ... آه يا كريمة..متى تجمعنا دار واحدة... وننتهى من هذا الفراق ... وهذا العذاب .

اننى فى شوق لك ياكريمة .. فى شوق لك حتى وأنا معك كأن بك سحرا .. وسحرا يجذبنى اليك .. اليك فقط دون فتيات الارض جميعا..

وتسرح كريمة فى هذه الدنيا الحلوة ... دنيا حبها ...

ـ لقد قررت يا أسطى فتحىأن أرسل أختى لعمى ... وسأواجه بطلبى حتى يخلصنى ابن عمى من هذا الرباط .. فما كنت أعلم أن بالحياة ... هذا الشعور الغريب الذى أحسه نحوك .. وهذه السعادة التى لا أحسها الا وأنا معك ...

وأصبحت كريمة شيئا آخر ... عميقة ... ساهمة شاردة ... قلقة .. كيف تخبر عمها .. كيف تتخلص من رباطها بابنه أيقتلونها؟.. أيثورون عليها ؟.. كيف ؟.. كيف ؟ ..

انها تعلم أن تقاليد الريف قاسية لا ترحم ...

مامصيرها معهم ؟.. وما مصيرها مع فتحى ؟.. فتحى الذى أصبح فىحياتها كل شىء ... تكفيها نظرته من بعيد لتعيش ... ولكنها لا تستطيع ... لا تملك أن تعيش بدونه ..

وذهبت الى المنزل الذى تعمل فيه أختها ... واستقبلتها مهللة مرحبة ... وكأنها عثرت أخيرا على أمنية طالما اشتاقت اليها ... وسالت دموعها تأثرا :

ـ اهكذا ياكريمة ؟ اتنسين اختك؟.. وأنت التى بقيت لى فى الدنيا بعد والدى ...!!

ـ معلهش يا حميدة اعذرينى ... أنت تعرفين الظروف وكنت أخشى .. أن تخبريهم عن مكانى ...

ـ أنا ياكريمة... أنا أختكحبيبتك ولا أفعل الا ما تأمريننى به...وعجبت كريمة لحنان أختها .. لم يكن بها صلابتها ... فقد تربت فى حضن والديها... ولم تتعود الوحدة والعزلة مثلها ... واستدركت حميدة ...

ـ اننى سعيدة لك يا كريمة ... ان ابن عمك قد دفعه حبه لك وتمسكه بك الى أن يستقل عن أبيه واشتغل عاملا بشركة كفر الدوار وستعطيه الشركة مسكنا نظيفا مريحا.. به المياه والكهرباء ... وسيوفر لك حياة مثل حياة الاسياد التى تعودت عليها ...

محمود ... لقد عمل شيئا لأجلها ... لقد تخلص من سلبيته ولكن متى ... بعد فواتالاوان واستمرت حميدة والسعادة تشع فى عينيها :

لم يعد هناك حياة أسياد وحياة عبيد... سيجعلك تعيشين كماتعودت ... فالنظم الجديدة بالشركات لا تفرق بين الموظف والعامل ... وتوفرلكليهما حياةكريمة مرفهة... وقال انبالشركة ناديا ... ودورا للسينما... وجمعية تعاونية للعمال فيها كل ما يحتاجون

اليه ··· وتنظم الشركة للعمال وزوجاتهم رحلات ونزهات للقاهرة ولكل مكان ··· وهو سعيد بكل ذلك لاجلك يا كريمة وهو يبحث عنك ··· وفى انتظار عودتك ··!!

وسرحت كريمة بخاطرها بعيدا ·· بعيدا عن سعادة حميدة وسقطت دمعة على خدها ··· عجبا لتلك الحياة ··· اننا نتمنى شيئا ··· ونحلم به فتبخل به الدنيا علينا ··· ثم حين تهبه ··· يكون قد فات أوانه وليس له فى نفوسنا فرحة ولا لهفة · لكم تشوقت لمثل هذا البيت ··· ومثل هذه المعيشة الكريمة ··· ولكنها الآن لا تريد ··· لا تريد إلا فتحى ···

يتساوى عندها أن تكون معه فى طريق ·· أو حديقة فى قصر أو على رصيف ·· ان وجودهما معا هو الحياة هو الوجود ··· هو الامل··· وأسرت الى أختها بما فى نفسها وهى تبكى ·· وجزعت الاخت ··· ولطمت خديها ··

ـ يا للفضيحة ··· أتطلبين الطلاق فى سبيل غريب عنك ··· بعد أن فعل محمود كل ذلك لأجلك ·· بعد أن خلق منه حبك رجلا وعمل وجهز لك بيتا يليق بك ··· انه ابن عمك يا كريمة وهو أولى بك ··· انه نصيبك ياكريمة فلا تخذليه ··· ماذا سيفعل بنا عمك ··· وابنه وأخوه ··· والعائلة ··· وكانت كلمات أختها تطن فى أذنيها وأغمضت عينيها هربا ··· وتصورت فى خيالها ذلك البيت الذى ينتظرها وتصورته بدون فتحى فلم تر ··· لم تر الا سجنا ··· وقضبانا ··· وعذابا أليما ···

لقد قضى الامر ··· لن يمكنها أبدا العيش بدون فتحى ··· مهما كان الامر وهى تحمل من عذاب فهو أهون من نار الفراق التى تحسها اذا ما غاب عنها فتحى ···

واتى يوم عطلتها ··· وخرجت كعادتها وهى فى سبيلها الى فتحى ··· الى فرحة عمرها ··· الى روح شبابها ··· وسارا ··· سارا كما تعودا أن يفعلا فى الطريق جنبا الى جنب ··· تتلامس أيديهما تارة ··· ويحفوا عليها ويضمها تحت ذراعيه أخرى ··· وهى تكلمه ··· وتحكى له···وتخبره بكل ما فى قلبها ··· وما يشغلها وكانه دنياها وسندها ··· وسالت دموعها غزيرة وهى تحكى له عن ابن عمها وما فعله لأجلها ··· وزاد عطف فتحى وليفته عليها وأحاطها بذراعه وكانه يخشى أن تضيع منه وكانه يدفع عنها هذه الأفكار التى تتناولها الهموم التى تعذبها ··· وكانا فى طريق خال مقفر ··· وهما فى غمرة مشاعرهما غارقان فى احساس مشترك ··· وفى لحظة·· وجدا ثلاثة رجال يحيطون بهما فى ملابس بلدية طوال عراض ··· كل منهم ضخم الجسم قوى العضلات ··· وكانوا ينظرون اليهما فى غضب ··· وقال أحدهم : ما شاء الله ··· أهكذا تتطارحان الهوى على قارعة الطريق ·· هيا بنا الى قسم البوليس ··· ستعرف كيف نؤدبكما فى مكتب الآداب هيا بنا

والجمت الدهشة لسانهما ··· ونظر فتحى من حوله ··· لا يدررى من أمره شيئا ··· ولا يعرف كيف يتصرف وعمل عقله بسرعة ··· وخطر له أنه

في مأزق يسبب لكريمة مشكلة كبرى ... فهي في عصمة رجل آخر ... وسينالها من المتاعب مع البوليس ومع أهلها الكثير بسببه مما هي في غنى عنه ...

ولم يلبث أن قال في نفسه :

انني أراهم يمسكون بكريمة ... ويتركوني أسير خلفهم... الحل الوحيد أن أهرب ... فلا يوجد لديهم دليل ضدها وسأستغيث بسيدة كريمة ... وهي تحبها وتعطف عليها... وستعمل على خروجها من هذه الورطة ... والا فسيتفاقم الامر اذا ما قبضوا علينا معا ... وسأكون سببا في ضرر كبير لكريمة ...

ولم يطل به الامر حتى هب جاريا ... والدهشة لم يجد من يجري خلفه أو يتبعه... وأدهشه تمسكهم بكريمة دونه ... ومضى ... تاركا كريمة لمصيرها ... مصيرها الذي لم يعلمه أحد سواها ... وسوى هؤلاء الرجال المجرمين والاشرار ...

ساروا بكريمة ينتقلون من شارع الى شارع ومن حي الى حي ... وكريمة يقظة تنتفض هلعا ... ولكنها ساكنة ساكنة وحز في نفسها هروب فتحي .. ماذا ؟.. أيتركها هكذا لمصيرها وحيدة ... ماذا سيفعل بها رجال البوليس ... وكيف سترد عليهم وماذا ؟... وماذا ؟... وكلت قدماها من السير وتباطأت أعياء ... فاذا بالرجل الذي خلفها يدفعها على ظهرها دفعة قوية قاسية ...

ـ هيا ... اتتعبين من السير ... بس شاطرين تحبوا في الشوارع أمام الخلق ... وسارت كريمة منكسة الرأس وتخطو شريط السكة الحديد ووجدت نفسها في أرض فضاء مقفرة وساروا وساروا وهي تتساءل أين هو ذلك القسم ؟.. وأخيرا لمحت حائطا مهدما وبجانبه تقف سيارة طويلة .. بها رجل لا يقل عنهم قسوة ولا ضخامة ...

خرج من السيارة عندما لمحهم ... ونظر لها نظرة وقحة وكأنه يخلع عنها ملابسها .. ولم تمض دقائق حتى كان أحدهم يدفعها بين ذراعيه خلف السيارة ويحاول أن يحتضنها ويقبلها وفوجئت كريمة بما يخطر ببالها ... وصرخت بكل ما في صوتها من قوة وضربته في صدره وقد حلت في يديها وجسمها قوة خارقة وكأن المصيبة التي وقعت بها قد سلحتها بتلك القوة واستمرت محاولات الرجل ومقاومتها له ودفعها أياه عنها حتى أتى الآخرون ضاحكين وتجمعوا حولها وكل منهم يحاول أن يمسك بها ويلينها وهي تصرخ وتستغيث وتتوسل اليهم حينا بكل غال وحينا تركلهم وتضربهم ويزداد صراخها حتى هلعوا وكتم أحدهم أنفاسها ...وهو يشتمها أقزع الشتائم وانهال عليها الباقون ضربا وركلا وهي ما تزال تقاوم وتقاوم ... ولمحوا اثنين من الرجال آتيين من بعيد فهلعوا ...وتعالى صراخ كريمة وزادت ضرباتهم وركلاتهم لها بغل وقسوة وكأنهم ينتقمون لما فوتته عليهم من فرصة شهية ... واقتلع أحدهم سلسلتها الذهبية واستولى الآخرون على كيس نقودها وركلها الثالث بقدمه وهو يلقى بها بجانب السور ولم تمض دقائق حتى كانوا قد استقلوا

السيارة وجنحوا الى الهرب عندما أصبح القادمون على مرمى البصر ...

وارتمت كريمة تئن ... لا تكاد تقوى على رفع صوتها أو طلب النجدة أو حتى الحركة وشعرت بأرجل تقترب منها ... فنظرت بوهن وهي لا تكاد تعي لتجد رجلا وسيدة عجوزا :

ـ مالك يا بنتي ؟.. ماذا جرى لك ؟..

وأجابتهم بدموعها وواجهتهم بوجهها المغطى بالكدمات والجراح .. فذعروا واسندوها وساروا بها حتى عثروا على عربة ... وقادوها الى المنزل ... وها هي ذي .... تداري خجلها وألمها .. ولكن المنظر لا يلبث أن يمر أمام عينيها فينتابها الذعر والرعب ... وتصرخ باكية ... ولا تكاد تصدق أنها قد نجت منهم ... من هؤلاء الوحوش .

وفي الصباح ... كانت كريمة منهارة تماما وعيناها تبرقان في لا شيء وذعرت سهام واحضرت لعيادتها صديقة لها ... تعمل طبيبة ...وذعرت منها كريمة... وأخفت وجهها خجلا فلاطفتها الطبيبة وحادثتها بحنان ولكنها لم تتلق منها سوى دموع وبكاء وأنين ورفضت الدواء ... ورفضت الطعام ، وأخبرت الطبيبة سهام ان الفتاة مصابة بانهيار عصبي شديد أثر صدمة عنيفة وأوصت لها بحبوب مهدئة للأعصاب وابر مقوية..

أما الاسطى فتحي فقد ظل يرقب المنزل قلقا ... لا يهدأ له خاطر ... وعيناه تنظر هنا وهناك يريد أن يلمحها ... أن يراها ... يطمئن عليها ... ولكن ... لا أثر لها .. وفقد ما تبقى له من صبر وصعد بالرغم من كل شيء لمنزلها وقال لسهام :

ـ سيدتي ... أرجو أن تطمئنيني على كريمة ... فانا أكاد أجن من انشغالي عليها ...

ـ كريمة بخير ... ولكنها مريضة ... وأنا أعالجها الآن ...

ـ ماذا جرى لها ... أيمكنني أن أراها ... ولو لحظة... وفكرت سهام ... ربما رؤيتها للأوسطى فتحي قد تساعدها وتعاون على شفائها ربمايمكنه فعلا أن ينقذها مما هي فيه من ضياع وذهول ...

وتقدمته في سكون وسارت به حتى حجرة كريمة ..

ـ كريمة الاسطى فتحي يريد أن يطمئن عليك ...

ولم تتلق سهام سوى عواء وأنين واستنكار واتهام ... وانفجرت كريمة :

ـ الجبان ... لقد تركني وهرب.. وخاف على نفسه من البوليس ... وتركهم يفتكون بي .. لم يكونوا بوليسا كانوا وحوشا ... انني أكرهه ... لا أريد أن أراه ...

وانسحب الاسطى فتحي خارجا .. مطأطىء الرأس وأعطت سهام الدواء المسكن لكريمة لتهدأ وتنام ...

وبعد عدة أيام حضرت حميدة ...

وساءها حال أختها ... ولكن لم يخبرها أحد بشيء ... وطلبت منها كريمة في خجل وهي تخفض عينيها الى الارض :

– اذهبى يا حميدة لابن عمى ... وأخبريه عن مكانى ... فأنا فى حاجة اليه ...

– ولكن يا كريمة أنت مريضة ... ألا تنتظرين حتى تشفى ؟..

– لا يا حميدة ... لن يشفينى الا أن أبعد ... أبعد عن البندر بحلوه.. وزينته ... ومظاهره الخداعة ... أريد أن يلطخ ثوبى وحلهم ... وحل الريف الطاهر لا لا هـذا الوحل ... ونظرت للثوب الممـزق وبكت ... ولم تفهـم حميدة شيئا ... و

وبعد أيام حضر محمـود ... حضر وحده لاول مرة حضر وقد تغير وأصبح واثقا بنفسه معتزا بشخصيته ورحبت به كريمة وحيته وهى تنظر له باعجاب واحترام ... وتنقل بينهما الحديث .

وبعد أن خرج قامت كريمة من الفراش لاول مرة ... قامت واستحمت وأكلت ولبست أحلى أثوابهـا وداعبت الصبى ... وراحت تحادث سيدتها .

– سيعود محمود ليصحبنى الى منزلنا فى الاسبوع القادم .

– مبروك يا كريمة ربنا يهنيكم .. أنت تستحقى كل خير ...

– لن أنسى جميلك وعنايتك بى يا ستى ... لولاك لمت كمدا وحزنا ...

– لا تذكرى تلك الحادثة مرة أخرى يا كريمة ... أنسيها تماما ...

– يا ريت يا ستى ...

– ومحمود بقى جهزلك بيتك .

– أيوه يا ستـــى ... وبيقول انه مجهـز كل حاجة ولا ينقصـــنى الا أن أذهب اليه ... وحتى الراديو اشتراه لى بالتقسيط من الجمعية التعاونية فى الشركة ... وبقى عامل يا ستـى أد الدنيا ...

بيقول لى ده مفيش فرق فى الحقوق اللى الشركة بتديها له بينه وبين موظف بيقول لى كلام حـلو يا ستى بيقول لى الناس كلهم بقوا زى بعضهم وحيعيشوا زى بعض ... ده هو الوقت اللى كنا بنحلم بيـه ... الفقـير نه حق يعيش ويتمتع زى الغنى طول ما هو بيشقى ويشتغل للبلده ...

– طبعا يا كريمـة ... ده اسـمه المجتمـع الاشـتراكى اللى بقى بعـد الثورة ...

ونظرت كريمة لسهام ... تحاول أن تحل هذا اللغز الذى سيجعلها تعيش مع محمود ... تحيا معه حياة الاسياد التى تعودتها ... ولكنها لم تفهم شيئا كبيرا كل ما فهمتـه أنهـا ستحيا ... ستعيش كمـا كانت دائما تأمل وكمـا كانت ترى فى أحلامها .. أحلام الفتاة المكافحة الطموحة .

وجاء بعـد أيام ... وتبعتـه .. وسارت بجانبه فى ثقة وأمل ...

حورية

بقلم : كمال حمدى

واخيرا وصلت ..

حقيقةبقيت مشكلة صغيرة مااهونها من مشكلة قالوا لى - من يسير على الطريق - حتما يصل ... ولقد سرت متبعا تعليماتهم كادق ما يكون.. ووصلت فى النهاية .. لم يبق سوى ذاك المشكل الصغير .. ما اهونه من مشكل

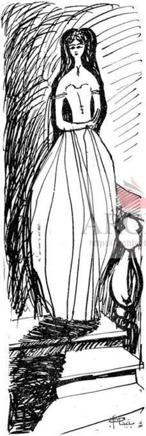
فى بداية الطريق .. شغلنى عنه .. ذاك الحلم الذى يراودنى عن نهايته .. ورود وبساتين .. زهور هنا وهناك .. وريحان .. ما اطيب رائحته الذكية .. كل هذا فضلا عن «الست حورية» .. الست حورية التى وهبت نفسها لكل من يطرق بابها .. تهبهم كل مايطلبون .. سعادتها فى ان تهب دائما .. لاتبخل ولا تكل .. فقط عليك أن تصل اليها وتطرق بابها فى ظلمة الليل .. ولك ان تسال كل ماتريده .. ستجده لديها.

عشت فى ذلك الحلم .. بينما اسير فى طريقى اليها .. خطوات وخطوات .. حتى شعرت ببعض التعب فى قدمى .. فقط هنا احسست بالطريق الذى اسير فيه .. تلفت حوالى .. فاذ هى الصحراء الجرداء لا ظل لأحد ... ولا رفيق .. والسماء خالية حتى من السحاب .. ليس هناك سوى الرمال الصفراء والشمس وانا .. رمال وشمس وانا كل ما هناك ... وحيد انا على الطريق .. طريق لا تبدو له نهاية .. وما زالت فى النفس ذكرى عن بدايته ..

من الذى اتى بى هنا ..؟ حديث عابر فى مقهى نجلس اليه .. كم حدثنا رضوان عنها .. امراة مليئة بالانوثة .. تهب السعادة لكل من يطرق بابها .. واخذ حديثه بكل الالباب .. حتى صرنا جميعا نتشوق الى سماعه كما نشتاق الى سماع سيرة الظاهر بيبرس. وسيف بن ذى يزن .. كنا نظن حديثه خرافة .. الى ان عاد الشيخ حمزة من عندها بعد ان ارتحل عنا وغاب ثلاث سنوات .. عاد يحدثنا عنها نفس الحديث .. وان كان بوقع اجمل يستمده من الواقع المرير الذى نعيش فيه .. ولكم خالجنى سؤال عنيد ..

***

لماذا عاد اذن الشيخ حمزة .. مادام قد عثر على السعادة التى نحلم بها بين ضبابات الدخان المتصاعدة من افواهنا ... وكثيرا ما كنت اهم ان اساله ذاك السؤال فى الجمع المحتشد



المنصت الى حديثه المتشوق .. ولكنى دائما كنت اوثر الصمت .. خوفا ان أعكر السهرة بسؤال سخيف .

وفى ليلة آثرت ان اصحبه الى بيته بعد انتهاء السهرة ودار فى ذهنى السؤال الملح وانتهزت فرصة الظلام الذى يلفنا سويا.. فبادرته بالسؤال.

ـ ايه .. لماذا عدت اذن يا شيخ حمزه من عندها ...؟

لم يفاجأ الشيخ حمزه كما كنت احسب .. بل صمت لحظة واجاب وبريق عينيه مسلط على ..

ـ سؤالك ليس وليد اللحظة ... لقد لمحته فى عينيك منذ زمن طويل محمود .. هذا امر الله .. وامر الله مطاع .. محمود .. اذهب اليها فانك من رجالها ... وهذا هو مصيرك .. وانى المح فى غيابات المستقبل ماينتظرك من سعادة .. اذهب ان الطريق شاق ولكن النهاية مجزية .. فكر فى الامر وترو .. وان عزمت فآتنى غدا بعد منتصف الليل .. لازودك بنصائحى.. وعلامات الطريق .. ترشدك خوفا من الضلال .

***

وقد كان ... بقيت .. بقيت ليلتى مسهدا..وغداة يومى شاردا..لا أدرى فيم السهادوفيم الشرود..فلقد اتخذت قرارى منذ حدثنى هذا الحديث ... وذهبت اليه فى منتصف الليل ولم يستغرق حديثنا سوى ساعة بدات فى اثرها رحلتى فورا اليها ..

وحيدا صرت فى الطريق .. وكثيرا

ما صادفت المشاق .. حر شديد .. وتعب اشد .. وجوع وعطش ... وهواجس وظنون .. وخاطر ندم ينمو نمو الايام ... يراودني ... الم اكن سعيدا حيث كنت .. كانت هناك ثمة عروس تنتظرني .. وكان كل شيء معدا لاستقراري وهنائي .. وتمضي حياتي كما مضت حياة الكثيرين من قبلي .. فلم استمعت الى هذا الصوت ؟ ولم آثرت الرحيل .. وهذه المشقات التي تبدو لا نهاية لها .. ايه .. المكتوب على الجبين لا بد وان تراه .

واخيرا لاحت نهاية الطريق .. وبدات المدينة بمعالمها كما حدثني الشيخ حمزة .. وولجت اول طرقها .. فهالني ما ارى .. لم ار سوى مدينة صغيرة تكاد تشبه قريتنا .. اهذا ماحسبته .. لقد خلت في احلامي مدينة ذات قباب عالية .. تحف بها الانهار .. طرقاتها مروج خضراء .. اين كل هذا من تلك المدينة التي اسير غريبا في طرقها .. الا انني آثرت المضي .. جميعا يعرفون قصرها .. فتوقفت لأسال احد العابرين :

– السلام عليكم ..

– عليكم السلام .. غريب ..

– غريب .. هل لك ان تدلني على قصر الست روحية ..

– قريب جدا من هنا .. عليك ان تسير في هذا الطريق حتى نهايته ثم تنحرف الى اليمين تجده امامك .

آه .. واخيرا قدوصلت .. وهممت ان اسير حتى ابلغ النهاية سريعا .. ولكنني تذكرت قول الشيخ رضوان .. « للست حورية عادة غريبة .. دائما تنظر الى حذاء اى ضيف يزورها .. ان كان نظيفا لامعا .. تقبل الزائر بترحاب وان كان قذرا متربا تطرده على الفور » .

ونظرت الى حذائي .. فهالني التراب الجاثم عليه .. فرجعت لابحث عن محل احذية .. وطال بي البحث الى ان سالت احد العابرين ..

– الا يوجد محل احذية قريب ..؟

– في بلدتنا لا يوجد سوى محل احذية واحد .. هناك في (ميدان الحياة) .. سر الى الامام ثم انحرف الى اليسار .

***

وسرت سريعا الى « ميدان الحياة » وهناك وجدت طابورا طويلا جدا امام احد الدكاكين (واقتربت) لم يكن سوى دكان الاحذية .. ومضيت الى داخل المحل فتعالت اصوات الإحتجاج .

– ايه بالدور يا اخينا .. ما زلنا منتظرين منذ ايام الى ان ياتي دورنا .. بالنظام .. اتفهم بالنظام ..

ورجعت الى نهاية هذا الطابور الآدمي الطويل .. اقف منتظرا . وسيطول انتظاري .

نعم .. هذه هي مشكلتي الاخيرة .. وكم هي هينة .. على فقط ان انتظر دوري لتلميع الحذاء .

القانون ميت والقاضي حي



قصة أناتول فرانس

ترجمة : أحمد شكري طوب صقال

قال جان مارتو :

وبعد بضعة أيام كنت راقدا فى غابة فنش ، ولم أكن ذقت طعاما منذ ست وثلاثين ساعة ٠

فأخذ السيد جوان يمسح زجاج نظارته ، وكانت عيناه تفيضان رقة على ما فى نظرتهما من حدة ، ثم ألقى على جان مارتو نظرة متفحصة ، وقال يؤنبه :

ـ ماذا ؟ تبقى أربعا وعشرين ساعة لا تأكل ، مرة أخرى ؟

فأجابه جان مارتو :

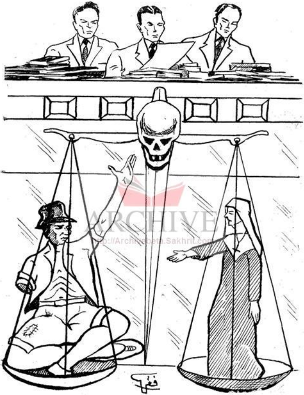
ـ نعم ، فى تلك المرة أيضا كنت لم أذق الأكل منذ أربع وعشرين ساعة ٠ ولكنى أخطأت ٠ يجب أن لا يبقى الانسان بغير طعام ٠ انه أمر لا يليق يجب أن يعد الجوع ، كالشرود ، جريمة ولكن الواقع أن كلا من الجريمتين تنطبق عليهما المادة ٢٦٩ التى تقضى بالحبس من ثلاثة أشهر الى ستة على من لا تعرف وسائل معيشتهم ٠ ويعرف القانون الشرود بأنه حالة المتشردين الذين ليس لهم مأوى معين وليس لهم سبيل معروف للعيش والذين لا يزاولون حرفة أو صناعة ٠ هؤلاء هم أضرى المجرمين ٠

فقال السيد برجريه :

ـ من العجيب أن تكون حالة الشرود التى يعاقب عليها القانون بالحبس ستة أشهر ، ثم بالمراقبة عشر سنين هى الحالة نفسها التى صير اليها القديس الطيب فرانسو رفقاءه فى سانت مارى ديزانج فاليوم لو جاءت بنات القديسة كلير والقديس فرانسوا ديسيز والقديس انطوان دبادوا ليعظوا الناس فى باريس لخاطروا بأنفسهم وتعرضوا للالقاء بهم فى عربة السجن وحجزهم فى ادارة الضبط ٠ على أننى لست أقصد بذلك أن أشى الى الشرطة بطائفة الرهبان الجوالة الشحاذين الذين يتكاثرون بين ظهرانينا الآن ويثيرون الاضطراب ، فان سبل عيشهم معروفة وهم يزاولون كل المهن ٠

فقال جان مارتو :

ـ هؤلاء محترمون لأنهم أغنياء ، والشحاذة حق لا يحرمه غير الفقراء ٠ فلو قد رئيت تحت تلك الشجرة ،



لالقيت فى غياهب السجن ، ولكان ذلك عدلا . فأنا أعد من أعداء الملكية لأننى لا أملك شيئا . والعدل يقضى بحماية الملكية من أعدائها . ان أعظم واجب على القاضى هو أن يؤمن كل انسان على مايملك : يحفظ على الغنى ثروته ، وعلى الفقير فاقته . »

فقال السيد برجريه :

ـ لقد أنعمت النظر فى فلسفة القانون ، فادركت أن كيان العدالة الاجتماعية يقوم على مبدأين ثابتين : ان السرقة محرمة ، وان ما تأتى به السرقة مقدس . هاتان هما القاعدتان اللتان يصان بهما أمن الافراد ويحفظ النظام فى الدولة . فلئن أنكرنا واحدا من هذين المبدأين الحافظين ، لقد تبدد شمل المجتمع وانحلت عراه . انهما قاما منذ تنفس فجر الزمن : عاد سيد القبيلة وكان رداؤه جلد دب وسلاحه فاسا من الصوان وسيفا من البرنز ، فدخل هو ورفقاؤه المكان المسور بسياج من الصخر ، حيث اوى أطفال القبيلة وزمر النساء وقطعان الوعول . لقد أحضروا معهم شباب القبيلة المجاورة وكواعبها وأحجارا سقطت من السماء ثمينة لديهم لأنهم كانوا يطبعون منها السيوف الصلبة . ارتقى الزعيم ربوة وسط الحظيرة وقال : هؤلاء العبيد وهذا الحديد قد غصبتهم من قوم ضعاف أذلاء ، فهم لى وحدى . أيكم يمد اليهم يدا أضربه بفأسى فيلقى حتفه . هكذا نشأت جرثومة القانون ان روحه قديمة بالغة القدم ووحشية ولما كانت العدالة اقرارا للمظالم جميعا كانت أمنا وسلاما على كل انسان .

قد يكون القاضى خير النفس ، اذ ليس كل الناس أشرارا . غير ان القانون لا يمكن أن يكون كذلك ، لأنه نشأ قبل كل فكرة عن الخير ، ولأن التعديلات التى أدخلت اليه على مر العصور لم تغير من أصل طبيعته شيئا . نعم لقد أكسبه الفقهاء الشارعون عمقا ولكنهم تركوه وحشيا ؛ بطشه هو الذى يجعله محترما ويكسبه ماله من جلال . والناس دأبهم عبادة الارباب الشريرة : مالا يكون قاسيا ، عندهم ، غير جدير بالاجلال ، والمحكوم عليهم يؤمنون بعدالة القانون ، لا يذهبون فى الاخلاق مذهبا غير مذهب قضاتهم وكمثل قضاتهم يرون أن العمل الذى يعاقب المرء عليه ، عمل يستحق العقاب وكثيرا ما أثر فى نفسى أن شهدت ، فى محاكم الشرطة ومحاكم الجنايات ، الجناة والقضاة يتفقون اتفاقا تاما فى فكرتهم عن الخير والشر ، انهم على سواء فى ميولهم وتحاملهم ، وناموس الاخلاق عندهم واحد .

قال جان مارتو

لايمكن غير ذلك . ان المسكين الذى يسرق من دكان قطعة لحم أو زوجا من الأحذية تجده ، وهو يفعل ذلك لا يتعمق ولا يتأمل بفكر جرىء فى أصل القانون وأساس العدالة . أما أمثالنا ، الذين لا يهولهم أن يروا فى أصل القوانين اقرارا للعنف والظلم ، فعاجزون عن سرقة مليم

فقال السيد جوبان :

ومع كل ذلك هناك قوانين عادلة

فالتفت جان مارتو الى السيد برجريه فسأله :

ـ أتظن ذلك ؟

فأجابه

ـ لقد أصاب السيد جوبان • هناك قوانين عادلة ، غير أن القانون مشروع لحماية المجتمع ، فلا يمكن أن يكون فى روحه أعـدل من ذلك المجتمع • وطالما كان المجتمع قائما عليه ، فالقـانون للدفاع عن هـذا الظلم وصـيانته • وأجدر القوانين بالاحترام أشدها ظلما ثم لاحظ أيضا أن معظم القوانين عتيق، ومن أجل ذلك هى لاتمثل تمثيلا صادقا ظلم وقتنا الحاضر ، بل ظلم الزمن الماضى وهو ظلم أقسى وأقبح • والقوانين بقية من بقايا العصـور المظلمة تسربت الى عصر أكثر منها ضياء •

فقال السيد جوبان :

ـ ولكنها تعدل •

فأجابه السيد برجريه :

ـ نعم ، انها تعدل • تعدل حينما لا يجد الشيوخ والنواب شـيئا آخر يعملونه • الا أن صميمها باق ؛ وهـو مرير • اننى فى الحقيقة لا أعبأ كثيرا بالقوانين الفاسدة اذا كانت فى أيدى قضاة فاضلين • يقولون ان القـانون لا يلين ، ولكنى لا أعتقد صحة هـذا القول ، فليس هنـاك نص لا يحتمل التأويل • القانون ميت ، والقاضى حى وفى هذا كان امتيازه ولكن الذى يدعو الى الأسف أن القاضى قلما يستمسـك بهذا الامتياز • العادة أنه يوطن نفسه على أن يكون أبرد طبعا وأقل احساسـا وأشد موتا من نص القانون الذى يطبقه فلا هو انسـان ، ولا هو ممن يعرفون الرحمة ، قد أخمدت فيه روح طائفتـه عواطفه الانسانية •

اننى أتحدث الآن عن ذوى النزاهة من القضاة وحدهم •

فقال السيد جوبان :

ـ وهم الكثرة •

فأجابه السيد برجريه :

« هم الكثرة لو عنينا النزاهـة الجارية والاخلاق العامة • ولكن هـل تكفى النزاهة أن تكون عدة الانسان الذى يجب أن يتولى سلطة العقـاب الهائلة دون زلل أو سـوء تصريف ؟ يجب أن يجمع القاضى الصالح بين طيبة خالصة وعقل فيلسـوف • وهـذا مطلب صعب ممن يسعى الى تأمين مستقبله ويريد أن يرقى فى سلك القضاء ، دع عنك ما يستثيره من بغض رفقـائه له وسخط الناس عليه اذا أظهر من الاخلاق ما هو أعلى من المعروف عند معاصريه ، فاننا نسفه من الاخـلاق ما ليس من أخلاقنا • وكل الذين جاءوا الناس بشىء من خير جديد ، لاقاهم بالزراية جماعة المخلصـين • وهذا ما وقع للرئيس مانيو •

هذه أحكامه مجموعة فى مجلد صغير مع تعليقات هنرى ليريه • حينما صدرت تلك الاحكام أثارت سخط القضـاة الصارمين وأفاضل الشارعين • انهـا تنم عن أسمى فكر وأدق نفس ، فهى مفعمة رأفة ، وفيها مروءة ، وفيهـا فضيلة • أما فى دوائر القضاء فقـد عدوا الرئيس مانيو مجردا من العقل القانونى ، واتهمـه أصـدقاء السيد ملين بأنه لا يحترم الملكية حق الاحترام والحقيقة أن الاسباب التى بنى عليهـا الرئيس مانيو أحكامه كانت فريدة فى بابها • لأنك تطالع فى كل سـطر

من الآراء ما هو وليد فكر حر ، ومن العواطف ما لا يصـــــدر الا عن قلب كريم ٠

وتناول السيد برجريه من فوق مكتبه مجلدا صغير الحجم قاني اللون ، ثم قلب صفحاته ، وأخذ يقرأ :

« النزاهة والدماثة فضـيلتان أيسر أن يتخلق بهما انسان لا يعوزه شيء من أن يتخلق بهما انســـان يفتقر الى كل شيء ٠ »

«لاعقاب على ما لايمكن تجنبه» ٠

« لكي يكون الحكم على جريمة الفقير عادلا ، يجب على القـــاضي أن ينسى ، وقتئذ ، ما هو فيه من رغد العيش ، حتى يستطيع أن يضع نفسه ، ما أمكن ، في المأزق الضنك الذي وقع فيه مخلوق قد تنكر له كل انسان » ٠

« يجب على القاضي حين يفسر القانون ألا يقصر نظره على القضية الخاصـــة المعروضة عليه ٠ بل عليـــه أن ينظر أيضا ٠ من ناحية أعم ٠ فيما قد ينجم من حكمه خيرا كان أو شرا » ٠

«العامل وحـده هـو الذي ينتج ، وهو وحده الذي يخـــاطر بصحته أو بحيـاته لفـائدة صاحب العمل ٠ أما صاحب العمل فلا يخـــاطر الا برأس ماله » ٠

وحينئذ قال السيد برجريه وهـو يطوي الكتاب :

ان اقتباسي كاد يكون عفوا لخاطر ٠ انه لكلام طريف ، وانه لصدى تردده نفس عالية ٠

القصة القصيرة بين الأنواع الأدبية

بقلم : نعيم حسن اليافي

تشترك الانواع الادبية فى انها ليست تقليدا لعالم الواقع ، ولا نسخة « طبق الاصل » أمينة عن الاشياء ، وانما هى رؤية « روحية » تعيد خلق الواقع من جديد بغناء أكثر ، أو تخلق واقعا جديدا أعمق من الواقع المباشر ، وأعظم ثراء ، ويسلك الفن للوصول الى هذا الواقع طريقان : طريق الاختيــــار ، وطريق الصنعة ، وتعنى الصفة الاولى أن الفنان حين يستمد مواده من الحياة لا يسلط « عدسة » رؤياه على كل جزئيات الواقع ودقائقه ، ويصنع منها عملا ، مفككا ، متناثرا ، ولكنه يخضع الى قانون صارم لا سبيل الى مخـــالفته هو قانون « الأثر » الذى ينقـل للمتلقى حس الحياة ، أو معناها ، أو دلالتها الخلفية ، أو جوهرها ـ رحيقها ، أو سمها ـ أو قل ما شئت من الاسماء والنعوت ، والفنان نتيجة هذا القانون لا يسقط من عمله كل تفاهات الواقع ولحظاته الميتة ، ويبقى على القســمات المترابطة فحسب ، بل انه مسئول عن زاوية الرؤية ، ولهذا يجب عليه أن يدرك ادراكا مميزا وواعيا لماذا كانت هذه الزاوية دون غيرها من الزوايا هى زاوية الرؤية الفنية الصحيحة .

وقد لا تتضح عملية الاختيار هذه جلية فى بعض أنــــواع الفن كقصص تيار الوعى التى تقوم على التدفق الذهنى ، والتغير المستمر ، غير أن هذا النوع ـ عند الفحص ـ كغيره من الانواع الادبية يخضع لعملية ترتيب دقيقة حتى فى تلك الحالات التى يخيل لنا فيها ان الكاتب يجمع دقائق خبرية تنساب بالتداعى دون ترابط .

أما الصفة الثانية (الصنعة) فهى تتضمن الصفة الأولى ، لأن الاختيار جزء لا يتجزأ من الصنعة ، الا أنها تتسع بعد ذلك لتشمل كل العمليات (الحرفية) ان صح التعبير والتى يتطلبها الفن ، وتعتمد اعتمادا كليـا على مسألة الحبكة (ونقصد بها هنا الهيكل العظمى للعمل الادبى) ، والتى هى شرط لازم وضرورى ، لا يقف دورها عند حد الوساطة ، وانما يرجع اليها كل مبادىء الاسقاط والحذف والتحوير ، ومبادىء العلاقات والنسب والتراكيب ، وبكلمة ثانية مبادىء البنـــاء ، ويمكن أن ترادف من هذه الجهة كلمة (الخطة) ، ولكن يجب أن نفرق بين نوعين من (الخطة) : الخطة الداخلية ، والخطة الخارجية ، وبصـــورة أخرى نفرق بين شكلين : الشكل العضوى والشكل الآلى (الميكانيكى) ، وينبع الشكل الاول من باطن العمل ذاته ، ويتطور من داخله ، ويتم مع عملية الخلق خطوة اثر خطوة ، ومعنى (شكله) هو اكتمال

نموه ، أما الشكل الثاني فانه يخضع للهندسة والتصميم المسبقين لعملية الابداع ، فهو شكل (مكتسب) لا نمو فيه ولا تطور ، يفرض على العمـــل من خارجه بواسطة الحشد ، ولا ينبع بالضرورة منه ·

وتأخذ القصة القصيرة من خصائص هـذا الفن أعمق ملامحه ، وأعلى مراتبه ، وأدق دلالاته ، ثم تقف وحدها بميزاتها ومعالمها تضارع بقية الانواع الادبية وتوازيها، وتتبادل معها بعض سماتها ، وتختلف عنها فى النهاية لتكون (كائنا) قائما بذاته ، يستمد حياته من (شكله) الخاص به ·

ولقد قورن هذا الشـكل منذ أن نشأ واســتقل عن غيره وتطور فى مراحله المختلفة بأشكال أدبية نثرية وشعرية ، وبأشكال أخرى خارج نطاق الادب ، قورن مثلا *بالرواية والمسرحية ، والقصيدة القصصية والغنائية والسوناتا ، كما قورن اخيرا* بالسينما وبفن الرسم ، فما هى علاقته بمعظم هذه الانواع ، وما مدى ارتباطه بها ؟

قد يكون من العسير علينا أن نجيب اجابات محددة وقاطعة فى هــذا الصدد تتضمن تعريف الشكل وتاريخه وماهيته ، ولا تتعارض مع (التقنيات) القديمة أو الحديثة له ، ولكنا ـ على أية حال ـ نستطيع الى درجة كبيرة بالاعتماد على الخصائص المشتركة أو المتميزة لكل نوع والتى أصبحت شبه تقاليد مستقرة له أن نعرف أين تقع القصة القصيرة بين الانواع ·

ولعل أول ما يتبــادر الى الذهن هو قرب القصة القصــيرة من فن الرواية ، فكلاهما يعتمد على أسلوب (القص) ، وليس الفرق بينهما سوى فرقا فى الكم أو الطول ، وربما كان هذا الاشتراك فى (السرد) هو أكبر مضلل لأولئك الذين يحلو لهم أن يقابلوا بين الفنين ، فالحقيقة أن القصة القصيرة تختلف عن الرواية ، بل ان الأمر لايقف عند مجرد الاختلاف ، وانما يتعداه الى أن يكون هذان الفنـــان أبعد مايكونان عن بعضهما فى ميدان الانواع الادبية ، واذا أغضينا مؤقتا عن مسألة الطول ، وعن الأثر الكلى الذى يراه بعضهم أهم فارق بين النوعين فانهما يبعدان عن بعضهما فى موضوعهما (نقصد بالموضوع هنا المعنى الذى يزيد على المجموع الكلى لأجزاء القصة المتفرقة) ، فعلى حين يكون « الموقف » هو الموضوع الغالب على الفن القصير ، يكون رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الفن الطويل (أنظر · اديث هوارتن (كتابة القصة) ص/٤٨) ، ويعتمد الموقف فى القصة القصيرة على (وحدة) تتمثل فى موجة واحدة من الايقاع أو فى دوامة واحدة من النهر ، أى أنه يعتمد على عنصر التركيز ، ولعل من أهم سمات هذا العنصر ، الايحاء أو مايرادف كلمـــة الايمــــاءة (١) ، أما رســـم الشخصية فى الرواية فيعتمد على سلسلة من الموجات ، وعلى عديد من (الدوامات) تتوالى فى مدها وجذرها ، ويجد الكاتب الروائى متسعا لتطوير هــذه الشخصية وتناولها من المنبع الى المصب ، من الولادة الى الموت ، وفى استطاعته أن يلقى عليها وعلى كثير من أحداثها أضواء مختلفة ومن زوايا مختلفة ، صحيح أن الرواية تشكل فى النهاية (وحدة) ولكن هذه الوحدة تختلف اختــلافا جوهريا عن الوحدة فى القصة القصيرة لانها تأتى عن طريق التجميع ·

والقصة القصيرة وقد اختلفت أو ابتعدت عن الرواية فانها تختلف وتبعد عن (أعمـال) نثرية قصصية أخرى قصيرة كالحكاية والاسكتش والحدوتة ، فهذه الاشكال التي يمكن أن نعتبرها - في كثير من التجوز والاحتراز - أدوارا مختلفة ومتداخلة في تطور القصة القصيرة يستطيع أي كاتب كتابتها أما فن القصيرة فهو ليس مجرد نوع مختلف بل انه نوع أصعب وأرقى .

واذا كانت القصة القصيرة تبتعد عن الرواية وعن الحكاية فانها تقترب أكثر فأكثر من فنيين آخرين يبدوان للنظرة الاولى مختلفين عنها ، وهما فن (القصيدة) وفن (المسرحية) ، فالقصة القصيرة تشبه القصيدة في أن « موضوعهما » واحد ، وهو الانفعال التام والكامل ، ويأتي الاختلاف بعد ذلك في (الصورة) التي هي وسيلة التعبير عن هذا الانفعال الموحد والمركز ، ونستطيع أن نقول نتيجة هذا ان الطابع العام والموقف والتعبير لكل نوع منهما يحمله النوع الآخر ، غير اننا نفضل أن نبتعد عن هذه المقابلات لانها ستثير أمامنا مشكلات نحن في غنى عنها ، ونفضل على ذلك أن نقول بأن القصة القصيرة تشبه القصيدة في أن صنعتهما واحدة وهي (صنعة حساسة) .

وتقترب القصة القصيرة من (المسرحية) في حرفيتها (المكثفة) وفي تماسك (قالبها) المتين ، وفي اعتمادها على عنصر الحركة ، وفي اللمسات المركزة في تصوير الشخصية ، وفي مشكلات تطوير هذه الشخصية ، كما انهما تتشابهان في حاجتهما المشتركة الى (ستار) أو الى (لحظة) درامية تتعلق غالبا بموقف فيه أزمة ، ومن هذه الجهة الاخيرة تدنو القصة القصيرة والكلاسية منها بالذات من المسرحية الكلاسية أيضا في وحداتها الثلاث التي نسبت خطأ الى أرسطو ، حتى كأن هذه الوحدات قد وضعت لكلا الفنين بشكلهما الكلاسي على السواء .

ومع أن التطور الذي أصابته القصة القصيرة في السنوات المتأخرة أثبتت أنها في تصويرى الى جانب كونها فنا دراميـا ، ومن هنا قورنت خلال مدد متفـاوتة بالمسرحية والرواية والقصيدة داخل نطاق الادب ، وبالرسم والسينما خارج هـذا النطاق ، واذا كنا نستطيع أن نجد أكثر من وجه واحد للقاء بين الاتجاه (السريالي) في الرسم وبين الشكل الحديث للقصة القصيرة وخاصة في اتكائها على عنصر التداعي والمونولوج فربما كنا نستطيع أن نعثر على أوجه للشبه أخطر وأكثر بينها وبين فن السينما ، ويذكر (بيتس) في (القصة القصيرة المعاصرة) أن الاستاذ (كوبرد) ظل الى فترة طويلة يعتقد بأن القصة القصيرة والفيلم هما صورتان من التعبير تنتميان الى فن واحد هو فن حكاية (قصة) عن طريق سلسلة متتـابعة من الحركات الخلفية ، واللقطات السريعة ، ولحظات الإيحاء ، وقد تعرضت الاسـتاذة (اليزابيث باون) لنفس الفكرة فقالت : ان القصة القصيرة في استخدامها للحدث الفني تقترب من المسرحية أكثر من اقترابها من الرواية ، والسينما نفسهـا في عنايتهـا الفائقة بالتكنيك هي فن من نفس جيل القصة ؟ ففي السنوات الثلاثين الاخيرة كان الفنان والقصاص يخطوان خطوات واسعة جنبا الى جنب ، وثمة صلات كثيرة تربط بينهما ،

فكلاهما لا يستند الى تراث معين وبالتالى فكلاهما حر . وكلاهما مازال يتقدم بحذر ، ويكشف عن اهتمام (بالنظام) يفرضه على نفسه ، وعن احترام للشكل ، وأخيرا فكلاهما يعتمد على مادة غزيرة هى (حساسية) العصر التى لا تأخذ وجهة معينة .

وهكذا نستطيع أن نضع القصة القصيرة فى ميدان الانواع الادبية خاصة بين القصيدة والمسرحية ونبعد بهـا عن كل من الرواية والحكاية والاسكتش والحدوته فهى لا ترتبط بالاشكال القصصية الاخرة ارتباطا هاما ولا خطيرا ، وانما تجتلب الى النوعين الأولين تأخذ منهما بعض المظاهر والقسمات ، أو على وجه أدق تشترك معهما فى بعض المظاهر والقسمات ، ومع ذلك فهى ليست حاصل قسمتهما معا ، وانما هى شكل له (هويته) ووضعه المميز .

ان فن القصة القصيرة كائن حى صغير ذو اكتفاء ذاتى يستمد حياته من العلاقات التى تتم بنسب معينة بين أجزائه ، ولا يمكن أن تقوم هذه الحياة وتستمر عن طريق تكثيف بنـاء آخر (كالرواية) ، أو عن طريق تلخيص نفس البناء ، لان النـاتج سيكون (حدوته) ، والذين يعمدون الى هـذين السبيلين يسلبون الكائن حياته ، ويفقدونه خصائصه ، ويجعلون منه هيكلا عظيما بلا لحم ولا دم ، أو يحيلونه الى مجرد خبر لا قيمة له .

ولكن ما هى خصائص هذا الشكل الفنى وحدوده ؟ وما هى مقوماته وأصوله ؟ اننا فى الواقع ننادى عن (تعريف) الشكل ، لان من الصعب أن نضع تعريفا لهـذا الشكل جامعا مانعا يتضمن ـ كما قلنا ـ ماهية الشكل وانماطه المتعددة ، ونفضل على ذلك بيان طبيعته من خلال تطوره ، ومعاناة نصوصه ، وأغلب الظن أنا نستطيع بعد دراسة جادة لتطور الشكل الفنى للقصة القصيرة أن نجد أنها مرت فى طورين رئيسيين :

الطور الاول يمكن أن ندعوه بالطور الكلاسى ويبتدىء منـذ أن انفصل الشكل عن غيره وتميز وأصبح فنا أدبيا قائما بذاته ويمتد حتى ثلاثينات القرن الحالى .

والطور الثانى وندعوه بالطور التقنى الحديث ، ويسحب منذ أربعينات القرن حتى الوقت الحاضر ، وفيه عصف الكتـاب بأكثر التقـاليد الموروثة للفن القصير ، واتخذوا طرائق وتقنيات وأساليب لمعالجة المادة تختلف الى حد بعيـد عن القواعد القديمة .

غير اننا يجب أن نعترف بان هذه التقنيات الحديثة ولا سيما فى وطننا العربى مازالت فى دور المحاولة والتجربة ، ولم تظفر بعد بأى استقرار يؤثر فى التقـاليد الكلاسية للقصة كما أقامتها أجيـال من الكتاب منذ بوالى تشـيخوف وموباسان ومانسفيلد وبيراندللو .. الخ ، ويجعلنا بالتالى نتكل عليها فى شىء من الاطمئنان، ولذلك فسيقتصر حديثنا الآن عن أهم المعالم الكلاسية للقصة القصيرة .

ولعل أول معلم من هذه المعالم يهب الشكل القصير شخصيته المستقلة هو مبدأ

الوحدة ، ويرجع أصلا الى أن الكائن الانسانى أو الحياة بعامة تتكون من لحظات مكثفة عابرة ومنفصلة تبدو فى نظر الرجل العادى لا قيمة لها ولكنها تحمل قيمة كبيرة من المعانى ، وتصور القصة القصيرة من هذه اللحظات العادية المشحونة بسيالة الحياة وتركيبها خبرا أو بتعبير آخر حدثا محددا له معنى يفصله الكاتب عما حوله ولا يرتكز على ما قبله أو على ما بعده ، ولابد لهذا الحدث من (وحدة) تشمله وتنتظمه وتربط بين جزئياته المختلفة ، فقيل ان هذه الوحدة تتمثل فى الوحدات المسرحية الكلاسية الثلاث وحدة المكان والزمان والفعل ، غير أن هذه الوحدات كما لا يمكن تطبيقها مجتمعة على شتى أنواع المسرحيات والحديثة منها بالذات كذلك لا يمكن فرضها على مختلف ضروب القصص القصيرة ولا سيما وحدتا الزمان والمكان فان الكاتب يمكن أن يستعيض عنهما بطريقة العرض ، وقيل ان هذه الوحدة المطلقة التى تتطلبها القصة القصيرة يمكن أن توجد فى الحبكة ، ولكن مجرد توفر وحدة الحبكة هذه يضاف اليها فكرة شاملة جيدة يقصران بالقصة وبالكاتب من ورائها عن بلوغ وحدة مثلى ، وقد أمكن الوصول الى مثل هذه الوحدة التى تتوقف على النغمة السائدة فى القصة والى أعلى درجاتها على الاطلاق بواسطة وحدة الانطباع أو كما دعاها (بو) بالكلية ، وفى تعريفه الشهير لهذه الكلية أعلن عن ماهية القصة القصيرة التى اذا ما اتبعت سببت للمرة الأولى توترا فى القصة ، الوضع الذى اقتصر طويلا على الشعر ، و « بو » فى هذا يكون أول كاتب ناقد أعطى للقصة القصيرة قالبها القوى والمحكم ، ورأى فيها شكلا من أشكال (الأدب) ، شكلا له وحدة عضوية يسهم كل عضو فيها بقسط كامل فى سبيل الوصول الى التأثير النهائى ، فالحادث أو الموضوع أو الفكرة أو الأسلوب اللغوى ... كل هذه وغيرها لا توجد لذاتها بل لكى تتفاعل مع بعضها البعض وترتبط بعلاقة تؤدى معنى واحد وتشكل كلا متميزا ، وبالتالى تخلق الأثر الكامل .

ومع أنا نعترف بأن (بـو) فى نظريته كان يريد أن يرفع القصة الى مكانة الاعتراف بها كفن يضارع الشعر ، فى وقت كان ينظر اليها على أنها نمط ردىء أو على الأكثر عمل للترفيه الشعبى ـ فان رأيه قد حمل الكثير من الافتعال ، ومن الدعوة الى الافتعال فى صناعة القصة أيضا ، ولعل هذا الشىء أضعف ما فى التعريف أو النظرية ، فهو يوحى بأن فن القصة القصيرة لا يعدو أن يكون عملية (آلية) مرسومة من قبل ينظم لها الحوادث ، ونحن اذا قبلنا مبدأ وحدة الانطباع كشرط من شروط القصة فلا نستطيع أن نقبل هذا المبدأ الهندسى الذى يحيل العمل الفنى فى النهاية الى عملية مصطنعة ، وربما كان مما يعنيه (بـو) فى تعريفه الصيغة النظرية للقصة أكثر مما يعنيه أن يقيم فنه على أساس متين (أنظر وست : القصة القصيرة) ربما كان هذا صحيحا ولكن الأبلغ منه صحة أن هذا التعريف مشتق من نفسه ومن مزاجه ، لقد كان هدفه الرئيسى من القصـــة ومن نظريته فيها أن يحدث عند القارىء الصدمة العاطفية ، ولذلك وجدناه يتجه صوب الخوارق والموضوعات الغريبة والراعبة وعناصر الخرف سعيا وراء مادة قصصه .

المعلم الثاني من معالم القصة القصيرة الكلاسية هو معلم التركيز ، ويتجلى هذا المعلم أو العنصر في طريقة تصوير الموقف وفي طريقة استخدام اللغة والأوصاف ودور الالفاظ هنا كدورها في القصيدة تخضع لمبدأ القصد في التعبير ، فكل لفظة لها مكانها ولها مهمتها ، ويجب ألا تستعمل اذا أمكن الاستغناء عنها أو أمكن أن يستبدل بها غيرها • ولابد أن تكون مؤدية خطوة في سبيل الأثر الموحد ، وهذا لا يتم عن طريق عملية الحذف والاثبات ، وانما يتم مع عملية الخلق بواسطة الطبيعة أو الغريزة الفنية التي تجعل الفنان يحذف ما يحذف أو يثبت ما يثبت تحت تأثير استعداده الفطرى أولا ومرانه الدائب ثانيا •

ويتضمن عنصر التركيز مبـدأ التوازن بين عناصر القصة القصيرة أو مبدأ التناسب ، ومبدأ التوقيت ، ومعنى المبدأ الأول : أن القصة يجب أن تقاس ـ اذا أجزنا هذا التعبير ـ بميزان دقيق حدسى ، وسيظهر اتزانها اذا اشتملت على جملة أو وصف أو جزئية لا مكان أو حتى لا ضرورة لها ، ويعنى المبدأ الثاني : أن كل حادثة أو خبر أو حوار في القصة يجب أن يأتي في الوقت المناسب ، ولكنه لا يعنى ـ في نفس الوقت ـ أن تسجل القصة الأحداث مرتبة حسب وقوعها الزمنى ، فان بعض القصص تبدأ من النهاية ، أو من لحظة (الأزمة) ، ومع هذا فان مبدأ التوقيت يجب أن يحافظ عليه تماما •

والمعلم الثالث من معالم القصة القصيرة هو الايجاز ، ويبدو هذا واضحا في (حجم) القصة ، والحجم هنا سمة ايجابية وليس سمة سلبية ، وقصر القصة أو (الكم) فيها ليس (كما) اختياريا بل هو (كم) تلقائي بحض ، بمعنى أن الموضوع الذي يتجسم فيها لا يمكن تصويره والتعبير عنه الا في هذا الشكل القصير ، ولقد حدد هذا (الكم) أو (الحجم) بالمقياس الزمنى تارة وبالمقياس المكانى أخرى ، وكلا التحديدين غير دقيق ، فالأول يتأثر بسرعة القراءة ، والثاني ليس ضربة لازب ، وعلينا أن نشير الى شيء هام ، وهو أننا في مجال القصة القصيرة لا نقابل الايجاز بالتفصيل ، بل انا لنترادفه به ، ونرى أن القصة القصيرة التي تقوم على الاجمال أو الاختزال أو على التعميم قصة فاشلة مخلخلة ، فما دامت اللحظة الواحدة العابرة هي مجال القصة فيجب أن تصور هذه اللحظة بالتفصيل والتجسيم وليس بالتعميم والتقرير •

والمعلم الرابع الذي يميز القصة من غيرها ويعطيها أدق خصائصها يتصل بهذه اللحظة التي تصورها القصة أو يتصل بجزء منها واقصد النهاية فيها ، وربما كانت هذه النهاية من أهم أجزاء القصة ـ حسب التعريف الكلاسى ـ لأنها السبب في وجود الحدث فيها ، وهي النقطة التي تتجمع فيها وتنتهى اليها خيوطه ، ولهذا سميت بلحظة التنوير ، أي اللحظة التي تبرز معنى كل ما سبقها وتكشفه وتغنيه وتكمله ، وتكتسب هذه اللحظة وضعها الخاص لأنها أحد الفوارق الرئيسية بين فن القصة القصيرة وبين فن الرواية ولأنها مفتاح القصة والمدخل اليها •

وفي الواقع ن مسألة بداية القصة ونهايتها من الأمور الشائكة ، ولئن اعتبرها

بعض الدارسين كل شيء في القصة ورأى أن القصة الجيدة البناء ترتبط نهايتها بصلة وثيقة ببدايتها لأنها آخر المراحل التي يتطور اليها الموقف ، فان بعضهم الآخر لا يرى فيهما أمرا هاما ، ففي الخطاب الذي أرسله (ستيفنسن) الى الاستاذ (سيدني كولفن) أكد له حين اقترح عليه الأخير أن يغير نهاية احدى قصصه ، أكد له الوحدة العضوية للقصة وارتباط نهايتها ببدايتها فقال « ... أضع نهاية أخرى لها ؟ أجل ؟ ولكن ليست هذه هي طريقتي في الكتابة ... انى لا ألجأ الى اضافة لمسة تحدث تأثيرا صريحا اذا كنت أستطيع أن أتحاشى ذلك ، والا اذا كانت تلك اللمسة تمهد الطريق للتأثيرات التالية ... ان النهاية في الرواية لا أهمية لها ، انها مجرد (ختام) يمكنك معالجته راتمامه كما تشاء ، انها (قفلة) فحسب ، وليست جزءا أساسيا من اللحن ، أما في القصة القصيرة فالأمر مختلف ، فان جسد القصة هنا ونهايتها جزءان لا يتجزءان من البداية .. » وقد أكد هذا المعنى كاتب آخر هو (سد جويك) واعتبر بدايه القصة ونهايتها كل شيء فيها ، ولكن هذه المسألة ـ كما أشرت ـ لم تتخذ شكلا محددا فتشيكوف لا يرى في هذين العنصرين أمرا جوهريا ، وكتب قصصا قصيرة بدون بداية ولا نهاية ، على أنه أصر من جانب آخر على ضرورة وجود النغمة الواحدة للقصة ، ويقول (بيتس) (في كتابه السابق) « ... يعتقد تشيكوف أن القصة يجب ألا تكون لها بداية ولا نهاية ، لكنه كان يذكر الكتاب بأنهم لو وصفوا في الصفحة الأولى من القصة بندقية معلقة على الحائط فلابد عاجلا أو آجلا أن تستمر البندقية في القصة الى أن ينتهى الغرض منها ... »

وفي اعتقادى أن الشيء الذى يحل لنا هذه المسألة ان نرجعها ولا سيما نقطة التنوير الى مدى حصول المتلقى على الأثر الكلى الموحد والمركز ، وفقدان هذا الأثر سواء عن طريق بداية جيدة أو سيئة ، أو نهاية حاذقة ترتبط بها أو لا ترتبط ، معناه ضياع القصة أو سقوطها على وجه العموم ، وبذلك تتبلور أمامنا المسألة : أثر أو لا أثر ، أو قصة أو لا قصة .

ونرجع لنقول بأن معظم هذه المعالم أو القواعد أو الأصول أصبحت اليوم من الماضى ، وقد ظلت الى فترة ليست بالقصيرة شبه تقاليد أدبية ، تؤدى مهمتها في صناعة القصة القصيرة ، ويشعر الكثير من الأدباء المعاصرين أنها استنفدت طاقتها ، وضوئلت أو زالت أهميتها ، ولذلك يحاولون محاولات جادة وواعية تحت تأثير التيارات الحديثة ايجاد تقنيات جديدة تتلاءم مع موقفهم الفنى والاجتماعى ، نأمل أن نفرد لها مقالا آخر نتناول فيه ملامحها العامة ، وأهم عناصرها .





بين القصة والقراء

يقدمها : ثروت أباظة

سيد عويس

قصتك « عودة الفراشة » قصة طويلة ولكنها لا تصل الى شيء ، ماذا تريد ان تقول . اهى مجرد وصف لتعلق طفلة بوردة وفراشة . ان كان هذا كل ما أردت فالفكرة أصغر من ان تكون قصة أو حتى حكاية تروى لتزجية الفراغ . أما ان كنت تريد أن تقول شيئا من وراء قصتك فلا بد ان هذا الشيء يتخفى وراء رموز لا سبيل الى حلها ، او انني انا بالذات اعجز عن حلها . وانت تخطىء فى النحو ... اخطاء قليلة ولكنها أيضا بدائية لاتخفى على من يريد أن يكتب قصة . ولكنك مع كل ذلك صاحب اسلوب لا بأس به وطريقتك فى العرض بسيطة وسائغة لا ادرى ماذا أرجو لك ... هل ارجو لك أن تبحث عن فكرة أكثر اتساعا ام ارجو منك أن تبحث عن فكرة أكثر وضوحا ... ارجو منك الرجاء الاول ان كان ظاهر القصة هو كل ما أردت أن تقول وارجو منك الرجاء الثانى ان كان لقصتك هذه معنى استغلق فهمه. ولكنى ارجو أن تعيد المحاولة . وارجو أن ترسل الينا قصة واحدة فى كل مرة حتى يتسنى لنا قراءتها .

محمد عبده الانصارى :

أولا اشكرك على ما جاء بخطابك . واؤكد لك انني اعجبت بقصتك كل الاعجاب ، كما اعجبت باسلوبك الحساس . يا أخى أحب أن تلتفت الى النحو ، فاخطاؤك فيه قليلة وتستطيع أن تتداركها . وانني واثق انك تقدمت عن ذلك العهد الذى تذكرنى به تقدما كبيرا واضحا . وسأعمل على نشر قصتك بالمجلة فى أقرب فرصة .

محمد عبد الحفيظ اصلان :

يا سيدى الصور التى تطلبها للأديبين العملاقين الدكتور طه حسين أطال الله حياته،والمغفورله الاستاذ عباس محمود العقاد ليست قريبة المنال منا

الآن . فليس بالمجلة أرشيف حتى استطيع اجابة طلبك . ولكن هذا لن يمنعنى من ان احاول . ولعلى أوفق.

عبد الصبور الزنزامى :

عن القصةنشكرك لمشاعرك نحوها . اما عن قصتك أنت . فان اسلوبك أجمل كثيرا من قصتك . فالعقدة التى قدمتها بهذا الاسلوب الحلو حلاتها بأسلوب روائى ساذج . الفكرة بطبيعة الحال — قديمة قدم الفقر والحاجة ،وكنت أرجو ان يكون العلاج اكثر عمقا . انك لاشك تقرا كثيرا والا لما حصلت على هذه الثروة اللغوية التى تستخدمها فى اناقة ومعرفة . ولكن يبدو لى انك محتاج الىقراءة القصة بالذات . والقراءة عن القصة أيضا ما استطعت الى ذلك من سبيل . واعتقد انك حين تفعل ستجد على صفحات هذه المجلة مكانا فسيحا ان شاء الله .

سعيد صبحى الصنعانى :

اشكرك على جميل رايك . أما ما يتهمنى به النقاد من انني رومانسي فيؤسفنى أن اقول ان النقاد فى هذا غير جادين . فقد اطلق منهم من أطلق هذا الحكم بناء على بعض القصص القصيرة التى كان لابد فيها ان الجأ الى الرومانسية . اما الروايات التى كتبتها فهى بعيدة عن الرومانسية . بل أستطيع ان اؤكد لك أننى فيما كتبت من روايات بعد«ثم تشرق الشمس»قد تركت الواقعية الى رواية الفكرة وهى النظرية التى تسيطر على الكتابات الحديثة اليوم بعد ان ترك الأدب فكرة الواقعية أو كاد يتركها .

وقد اعجبنى رايك من انك لا تحب ان يجبر الفنان على التزام مذهب معين يصب فيه انتاجه الأدبى . واؤكد لك اننى لو كنت رومانتيسا لصممت أن أظل كذلك مهما يقل النقاد . ولكننى لست كذلك . ولعلك اذا قرات ما كتبه عنى نقاد آخرون غير من قرأت لهم لاقتنعت معى اننى لست رومانسيا . وان كنت لا ارى فى الرومانسية ما يضير . فالمهم أن يتقن الكاتب ما يكتب وليكن بعد ذلك على اى مذهب يريد .

الاسلوب فى قصتك الحذاء الجديد ملىء بالحيوة . والحوار فيها صادق نابض . والواقع ان القصة أعجبتنى وهى تتسم بالواقعية التى يبدو انك تحبها حبا عميقا . الا اننى — لا أدرى لماذا — لم أقتنع بنزول الأم غاضبة كما انهيت قصتك . الأب الخاضع لزوجته ذهب الى حجرته يائسا . ماذا جد بعد هذا هل استاسد الأب ؟ لماذا ؟ هذه نقطة كانت تحتاج الى بعض التوضيح . لا أشك أننى سأجد مكانا لقصتك القادمة فى عدد من اعداد القصة .

نبيل عزيز عبد الملك :

جميل منك انك تعرف ان خطك ردىء... اليس لك صديق خطه واضح بعض الشيء ... لا عليك فقد قرأت قصتيك مع ذلك . اما القصة الأولى « ليتها تعود » فتحتاج الى العقدة القصصية ... هى مجرد سرد وذكريات السرد ساذج والذكريات باهته ليس فيها عمق . القصة تحتاج دائما الى فكرة ... فكرة واضحة فى ذهنك وتقدمها الى الناس .

اما عن قصتك الثانيه « حاسب يا اسطى » فهى من ناحية العقدة احسن من سابقتها الا ان المفاجأة فيها صارخة تقبلها الحياة ولا تقبلها القصة . اى

انها قد تحصل فى الحياة ولكنها فى القصة تبدو ساذجة بعض الشيء . ولا تعجب من ان القصة قد لا تقبل احيانا ما يقع فى الحياة . فالقصة وسيلة اقناع والحياة تفعل ما يحلو لها دون أن تحتاج الى اقناع احد . لابد للكاتب أن يقنع قراءه بالحدث اما الحياة فلا يهمها أن يقتنع القراء أم لا يقتنعوا .

انك تحتاج فى قصصك الى بعض العمق . اما اسلوبك فهواسلوب سردى لا بأس به ولكنه يريد منك أن تعتنى به أكثر مما تفعل . هناك بعض اخطاء فى النحو نستطيع ان نتغاضى عنها حين نجد لك قصة أكثر عمقا مما ارسلت. وارجوك أن ترسل الينا فى كل مرة قصه واحدة حتى تتيح المجال لغيرك أن نقرأه ونعلق عليه .

حامد محمد وفا :

اولا خطابك فى غاية البراعة ، وأبادر فارجوك ان تبحث للفيران عن طعام آخر فلا شك أن لك موهبة قصصية ينتظرها مصير خير من اسنان الفار . ولا بأس عليك ان تأخر بك النشر فانك بالغه على اية حال .

والآن قل لى . لماذا تخطىء فى النحو وانت مدرس . والاخطاء واضحة لا تحتاج منك الا الى لفتة هينة . لعلك مللت الكتابة فانت حين تكتب لا تبذل بعض الرقابة على قلمك فيسبقك الى الخطأ .

قصتك الاولى . الخريف ... والسراب لا بأس بها ولكن لا بد ان تعمق الفكرة أكثر مما تفعل ، انها لمحة من قصه تستطيع ان رعيتها ان تجعل منها قصة . حياة ذلك الرجل الذى نحى الى المعاش مبتورة رسمت منها خطا ضئيلا وكنت تستطيع ان ترسم خطوطا كثيرة.وذلك الملاحظ الامبراطور اما كنت تستطيع ان تتبعه أكثر مما فعلت .

اما عن قصتك الثانية . « من أجل هذا ... عادت » . فالدوافع فيها غير واضحة . لماذا غابت الأم ولماذا عادت ؛ وما موقف راوى القصة من صابرين لماذا لم يسأل عنها اباها وليس فى هذا حرج عليه وهو مدرس وصابرين طفله . ولعلك تدرى ان الأمومه موضوع كتب فيه كثيرا فالجديد فيه لابد ان يكون فى العلاج . واعتقد ان العلاج فى قصتك هذه ليس جديدا .

فى المرة القادمة استنقذ لنا من الفيران قصة واحدة وارجو ان تعنى باختيارها فلعلنا نجد مكانا لها .

محمد رضا عبد العزيز :

الحوار عندك ممتاز . فقدرتك البالغة على كتابة اللغة العربية التى يظنها القارىء عامية تدل على انك تملك ذخيرة لغوية غنية . كما انك دقيق فى الوصف ذو نظرة عميقة ، وانت تحسن السرد فى ذكاء واللمحات التى تومض فى سياق السرد عندك تدل على موهبة قصصية

لا ارى داعيا لتشبيهك الفم بالبغى فالصورة فيها اعتساف لا يدعو اليه سرد القصة .

القصة فى ذاتها لا بأس بها ولكن ناحية الوعظ فيها واضحة وضوحا يغض من قيمتها الفنية .

المفروض أن يتحايل القصاص ليقول مايقوله في أسلوب فني بعيد عن الوعظ انت لم تخطب ـ هذا صحيح ـ ولكنك قدمت الواقعة والجزاء فى شكل وعظى. اعتقد اننا سننشر قصتك القادمة وأرجو ألا تكتب على ظهر الصفحة كما أرجو أن تجعل كل سطر فى الحوار قائما بذاته فلا يختلط بالسرد ٠

يوسف القط :

كان يمكن أن تكتب خطابك بأسلوب أقرب الى الروح الأدبية مما هو ٠ فما أسهل المهاترة وما أيسر الكلمة الملتوية ، وانما الصعب أن يكون الانسان أديبا فيما يكتب ومايقول ٠

وبعد ٠٠ فما هذه الحمى التى أصابت بعض الناس وأنت منهم لأن أستاذنا تيمور قدم قصة لكاتب ناشىء اتضح أنها مسروقة ٠ هل المفروض أن يقرأ الاديب الكبير كل ماكتب فى الادب الغربى ٠ من يستطيع أن يلزم انسانا بهذا ٠ ان أديبنا الكبير أنشأ سنه طالما رجا ناشئه الادب أن يسنها كتابنا الكبار فاذا ما أقدموا تعالت الاصوات القصة مسروقة ٠ ما شأن تيمور ان كانت مسروقة أم غير مسروقة ٠ ان الكاتب الذى يقدم قصة مسروقة يتحمل وحده تبعة عمله ٠ ولن يصبح من يقدم لهذه القصة مخدوعا ٠ فليس مفروضا أن يلم أحد بالادب الغربى وجميعه ٠ والكاتب الذى يرضى لنفسه أن يكون لصا ليس خليقا لأن يصبح أديبا ٠ والمجال أمام محمد القرش مفتوح ان شاء أن يجيب هؤلاء الذين يرفعون عقيدتهم حتى لتوشك عقائدهم أن تنشق ٠ أما نحن الذين نقوم بشأن هذه المجلة فاننا نعد بأننا سننشر كل مانعجب به ولن يضيرنا أن يكون مسروقا مادمنا لانعرف بأمر هذه السرقة فاننا نعترف أننا جميعا لم نقرأ الادب الغربى كله ٠ ولن نقرأه ولن نحاول وانما سنعتمد على ضمائر الكتاب فى أن يكون مايكتبونه من تاليفهم هم ٠ وهذا أقل مايمكن أن يعتمد عليهم فيه ٠

أما السن أيها الاخ فلا شأن له بالنشر ٠ وبناء عليه فلا أسبقية لك فى التسجيل ولا أسبقية لك فى شىء ٠